التنمية العقلية
في نهج البلاغة

التنمية العقلية
في نهج البلاغة

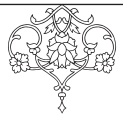

التنمية العقلية في نهج البلاغة

السيد عبدالمطلب الموسوي الجابري

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز
العراق - النجف الأشرف
٠٧٧٢١٥٨٤٧٧٧

هوية الكتاب

- العنوان: التنمية العقلية في نهج البلاغة
- المؤلف: السيد عبد المطلب الموسوي الجابري
- مراجعة وتنقيح: مركز الامام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية
- الناشر: مركز الامام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية - النجف الاشرف
- المطبعة: دار أبو طالب - العتبة العلوية المقدسة ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

التصميم والإخراج الفني
احمد مكي جعفر
am | AGENCY
078 2690 1443 | وكالة اي ام الإعلانية

In the Name of Allah,
the Most Beneficent, the Most Merciful

المحتويات

مقدمة مركز الامام أمير المؤمنين عليه السلام ١١
التنمية العقلية في نهج البلاغة – المقدمة ١٣
مَنْ أنـا؟ ١٣
من أين يأتي الفكر؟ ١٣
لماذا نهج البلاغة؟ ١٦
الباب الأوّل ١٩
موازين أُسس الفكر الديني ١٩
الفصل الأول ميزان معرفة الله ٢٠
الأول: دليل السببية ٢٠
الثاني: دَليل النَظْم والإتقان ٢١
الثالث الدليل الفلسفي ٢٢
ميزان التوحيد الصحيح ٢٦
كيف نتصور وجود الله مع كل شيء؟ ٢٨
ما هو المقدار المطلوب من معرفة الله؟ ٣٢
المجال الأول: مجال فعل الله ٣٣
المجال الثاني: الصفات السلبية ٣٨
خلاصة ميزان المعرفة ٣٩
دور معرفة الله في بناء المجتمع الصالح ٤٠
الفصل الثاني ٤٥
ميزان معرفة النفس ٤٥
مـا هي النفس الإنسانية الحقيقية؟ ٥١
ما هو القلب؟ ٥٥
ما هو الإنسان؟ ٥٩
كيف يتم صناعة الإنسان؟ ٦١
الإنسان بين النظامين الإلهي والمادي ٦٤
الفصل الثالث ٧١
ميزان الحريّـة ٧١
ما هي الحرية: ٧٣

الحريّة في النظام المادي تعدم نفسها: ٧٧
الفصل الرابع ٨٣
ميزان السعـادة ٨٣
طريق السعادة ٩٠
الآخرة تُـصلح الدنيا ولا تلغيها: ٩٢
الفصل الخامس ٩٧
ميزان فهم الدين ٩٧
مراحل فهم الدين: ١٠١
الدلالة الإجمالية للقرآن: ١٠٢
كيف نحصل على الدلالة القرآنية: ١٠٣
أهميّـة الدلالة الاجمالية في معرفة الدين: ١٠٦
الدلالة التفصيـليّـة على الإسلام: ١٠٧
عدم الفهم مشكلة الأمّـة: ١١٣
الباب الثاني موانع التفكير ١١٩
الفصل الأول ١١٩
موانع العقل النظري: ١٢٠
الأول: غلبة الحس والخيال على العقل: ١٢٢
الثاني: التفكير الأفقي: ١٣١
الثالث: التفكير التخزيني التجزيئي لا الإنتاجي المنظومي: ١٣٤
التفكير المنظومي الإنتاجي جامع مانع: ١٣٦
الازدواجية في التفكير: ١٣٨
الجهل وكارثة التحكيم: ١٣٩
الرابع: التفكير غير المنطقي: ١٤٠
الخامس: التفكير التعميمي: ١٤٨
السادس: التفكير المتشابه: ١٥٣
السابع: التفكير التشاؤمي: ١٦٠
الثامن: التفكير الانهزامي: ١٦٥
الفكر الاحباطي: ١٧١
التاسع: التفكير الأحادي النظر: ١٧٢
العاشر: التفكير الانفعالي: ١٧٥

الحادي عشر: التفكير الّـلا علمي: ١٧٦
الثاني عشر: التفكير العاطفي: ١٧٩
الثالث عشر: التفكير الاستبدادي: ١٨١
الثاني عشر: تفكير شخصنة الحق: ١٨٤
الثالث عشر: التفكير الفردي: ١٨٦
التفكير الاناني والانطوائي ١٩١
التشريعات الفردية ١٩٢
الفقه الفردي ١٩٢
الفصل الثاني ١٩٥
موانع العقل العملي (الإرادة) ١٩٥
ما هي الدنيا؟ ١٩٩
الدنيا المحمودة والدنيا المذمومة: ٢٠٠
الفكر العلوي وصناعة اللذات العالية: ٢٠٦
الشعور العالي ميزان العلويّـة: ٢٠٨
الوقاية من العصبية: ٢١٤
الوقاية من لواقح الكِـبْـر: ٢١٨
الكِـبْـر مصيدة ابليس العظمى: ٢٢٠
المانع الثالث: الطمع: ٢٢١
علاج الطمع: ٢٢٢
المانع الرابع: التسويف: ٢٢٥
المانع الخامس: التردد والإحجام: ٢٢٧
المانع السادس: التسرّع والعجلة: ٢٢٩
الباب الثالث ٢٣٥
طرق تقوية العزم والإرادة ٢٣٥
الأول: التفكّـر: ٢٣٧
الثاني: المحاسبة: ٢٤٢
الثالث: معاشرة الصالحين: ٢٤٣
مسك الختام: ٢٤٤
عليٌّ مؤسس علم الاجتماع ٢٥٠

مقدمة

مركز الامام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وعلى اله الغر الميامين

من الأمور الهامة والمؤثرة بل الأساسية في عملية التفكير البشري هي القدرة العقلية، التي لها تعاريف متعددة منها هي تلك المجموعة من الأساليب الخاصة بالأداء المعرفي، حيث أنها ترتبط ببعضها ارتباطاً قوياً ووثيقا بينما ترتبط بغيرها ارتباطاً هامشي، أو هي تلك المجموعة من تلك الملكات الخاصة بالشخص والمنفصلة عن بعضها البعض، أو هي تلك القدرة العقلية الفكرية أو الشعورية أو الإرادية حيث أن كلها تعتمد على تفسير تلك المظاهر العقلية المختلفة والتي تعبر عن الأداء العقلي، وقد عرّفها البعض من المتخصصين والعلماء على أنها هي جوانب النشاط العقلي كملكة التذكر وملكة الانتباه وملكة التخيل وملكة الابتكار، بينما رأى اخرون بأنها هي تلك القدرة العقلية على الفهم والقدرة على الطلاقة اللفظية ومن ثم القدرة على خروج الطلاقة التعبيرية أي القدرة على إخراجها في طاقة تعبيرية.

والسؤال المطروح هو هل بالإمكان العمل على تنمية ومضاعفة وتطوير القدرات العقلية الخاصة بالإنسان؟ حيث أن جميع الأبحاث والعلوم الحديثة قد أكدت على أن ذلك يكمن في التعليم، فالتعليم بمفهومه هو تلك العملية الخاصة باكتساب المهارات والمعارف والقيام ببناء وتطوير السلوك وذلك بعد اكتساب الخبرات والمهارات اللازمة للتطوير، ولاتتم هذه العملية إلا

عــن طريــق عامــل التحفيــز والإدراك، حيــث يجــب أن يأخــذ الشــكل التعليمــي تنميــة المهــارات الثقافيــة والفكريــة والدينيــة في المجتمــع وفيهــا تقــوم عمليــة تطويــر الــذات وتطويــر القــدرات العقليــة حيــث يعــد ذلــك مــن أفضــل الطــرق لتنميــة القــدرات العقليــة.

وعمــد مؤلــف الكتــاب الســيد عبــد المطلــب الموســوي دام توفيقــه عــلى الاســتفادة مــن كلام الامــام أمــير المؤمنــين ﷺ في نهــج البلاغــة حــول العقــل وتنميتــه، وتنميــة الادراك والحــس والشــعور وجميــع مــا يرتبــط بــه ارتباطــا وثيقــا مــن أجــل اســتيعاب جميــع الملــكات التــي هيأهــا الله تعــالى وســبر غورهــا للوصــول الى الكــمال الروحــي والنفــسي بعــد اســتحكام العقــل عــلى جميــع أعضــاء الجســم وملكاتــه، وتعتــبر هــذه الدراســة جديــدة في موضوعهــا وطرحهــا ملائمــة للتطبيــق والواقــع، لــذا ســعى مركــز الامــام أمــير المؤمنــين ﷺ للدراســات والبحــوث التخصصيــة الى مراجعــة هذا الكتــاب وتنقيحــه واخراجــه ونــشره ليكــون منهــلا عذبــا للظامئــين... والله مــن وراء القصــد

النجـــف الاشرف
١ ربيع الأول ١٤٤٣

التنمية العقلية في نهج البلاغة

المقدمة

مَنْ أنا؟

سؤال يجاب عليه بسؤال آخر... ماذا تفكّر؟

أنت ما تفكّر... وسعة حقيقتك تقاس بمقدار فكرك.

فَمَن كانت دائرة فكره ضيقة، فهو إنسان ضيق وصغير، ومن كانت دائرة فكره واسعة فهو إنسان كبير وعظيم.

من أين يأتي الفكر؟

الفكر منتوج وثمرة أرض الإنسانية وهي العقل، هي قابلية الإدراك والفهم التي يجب أن تُزرع لتُنْبت الإنسان.

عندما يبدأ الإنسان حياته على الأرض كوليد رضيع فإنه يتحرك بوحي الغريزة والحاجات البدنية التي تجعله يصدر البكاء والإشارات التي تقرع جرس الحنان والشفقة والأمومة والأبوة لدى الأبوين والأقرباء، وبعد تفعيل أدوات السمع والأبصار لديه، تبدأ عملية نثر بذور التفكير في أرض عقله، يرى الأم واللبن، يرى الأب والأقرباء، يرى الماء والأشياء، يتعرف على الأشكال والألوان، وتتبلور هذه النظرات على شكل تصورات مبعثرة وغير مترابطة، وبعد أن يتم تفعيل القوة الحافظة للصور الملتقطة، وتتكرر الصور، تبدأ عملية الاستذكار التي تعد الطفل كي يبدأ بعملية الربط والتفكير التي تكون في أولها على شكل حمل للأشياء على نفسها، (الأم أم)، (الأب أب)،

(اللبـن لبـن)، وبعـد أن تـزداد الصـور المحسوسـة والمحفوظـة، ويتكـرر الإحسـاس والاسـتذكار، يقـوم بالربـط بـين الأشـياء، هـذا مـاء يُـشرب، وهـذا خبـز يُـأكل، وهـذا إنسـان ينـام عـلى صـدره ويرتضـع، اسـمه (ماما)، وذاك إنسـان يحتضنـه ويشـمه ويقبلـه اسـمه (بابـا)، ويـرى حركـة النـاس المختلفـة في تلبيـة حوائجهـم، عندهـا يبـدأ الطفـل حركتـه نحـو تشـخيص الأشـياء، وتبـدأ حياتـه الإنسـانية، وهـي حيـاة التفكـير بالتعـرف عـلى الأشـياء، فتبـدأ المعلومـات تنبـت في أرض قلبـه وعقلـه، وهنـا لابـد أن تبـدأ عمليـة التعليـم والتربيـة، وتوجيـه العقـل للقيـام بعمليـة التفكـير التـي تُنتـج المعلومـات الصحيحـة، فهنـا تتكاثـر الصـور وتتشـابه ويحصـل الخطـأ في التطبيـق، فهـو عندمـا يـرى المـاء الـذي هـو سـائل أبيـض وهـو الـذي رآه وأدرك مـن قبـل إنـه السـائل الـذي يـروي العطـش، ثـم يـرى سـائلاً أبيضـاً يشـبه المـاء وليـس بـماء، فيحكـم عليـه أنـه مـاء الـشرب، فيخطـأ ويـشرب! فهنـا لابـد مـن التعليـم، تعليـم الطفـل القياسـات الصحيحـة كـي لا يقـع في الخطـأ.

قياسـاته الآن، بـأن كل سـائل أبيـض هـو مـاء، وكل مـاء يـروي العطـش، يجـب أن يفهَّـم أن هذيـن القياسـين خاطئـان، يجـب أن يعلـم أن السـائل الأبيـض مشـترك بـين المـاء والنفـط والخـل و... وإن المـاء نفسـه مشـترك بـين المعقـم والملـوث، بـين الحـار والبـارد، بـين مـاء الغسـل والسـقي ومـاء الـشرب...

هنـا يجـب تنميـة المعلومـة عنـد المطفـل ورفعهـا مـن الخيـال والحافظـة إلى العقـل حتـى يـدرك معلومـة جديـدة ومهمـة وهـي: ليـس كل سـائل أبيـض مـاءً، ومعلومة أخـرى مهمّـة وهـي: ليـس كل مـاءٍ صالحـاً للشرب.

وهـذا مثـال يمكـن أن تنطبـق عليـه جميـع رغبـات وحاجـات الإنسـان الفرديـة والاجتماعيـة، فعليـة أن يتعلـم ليشـخّص كيـف يسـد حاجتـه عـلى النحـو الصحيح، ويكمـل نقصـه ويـروي عطشـه ويشـبع رغبتـه بالإشـباع الحقيقـي، ولا يقـع في الجهـل والخطـأ فيقـوده نحـو الإشـباع الوهمـي، أو الإضرار بنفسـه.

هذا قسم من العقل، وهو الذي يسمى بالعقل النظري، والذي يشخص ماذا يوجد؟ أو ماذا أعلم؟

وهناك قسم آخر من العقل، وهو العقل العملي، وهو الذي يشخص ماذا يجب، أو ماذا أعمل، وهو الذي يرتبط بالإرادة، عندما أشخّص أن هذا ماء زلال، وذاك سراب أو ملح أجاج، فهنا لابد من تغذية عقل الإرادة والعمل كي يحركني نحو الإرواء الحقيقي، ويمنعني من الحركة نحو الإرواء الوهمي الذي لا يزيدني إلاّ ظمأً ونصبا، كي لا أبتلى بالكسل والخمول والعجز والترهل وخواء الإرادة نحو الحركة إلى الماء المعقم الزلال، وكي لا أخدع بتزيين وتلبيس المخادعين والملابسين، الذين يدفعونني نحو الماء الأجاج، فلابد من تربية وتنمية عقل الإرادة لتكميل عقل التشخيص، فإذا اقترن عقل ماذا يوجد مع عقل ماذا يجب، وأصبح الإنسان يعلم حقّا ويعمل بالحقّ، فإنه سوف يسير في مسار الإنسانية الصحيح.

ولأجل تنمية هذا العقل بشقّيه جاء الأنبياء، فهم يقومون بدورين مهمين هما:

الأول: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾ **والثاني**: ﴿...وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

النبي معلِّم، يعلِّم الناس ماذا يوجد، ويربّي الناس ليتحركوا إلى ماذا يجب، النبي معلِّم يحرك عقل العلم، وقدوة يربّي عقل العمل والإرادة، وبهاذين الدورين يزرعون أرض الإنسانية وهو العقل، ويسقوه كي يثيروا (دفائن العقول)[1]، ولتَنبُت أشجار الإنسانية الطيبة التي ﴿...أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾[2].

١- أنظر الخطبة الأولى من نهج البلاغة.

٢- إبراهيم: آية ٢٥.

لماذا نهج البلاغة؟

إنتـاج وصناعـة الإنسـان يحتـاج إلى أن تسـقى أرض العقـل بالفكـر والإرادة لتنبت العلـم والعمـل، ومصـدر هـذا الغيـث الـذي يحيـى الأرض بعـد موتهـا هـو الكـمال المطلـق الإلهـي، وسـحائبه التـي تنزلـه إلى الأرض هـي قلـوب الرسـل والأنبيـاء، فالتوحيـد مصـدر الغيـث، والنبـوة وسـيلة إيصالـه إلى الأرض، والإمامـة والولايـة هـي التـي تتحمـل مهمّـة التطبيـق وهندسـة إثـارة أرض العقـول لإنبـات العلـم والعمـل.

وقـد تـولّى رسـول الله ﷺ مهمّـة الإمامـة والولايـة، إلى جانـب الرسـالة في حياتـه المباركـة، فـكان المعلـم للكتـاب والحكمـة وكان القائـد المزكّـى والقـدوة والأسـوة الحسـنة في العمـل، وربّـى عليـاً عليه السلام ليكـون النمـوذج الكامـل لبنـاء صرح العلـم والعمـل، الـذي تحفـظ بـه الرسـالة وتواصـل مسـارها بسـلام، ولذلـك كانـت ولايتـه كـمالاً للديـن وتمامـاً للنعمـة، وبهـا أصبح الإسـلام مرضياً، ويُـؤمَر الرسـول بـأن يعلـن هـذه الولايـة، وإنْ لم يفعـل فـما بلّـغ رسـالته[١]، ويوصـف عـلى عليه السلام بأنّـه {عـلي مـع الحـق والحـق مـع عـلي يـدور حيـث دار}[٢]، وإنّ عليـاً (ميـزان الأعـمال)[٣]، وإنـه (قسـيم الجنّـة والنـار)[٤].

ومـؤدّى هـذه العبائـر كلهـا إنّ عليـاً هـو معلـم ومهنـدس ومـربّي الفكـر والإرادة التـي تنتـج العلـم، والعلـم الـذي يصنـع الإنسـان لكـي يحيـى حيـاة طيبـة ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾[٥] ويمـوت ميتـةً طيبـة ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[٦]،

١- معاني مقتبسة من الآيات ٣ ــ ٦٧ سورة المائدة.
٢- التفسير الكبير الفخر الرازي ح١ ص١٦٨.
٣- مفاتيح الجنان ـ الشيخ عباس القمي (زيارة الإمام علي المطلقة).
٤- الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ج٢ ص٣٦٩.
٥- النحل: ٩٧.
٦- النحل: ٣٢.

ويدخـل الجنّــة ليَخلُـدَ فيهـا طيبـاً ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[١].

وعـليّ عليه السلام هـو النمـوذج التطبيقـي الأعـلى للتوحيـد والنبـوة في الأرض، ونهـج البلاغـة هـو التفسـير العلمـي والعمـلي للقـرآن الكريـم، فـإذا أردنـا أن نسـير في مسـار التوحيـد والنبـوة لنصنـع الإنسـان، فلندخـل في الولايـة العلويـة، وليكـن نهـج بلاغتـه وسـيرته منهـج حياتنـا الـذي نأخـذ منـه مقاييـس وموازيـن الحيـاة، لنكشـف ونعـرّض أرض أنفسـنا وعقولنـا للغيـث العلـوي النـازل مـن سـماء التوحيـد والنبـوة، والـذي يثـير دفائـن وخزائـن عقولنـا فنعـرف مـاذا يوجـد، ويشـحن عقـل إرادتنـا فنتحـرك لمـا يجـب أن نعمـل.

فتعالـوا إلى نهـج البلاغـة لنتعلـم مـاذا نفكـر، ومـاذا نعلـم، وكيـف نـرى الكـون، ومـا هـو مصـدر الكـون ومصيره؟ وكيـف نـرى أنفسـنا؟ ورؤيـة المصـدر والنفـس والمصـير تحـدد المسـار، وتحـدد مـاذا يجـب أن نفعـل؟ ومـاذا يجـب أن نـترك؟ وكيـف يجـب أن نكـون ونعيـش ونتعامـل؟ ومـاذا نحـب، ومَـــنْ؟ ومـاذا نكـره، ومَـــنْ؟ وكيـف نصنـع أنفسـنا ونبنيهـا؟ وكيـف نبنـي المجتمـع والحضـارة الإنسـانية والحيـاة الطيبـة الخالـدة؟ فلنتمسـك بنهـج البلاغـة لنـدّبّـر الحيـاة بـه ونقودهـا، بـل لنصنـع الحيـاة، ومصنـع الحيـاة لـه أسـس يبنـى عليهـا، فلنتعـرف عـلى موازيـن بنـاء هـذه الأسـس، تعالـوا إلى ميـزان الحـق والأعـمال ليعلمنـا كيـف نفكّـر، ولنتعـرّف منـه عـلى موازيـن أسـس الحيـاة، ثـم نتعـرف منـه عـلى موانـع التفكـير والمعرفـة، فتعالـوا لنبنـي مصنـع الحيـاة ونحافـظ عليـه.

١ - الزمر: ٧٣.

الباب الأوّل
موازين أُسس الفكر الديني

الفصل الأول
ميزان معرفـــــة الله

الفصل الأول ميزان معرفة الله

كـما فعـل القـرآن الكريـم كذلـك فعـل نهـج البلاغـة، عندمـا دأب عـلى تحريـك العقـل نحـو معرفـة الله، مؤكـداً عـلى أنهـا أسـاس الديـن {أَوَّلُ الدِّيـنِ مَعْرِفَتُـهُ}، والديـن الـذي لا ينطلـق مـن هـذا الأسـاس فهـو مجموعـة قشـور وأوهـام، معلقـة في الهـواء كبيـت العنكبـوت، لا يقـاوم أضعـف عواصـف الامتحـان والاختبـار، ويتهـاوى أمـام ريـاح الترغيـب وأمـواج الترهيـب، والتمويـه والخـداع، ويتحـول هبـاءً منثـورا، والمعرفـة بـالله تتحقـق عـلى ثـلاث مراحـل مترابطـة وهـي:

المرحلـة الأولى: إثبـات الخالقيـة، أي إثبـات ضرورة وجـود خالـق لهـذا الكـون، وإثبـات توحيـده الخالقـي.

المرحلـة الثانيـة: إثبـات الربوبيـة، أي أن الخالـق وهـو الله سـبحانه وتعـالى، هـو رب ومدبّـر لهـذا الوجـود، وإثبـات التوحيـد الربـوبي.

المرحلـة الثالثـة: إثبـات ضرورة العبوديـة للخالـق – الـرب –، وإثبـات التوحيـد العبـودي.

فـالأولى تتعلـق بمعرفـة وجـود الله سـبحانه، وهـي الأدلـة عـلى اثبـات وجـود إلـه وخالـق لهـذا الكـون، وهـي كلُّهـا أدلـةً عقليّـة وفطريّـة، وقـد قسّـم علـماء الفلسـفة والـكلام هذه الأدلّـة إلى أقسـام نذكر أهمّـها:

الأول: دليل السببية:

الـذي يبتنـي عـلى ضرورة انتهـاء سلسـلة المعلـولات والعلـل، إلى العلـة الأولى التـي هـي المؤثّـر الأول، والمصـدر الأصـلي للمخلوقـات، وحـول هـذا الدليـل توجـد الكثـير مـن الخطـب العلويـة التـي تدعـو إلى التفكّـر في الخلـق، وإلى ضرورة وجـود العلّـة الأولى، وبطـلان التسلسـل، وإلاّ لمـا كان هنـاك تتحقـق للوجـود، كـما

في الخطبــة (١٠١):

{الْحَمْـدُ للهِ الْأَوَّلِ قَبْـلَ كُلِّ أَوَّل، وَالْآخِـرِ بَعْـدَ كُلِّ آخِـر، بِأَوَّلِيَّتِـهِ وَجَـبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَـهُ،}.

وفي الخطبــة ٩١: (...الَّــذِي ابْتَــدَعَ الْخَلْقَ عَــلَى غَــيْرِ مِثَــالٍ امْتَثَلَــهُ، وَلاَ مِقْــدَارٍ احْتَــذَى عَلَيْــهِ، مِــنْ خَالِــقٍ مَعْبُــودٍ كَانَ قَبْلَــهُ، وَأَرَانَــا مِــنْ مَلَكُــوتِ قُدْرَتِــهِ، وَعَجَائِــبِ مَــا نَطَقَــتْ بِــهِ آثَــارُ حِكْمَتِــهِ، وَاعْــتِرَافِ الْحَاجَــةِ مِــنَ الْخَلْــقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَــا بِمِسَــاكِ قُوَّتِهِ، مَــا دَلَّنَــا بِاضْطِــرَارِ قِيَــامِ الْحُجَّــةِ لَــهُ عَــلَى مَعْرِفَتِــهِ، وَظَهَــرَتِ الْبَدَائِــعُ الَّتِــي أَحْدَثَهَــا آثَــارُ صَنْعَتِــهِ، وَأَعْــلاَمُ حِكْمَتِــهِ، فَصَــارَ كُلُّ مَــا خَلَــقَ حُجَّــةً لَــهُ وَدَلِيــلاً عَلَيْــهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقــاً صَامِتــاً، فَحُجَّتُــهُ بِالتَّدْبِــيرِ نَاطِقَــةٌ، وَدَلاَلَتُــهُ عَــلَى الْمُبْــدِعِ قَائِمَــةٌ...).

الثاني: دَليل النَظْم والإتقان:

الــذي يــدل عــلى المنظــم والمهنــدس لعظمــة هــذا الوجــود المتقــن، ونــرى هنــا أن الإمــام يــولي اهتمامــاً في بعــض خطبــة، لذكــر آيــات ودلائــل العظمــة الإلهيــة، كــما في الخطبــة ١٨٥:

(...ألاَ تَنْظُــرُونَ إِلَى صَغِــيرِ مَــا خَلَــقَ اللهُ، كَيْــفَ أَحْكَــمَ خَلْقَــهُ، وَأَتْقَــنَ تَرْكِيبَــهُ، وَفَلَــقَ لَــهُ السَّــمْعَ وَالْبَــصَرَ، وَسَــوَّى لَــهُ الْعَظْــمَ وَالْبَــشَرَ...)، ثــم يذكــر النملــة ومــا في خلقتهــا مــن عجائــب، والتدبّــر والإدارة المتقنــة لحياتهــا، فكيــف تنقــل الحبّــة إلى حجرهــا، وتعدهــا لمســتقرّها، تجمــع في حرّهــا لبردهــا، وفي وردهــا لصدرهــا، ثــم يذكــر المخلوقــات المختلفــة مــن الســماء والهــواء والريــاح والمــاء والشــمس والقمــر والنبــات والشــجر، واختــلاف الليــل والنهــار، واختــلاف الألســن واللغــات، ثــم يقــول (فَالوَيْــلُ لِمَــنْ جَحَــدَ الْمُقَــدِّرَ، وَأَنْكَــرَ الْمُدَبِّــرَ! زَعَمُــوا أَنَّهُــمْ كَالنَّبَــاتِ مَــا لَهُــمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِاخْتِــلاَفِ صُوَرِهِــمْ صَانِــعٌ، وَلَمْ يَلْجَــؤُوا إِلَى حُجَّــةٍ فِيــمَا ادَّعَــوا، وَلاَ تَحْقِيقٍ

لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِن غَيْرِ جَانٍ)!

وفي الخطبة ١٠٨ يقول عليه السلام:

(الْحَمْدُ لله الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ...) أي إن المخلوقات هي آيات ودلائل تجلّى الله تعالَى بها وظهر لخلقه، فيما يوجد من المخلوقات من دلائل العظمة والقدرة والعلم والرحمة، هي علامات على أن الخالق هو مصدر هذه العظمة والقدرة وسائر صفات الكمال.

الثالث الدليل الفلسفي:

وهو دليل عقليّ محض، وهو أصعب الأدلّة، ولكنّه أفضلها[1]، لما يترتب من المعرفة التي تحصل منه، فإنّ أدلّة السببيّة والنظم والغائيّة، تدل على ضرورة وجوب الخالق والمنظم لهذا الكون، فهي تدل على الخالقيّة والتوحيد الخالقي، ولكنها لا تدل بوضوح وقطعية على التوحيد الربوبي، الذي ينتج منه التوحيد العبودي لله، كما يدل عليه الدليل الفلسفي الذي يدل على قيام كل موجود بما هو موجود مخلوق بوجود الله سبحانه، فعندما يقول عليه السلام في الخطبة (١): (وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كائِنٌ لاَ عَنْ حَدَث، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ)، فإن هذه الكلمات تحرك العقل الفلسفي لنعرف الله الذي لا يمكن أن يخلو منه شيء، فلا يصح أن يُسأل عن الله في أي شيء، أو على أي شيء، فهو موجود مع كل شيء دون أن يكون محدوداً في ذلك الشيء، وقوله عليه السلام في الخطبة ١٨٦: (...وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ...) يوضح معنى وجود الله في كل شيء.

١- للمزيد من التوضيح حول أفضلية هذا الدليل وأهميته، راجع تعليقة الشهيد مطهري على ابن سينا في الإشارات، ذكرها ضمن توضيحه للدليل الفلسفي في الدليل على وجود الله، وبيان أهمية هذا الدليل في معرفة الله وتوحيده وصفاته التي ذكرتها آيات القرآن الكريم، في كتاب شرح أصول الفلسفة ج:٥، ص: ٦٦.

فالوجود عقلاً إما قائم بنفسه أو بغيره، والوجود القائم بغيره هو الذي يكون قائماً بالوجود القائم بذاته، وهو الله عزّ وجل.

فكل الموجودات القائمة بالغير، وهي المخلوقات المحتاجة في وجودها والمفتقرة إلى الله القائم بذاته، فالله سبحانه له قيوميّة عليها في ذاتها، لأن وجودها قائم به سبحانه، وهذا تفسير لقوله تعالى:
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[2].
وهل يوجد في هذا الوجود شيء وإن كان جزءً من الذرة أو الإلكترون أو البروتون إلاّ ويصدق عليه أنّه شيءٌ، والله سبحانه شهيد على ذلك الشيء ومحيط به، وهذه الشهادة والحضور والإحاطة، إحاطة قيّوميّة، وقيام للأشياء بالله سبحانه وحضوره فيها.

وهذا هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام لرجل حلف بالله فقال: والذي احتجب بالسبع، فقال له عليه السلام: أخطأت ثكلتك أمّك، فقال الرجل: فما كفارة ذلك؟ قال عليه السلام: (أن تعلم أنّ الله معك حيث كنت، إنّ الله عزّ وجلّ ليس بينه وبين خلقه حجاب، لأنّه معهم أينما كانوا)[3].

وهنا ترتسم لنا هيكلة المعرفة التي هي أساس الدين، وإنها ناتجة من حركة العقل بالنظر إلى المخلوقات والآيات والدلالات، ليُعرف أن الأسباب والآثار لابد لها من مؤثر، والمؤثر لابد أن ينتهي إلى العلّة الأولى، وإن النظم الموجود في العالم يدل على المنظّم، والحركة تدل على المحرك، وهذا يثبت الخالق فقط.

١- فصلت: ٥٣.
٢- فصلت: ٥٤.
٣- توحيد الصدوق: ص١٨٤، الباب ٢٨، الحديث ٢١.

أمّـا إثبـات الـربّ وتوحيـد الخالـق والـربّ فيحتـاج إلى البرهـان الفلسـفي، الـذي يرقـى فيـه العقـل ويتعمـق في التفكـير، ليقـوم بتقسـيم العـالم إلى قسـمين لا ثالـث لهـما، فإمّـا موجـود مفتقـر قائـم بغـيره، أو غنـيّ موجـود بذاتـه، والوجـود القائـم بذاتـه، والغنـي المطلـق، لا يمكـن إلاّ أن يكـون واحـداً أحـداً وحـاضراً وشـاهداً وقاهـراً لـكل الأغيـار والأعـدام.

وهــذا مــا ركّــز عليــه الخطــاب العلــوي في تنميــة العقــل، لإنتــاج العقيــدة التوحيديــة الصحيحــة التــي تنتــج عقيــدة الربوبيــة والعبوديــة الخالصــة لله، والتــي تمنـح السـالك في هـذا المنهـج عوينـات علويـة، يـرى فيهـا الناظـر ربّـه في كل شيء، أنظـر إلى هـذه العبـارات العلويـة السـامية وتعمـق فيهـا، وأنظـر كيـف يتدفـق مـن ينابيـع معانيهـا التوحيـد الربـوبي الخالـص: يقـول عليه السلام في الخطبـة الأولى (١):

(...أَوَّلُ الدِّيـنِ مَعْرِفَتُـهُ، وَكَـمَالُ مَعْرِفَتِـهِ التَّصْديـقُ بِـهِ، وَكَـمَالُ التَّصْدِيـقِ بِـهِ تَوْحِيـدُهُ، وَكَـمَالُ تَوْحِيـدِهِ الْإِخْـلاصُ لَـهُ، وَكَـمَالُ الْإِخْـلاصِ لَـهُ نَفْـيُ الصِّفَـاتِ عَنْـهُ، لِشَـهَادَةِ كُلِّ صِفَـةٍ أَنَّهَـا غَـيْرُ الْمَوْصُـوفِ، وَشَـهَادَةِ كُلِّ مَوْصُـوفٍ أَنَّـهُ غَـيْرُ الصِّفَـةِ، فَمَـنْ وَصَـفَ اللهَ سُـبْحَانَهُ فَقَـدْ قَرَنَـهُ، وَ مَـنْ قَرَنَـهُ فَقَـدْ ثَنَّـاهُ، وَ مَـنْ ثَنَّـاهُ فَقَـد جَـزَّأَهُ، وَمَـنْ جَـزَّأَهُ فَقَـدْ جَهِلَـهُ...)، وفي الخطبـة (١٨٦) يقـول عليه السلام:

(مـا وحّـدهُ مَـن كيّفـه، ولا حقيقتـه أصـاب مَـن مثّلـه، ولا إيـّاه عنـى مَـن شـبّهه، ولا صمـده مَـن أشـار إليـه وتوهمـه...).

الإخـلاص في التوحيـد هـو الاعتقـاد بالإلـه الخالـق الـذي هـو الكـمال المطلـق اللامتناهـي، الـذي لا فصـل بـين ذاتـه وصفاتـه، فهـو ليـس مثـل المخلوقـين، مثـلاً زيـد إنسـان لـه ذات بـلا علـم ولا قـدرة، ثـم بعـد ذلـك يتصـف بالعلـم والقـدرة، الله سـبحانه ليـس كذلـك، بـل هـو الـذات المتصفـة بالغنـى المطلـق في كل أنحـاء الكـمال في هـذا الوجـود، وهـو كـمال مطلـق غنـي بذاتـه، وإذا كان هنـاك صفـات

كمال تظهر على الموجودات، فما هي إلاّ فيض وعطاء من الغني المطلق الفيّاض بالكمال، وإنّ تفكيك الذات عن الصفات، يؤدي إلى الشرك والجهل بالإله الحقيقي.

ومَن يعتقد بإله تطرأ عليه الأعراض، ويتحول من حال إلى حال، فهو ليس موحّدا لله، كذلك مَن أشار إليه وحدّده في اتجاه ومكان، أو مَن شبّهه بشيء أو مثّله بمثال، بل التوحيد الصحيح هو الاعتقاد بالإله الحاضر بكماله المطلق الذي لا يخلو من مكان ولا زمان ولا شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو معكم أينما كنتم.

وترتفع درجة المعرفة والتوحيد في الخطاب العلوي الصانع للموحّد الحقيقي، عندما يقول في الخطبة الأولى: (مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة).

وفي الخطبة (١٨٦): (ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج).

وفي الخطبة (٦١): (وكل ظاهر غيره غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر).

وفي الخطبة (١٨٨): (لا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون).

وهذه الكلمات العلوية تفسير للآيات، الأولى من سورة الحديد، كذلك سورة التوحيد، وآية النور ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[١]، والآيات الأخيرة من سورة فصّلت ﴿... أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[٢]، ﴿... أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾[٣].

١- النور:٣٥.
٢- فصلت: ٥٣.
٣- فصلت:٥٤.

وهـذه المعـاني لا تثبـت إلاّ بالبرهـان الفلسـفي الـذي يحكـم بتقسـيم الوجـود إلى فقـير محـدود، وغنـي مطلـق، والمحـدود يعنـي المحتـاج، فالـشيء الـذي يكـون في مـكان ولا يكـون في مـكان آخـر، فهـو محـدود في مـكان معـيّن، فهـو محتـاج إلى المـكان، وغـير المحتـاج إلى المـكان الـذي تكـون لـه جميـع الأمكنـة سـواء فهـو حـاضر فيهـا، والمحـدود زمانـاً هـو الـذي يحتـاج إلى زمـان، وغـير المحـدود هـو الـذي يحيـط بالزمـان، المحـدود بالعلـم هـو الـذي يعلـم ببعـض الأشـياء ويجهـل أخـرى، كذلـك المحـدود بالقـوة والمحـدود بالملـك، كذلـك المعلـول محـدود لأنـه يحتـاج إلى العلّـة، وغـير المحـدود هـو الـذي يكـون علّـة فقـط ولا يكـون معلـولاً، فالمحـدود هـو المحتـاج إلى مـا ورائـه والمعتمـد عـلى غـيره، وغـير المحـدود هـو القائـم بذاتـه وغـير المعتمـد عـلى غـيره، فهـل كل شيء في الوجـود محتـاج إلى غـيره، ومتعلـق بالآخـر ومعتمـد عليـه؟ إذا كان كذلـك فهـذا معنـاه عـدم تحقـق الموجـودات، وحيـث أن الموجـودات متحقّقـة، إذن فالغنـي المطلـق الـذي يهـب الوجـود للمحتـاج وهـو غنـي، لابـد أن يكـون موجـوداً بحكـم العقـل.

والغنـى المطلـق يعنـي غـير المحتـاج، وغـير المحـدود، والحـاضر في كل شيء، والمحيـط بـكل شيء.

ميزان التوحيد الصحيح:

وهـذه المعـاني العاليـة التـي تتدفـق مـن ينابيـع الكلـمات العلويّـة، حكمـة نظريـة شريفـة تترتـب عليهـا حكمـة عمليـة سـامية، فالعقـل عندمـا يحكـم بـضرورة وجود الغنـي المطلـق القائـم بذاتـه، الـذي بـه توجـد سـائر الموجـودات القائمـة بالغـير، والمحتاجـة إلى الغنـي، فـإن هـذا الحكـم العقـلي يحكـم بنفـس الوقـت بتوحيـد هـذا الوجـود المطلـق، وبعـدم محدوديتـه، وحضـوره وشـهوده في كل شيء.

وحول هذا المعنى يقول الشيخ الجوادي الآملي[١]: (إنّ أمتن البراهين على توحيد الله سبحانه هو أنّه موجود مطلق غير مقيّد بشيء، ولا نهاية لوجوده، فحينئذ لا مجال لفرض إله آخر، لأنه فرضٌ محال، إذ إدراك الموجود المطلق الغير المتناهي قد ملأ الوجود كله، فأينما تولّوا وجوه عقولكم فثمّ وجه الواجب الواحد الغير المحدود، فأين المجال لفرض غيره؟. لأنّه إذا كان محدوداً، فله حدٌّ لا يتعداه، وليس واجداً لما وراءه، كذلك إذا كان محدودا فهذا يعني أنّه فقير محتاج، وليس هو الغني المطلق الذي به يقوم ما سواه.

وبهذا المعنى يثبت أنّه لا يفقد شيئاً، ولا يمكن أن يكون محتاجاً إلى زمان ومكان وكيفيات وأعراض، أو صفات كمال خارجة عن ذاته، ومن اعتقد غير ذلك فقد جعل لله شريكا وخرج من التوحيد، لذلك فإنّ الألوهيّة بمعنى الغني المطلق القائم بذاته، تشهد بالوحدانية، وهذا هو معنى (شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو)[٢]، أي إنّه بذاته شهد على توحيده، ومَن اعتقد بإلهٍ تُعرض عليه الكيفيات والصفات، وذاته غير صفاته، فهو خارج عن التوحيد، وهذا معنى (ما وحَّده مَنْ كيَّفه، ولا حقيقته أصاب مَنْ مثَّله، ولا صمَّده مَن أشار إليه)[٣]، (ومَن أشار إليه فقد حدَّه، ومَن حدَّه فقد عدَّه...)[٤].

وحول هذا المعنى يقول الشيخ الجوادي الآملي: (وأمّا الصفات الكمالية التي تكون هي عين الذات، فكمال التوحيد هو إثباتها لها، لأنّ الذات الفاقدة لها تكون محدودة، لخروجها عن تلك الذات، ولا شيء من المحدود بواجب ولا خالق، فمَن وصفه تعالى بصفه كمالية هي عين ذاته، فقد وحَّدَه، ومَن وحَّده فقد نزَّهَه عن العدد.

١- علي بن موسى الرضا والفلسفة الإلهيّة: ص٣٦، جوادي آملي.
٢- آل عمران: آية ١٨.
٣- نهج البلاغة الخطبة ١٨٦.
٤- نهج البلاغة الخطبة الأولى (١).

وهنـاك روايـة عـن الإمـام الرضـا عليه السلام أنّـه عليه السلام قـال: {(لم يـزل الله تبـارك وتعـالى عليـماً قـادراً حيّـا سـميعاً بصـيرا) قيـل لـه يابـن رسـول الله: إن قومـا يقولـون أنّـه عـز وجـلّ لم يـزل عالمـاً بعلـم وقـادراً بقـدره، وحيّـاً بحيـاة، وقديـماً بقدم، وسـميعاً بسـمع، وبصـيراً ببـصر، فقـال عليه السلام: (مَـنْ قـال ذلـك، ودانَ بـه، فقـد اتّـخذ مـع الله آلهـة أخـرى، وليـس مـن ولايتنـا عـلى شيء)، ثـم قـال عليه السلام: (لم يـزل الله عـزّ وجـلّ قـادراً حيّـا قديـماً سـميعاً بصـيراً لذاتـه، تعـالى الله عـمّا يقول المشركـون والمشبّـهون علـواً كبـيراً)}[1].

وهنـا ينقـدح لنـا معنـى عظيـم يتبلـور منـه ميـزان ومقيـاس مهـم لولايـة أهـل البيـت عليهـم السـلام، وهـو إنّ التوحيـد بمعنـاه الكامـل الصحيـح المنـزّه مـن الـشرك والتشـبيه، هـو مقيـاس الولايـة الحقيقيـة.

فـإذا أردنـا أن نصنـع موالـين لأهـل البيـت فعلينـا أن نصنـع موحديـن ونبيّـن التوحيـد الصحيـح، ولـن يكـون هنـاك توحيـد صحيـح إن لم يَـعرف الإنسـان الـشرك بـكل معالمـه وعواملـه ومصاديقـه، لينفيـه ويزيلـه ويثبـت محلـه الإيـمان بـالله الغنـي المطلـق الواحـد الأحـد.

كيف نتصور وجود الله مع كل شيء؟

أرشـدتنا الكلـمات العلويـة المذكـورة -والتـي فـسّرت لنـا الآيـات القرآنيـة الكريمـة- إلى حكـم العقـل بـضرورة وجـود الله الـذي هـو الغنـي المطلـق، وحيـث أنّ العـدم والحاجـة تسـتحيل عـلى الغنـي المطلـق، فهـو إذا حـاضر ومحيـط وشـهيد عـلى كل شيء، وهـذا يعنـي إن الله موجـود مـع كل شيء، وهـذا مـا صرّحـت بـه الآيـات القرآنيـة والكلـمات العلويّـة ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2] (مـع كل شيء لا

١- توحيد الصدوق: ص٤.
٢- الحديد: آية ٤.

بمقارنــة وغــير كل شيء لا بمزايلــة)[1].

فماذا يعني وجود الله مع كل شيء؟

جــواب هــذا السـؤال يجرنــا إلى البحــث المعــروف، وهــو بحــث حقيقةالوجــود، وهنــا توجــد ثــلاث نظريــات:

الأولى: ان الوجــود كلــه وجــود واحــد والموجــود أيضــا واحــد هــو الله ســبحانه، أي لا يوجــد في هــذا الكــون ســوى موجــود واحــد وهــو الله، والمخلوقــات عبــارة عــن ظــلال واعتباريــات، وهــي التــي تنســب إلى مَــنْ يســمَّونَ بالصوفيــة.

الثانية: كثرة الوجود وكثرة الموجود، وهي التي تنسب إلى أرسطو والمشائين.

الثالثــة: وهــي التــي تؤمــن بــأنّ الوجــود حقيقــة واحــدة ذات مراتــب متعــددة، واختــلاف الموجــودات باختــلاف درجتهــا الوجوديــة، وأعــلى هــذه الدرجــات هــي درجــة الوجــود الغنــي المطلــق التــي تحيــط بجميــع درجــات الوجــود الأخــرى، وهــذه نظريــة صــدر المتألهــين الشــيرازي، ومَــن يتبعــه مــن الفلاســفة المعاصريــن كالعلامــة الطباطبائــي.

وهــذه النظريــة هــي التــي يمكــن أن توضــح لنــا الآيــات المذكــورة، وكذلــك الكلــمات العلويــة، فعندمــا يقــول عليه السلام: بــأنّ الله مــع كل شيء وغــير كل شيء، ويقــول: أنّــه ليــس داخــل في الأشــياء وليــس بخــارج عنهــا، فهــذا كيــف يمكــن تصــوره إلاّ بــأن نقــول: أنّ الدرجــة العاليــة والمحيطــة للغنــى المطلــق حــاضرة وشــاهدة ومحيطــة بذلــك الــشيء، لكــن لا يعنــي ذلــك أنّ الشــيء هــو الله، بــل بمعنــى أن الله ســبحانه حــاضر ومحيــط وشــاهد عــلى الشــيء مثــل زيــد، وهــو أقــرب إلى زيــد مــن نفســه وقلبــه، ولكــن لا يعنــي ذلــك أن زيــد هــو الله ســبحانه.

---

١ - نهج البلاغة الخطبة الأولى.

ولأجل المزيد من التوضيح لهذا المعنى الشريف جداً، نذكر هنا توضيح المفكّر الشهيد مطهري ﷺ[1]، مع تغيير بعض المصطلحات الفلسفية التي قد تكون غامضة على بعض القرّاء الأعزاء الذين لم يدرسوا الفلسفة.

يقول الشهيد مطهري ﷺ: تارة نلحظ الشيء بما فيه من عناصر كمال، وتارة نلحظه بما هو محدود بنواقص وأعدام، جعلته شيء محدداً ومعيناً ومتميزاً عن غيره من الموجودات.

مثلاً نلاحظ العدد (٩٠) بلحاظ أنّه لا (٨٩) ولا (٩١)، أي بلحاظ مصداقه ورقمه الخاص الذ يميزه عن غيره، وهو عدم غيره.

ومرة نلاحظ العدد (٩٠) بما أنّه عدد وبما أنّه وجود ودرجة من الكمال ضمن درجات الكمال اللامتناهية الموجودة في الكون، فهنا يكون العدد (١٠٠) موجود في (٩٠) وكذلك (٩٠) موجود في (١٠٠).

مثلاً إذا أردنا أن نلاحظ الحمار، تارة نلاحظه بما هو حيوان معين محدد ببعض الصفات الكمالية، مثلا فيه درجات من الجسمية والحياة والنمو والحركة والإدراك والصوت المشخص، فهنا مجموع هذه الدرجات الوجودية التي هي أضعف من غيرها كالإنسان والحصان، هذا المجموع اسمه حمار، ولا يمكن أن نقول أنّ الإنسان حمار، ولا حتى حصان، لكن لو أردنا أن نلاحظ الحمار؛ لا بما أنّه حمار ذو درجات وجودية ضعيفة ومحدودة، وإنّما بلحاظ درجات الوجود كالجسمية النامية، والحركة والحياة والإدراك، فهنا يمكن أن يقال أنّ الإنسان حمار بمعنى اشتراك الإنسان في كمالات الحمار، أو أنّ الإنسان موجود في الحمار، أي أنّ الكمالات الجسمية والنمو والحركة بالإرادة والحياة الموجودة في الإنسان موجودة في الحمار أيضاً.

١- مجموعة آثار الشهيد مطهري: ج١: ص٢٧٦.

وللمزيـد مـن التوضيـح نقـول: إن هـذا الكتـاب صـار كتابـاً بوجـوده، وعُـرف كتابـاً بحـدوده، فالأشـياء لهـا وجـود هـو المقـوّم لحقيقتهـا، ولهـا حـدود هـي التـي تميزهـا عـن غيرهـا، فحقيقة هـذا الكتاب بوجـوده ويُعـرف كتابـاً بحـدوده، وحقيقة وجـود الكتـاب يشـترك بها مـع سـائر الموجـودات التـي هـي بدورها تملـك درجات مختلفـة مـن هـذه الحقيقـة، وأعـلى درجـات هـذه الحقيقـة هـي الواجـب المطلـق وهـو الله سـبحانه المحيـط بـكل درجـات الوجـود، بـل أن كل درجـات الوجـود الموجـودة قائمـة بـه، فـالله سـبحانه وتعـالى موجـود في كل الموجـودات بحقائقهـا، وهـي غـيره بـما لديهـا مـن حـدود ونواقـص وأعـدام، الله سـبحانه وتعـالى أقـرب إلى الكتـاب مـن نفـس الكتـاب، لأن الله سـبحانه أقـرب إلى وجـود الكتـاب التـي هـي حقيقتـه، وهـو غـير نفـس الكتـاب التـي هـي حـدوده ونواقصـه وأعدامـه المختلطـة بوجـوده، وهـو أقـرب إلى الإنسـان مـن نفسـه في هـذا المعنـى، وهـو غـير الانسـان، وتنطبـق هـذه الأقربيـة والغيريـّة عـلى كل الأشـياء.

فـذات الغنـي المطلـق المتصـف بالكـمال اللامتناهـي، لديـه جميـع كـمالات الموجـودات، فهـو موجـودٌ فيهـا جميعـاً، وحـاضرٌ فيهـا، وهـو الـذي أفـاض عليهـا هـذه الكـمالات، بـل هـي قائمـة بـه.

فهـي مـن هـذا الجانـب مـع الله، والله سـبحانه معهـا، لكـن بـما هـي درجـات ضعيفـة مـن الوجـود والكـمال، فـالله سـبحانه غيرهـا، ويختلـف عنهـا، فهـو معهـا لا بمقارنـة، أي إنّ الله مـع الإنسـان والحيـوان والشـجر...، ولكـن هـذه المعيّـة معيّـة إحاطـة وإشراف وشـهود وإعطـاء وجـود، وليسـت معيّـة اقـتران كـما يقترن زيـد مـع عمـر، إذا جلسـا سـوية، أو مثـل اقـتران الأوكسـجين مـع الهيدروجـين لتشـكيل جزيئـة المـاء، كـما أنّ الله سـبحانه غـير الإنسـان والحيـوان والشـمس، ولكـن لا بمزايلـة، أي هـذه الغيريـة ليسـت مثـل اختـلاف زيـد عـن عمـر، حيـث كل منهـما لـه مكانـه وزمانـه وحـدوده الخاصـة بـه، وإنّـما هـي غيريـة درجـة الكـمال

الوجـودي، التـي هـي مطلقـة لا متناهيـة عنـد الله ومحـدودة عنـد سـائر المخلوقـات.

ما هو المقدار المطلوب من معرفة اللّه؟

إذا كان الله سـبحانه هـو الوجـود اللامتناهـي فكيـف يمكـن للإنسـان المحـدود أن يعـرف الله؟

الجواب هو: إنّ المعرفة لله تنقسم إلى قسمين:

الأول: معرفـة حقيقـة الـذات الإلهيـة، وقـد عرفنـا بحكـم العقـل القطعـي الـذي تحـرك بإرشـاد الآيـات القرآنيـة والكلـمات العلويـة، أنّ الـذات وصفاتهـا الكماليـة مطلقـة ولا متناهيـة، ويسـتحيل عـلى المحـدود والمتناهـي أن يـدرك المطلـق اللامتناهـي ويحيـط بـه، فهـذه المعرفـة غـير مطلوبـة بـل هـي مسـتحيلة.

الثـاني: المعرفـة الممكنـة وهـي المعرفـة الواجبـة واللازمـة والتـي يترتـب عليهـا ديـن الإنسـان ومنهـج حياتـه، وإليهـا يشـير أمـير المؤمنـين عليه السلام في قولـه في الخطبـة ٤٩: (لم يطلـع العقـول عـلى تحديـد صفتـه، ولم يحجبهـا عـن واجـب معرفتـه...)، فـما هـي هـذه المعرفـة الواجبـة والتـي يمكـن للعقـول أن تصـل إليهـا، بـل يجـب أن تصـل إليهـا، لأنّـه إذا لم تصـل إليهـا لم تتحقـق معرفـة الله، وإذا لم تكـن معرفـة لله فـلا يمكـن أن يكـون للإنسـان ديـن، لأنّـه (أول الديـن معرفتـه...).

وهـذه المسـألة (التوحيـد) هامـة جـداً ومصيريّـة في حيـاة الأمّـة، وقـد أدّى فهمها المغلـوط إلى نشـوء المِلـل والنِحـل والمذاهـب، ونشـوب الفتـن، والميـزان الصحيـح فيهـا هـو الذي يؤسـس للديـن الصحيـح، ولذلـك نـرى تأكيـداً عليهـا في الخطابات العلويـة، ومـا ورد في نهـج البلاغـة مـن خطابـات توحيديـة هـي التي توصـل العقل إلى المعرفـة الممكنـة لله والتـي يجـب عـلى كل مؤمـن أن يصـل إليهـا بالتفكّـر ويعتقـد بهـا، ويرتـب منهـج حياتـه طبقـاً لهـا، ويمكـن أن نحـدد هـذه المعرفـة في مجالـين:

المجال الأول: مجال فعل الله:

وهو ما يسمى بصفات الفعل، وهي التي تشتق وتنتزع من الفعل الإلهي كالخلق والرزق والنصر والشفاء والإحياء والإماتة، فنحن نرى المخلوقات ويحكم عقلنا بأنّ لها مصدرا أوجدها، ونصفه بالخالق، وأمّا كيفيّة حصول هذا الخلق، فهنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى:

(أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا رؤية أجالها، ولا تجربة إستفادها ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولاءم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها).

في الخطبة (٩١) يقول عليه السلام: (...الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ، وَلاَ مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْهِ ...).

وفي الخطبة ١٨٦ يقول عليه السلام: (...يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً...)، والذي ينتجه التدبّر في هذه المقاطع التوحيدية التي تتحدث عن الخلق، وبإضافتها إلى الآيات الكريمة لا سيما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[2].

إنّ عملية الخلق أوجدها الله سبحانه لا من شيء خارج وجوده سبحانه،

١- يس:٨٢.
٢- الكهف:١٠٩.

لأنّـه هنـا يلـزم الشريـك لله، ومحدوديـة الله سـبحانه، وكذلـك لم يخلقهـا مـن لا شيء بمعنـى العـدم المطلـق، لأنّ العـدم المطلـق لا يتحـول إلى شيء.

فـما هـو الـشيء الـذي قـال لـه الله كـن فـكان؟ هـل يوجـد هنـا مخاطِـب هـو الله، ومخاطَـب هـو الـشيء؟ وقـال لـه الله كـن، فـإذا كان الـشيء موجـوداً مـن قبـل الخطـاب، فإيجـاده أو طلـب إيجـاد تحصيـل حاصـل، أو طلـب لتحصيـل الحاصـل، وهـو لغـو ومحـال، والجـواب هنـا إنّ كلمـة كـن هـي إيجـاد الـشيء، كـما فسّرهـا الأمـير عليه السلام عندمـا قـال:

(كلامـه سـبحانه فعـل منـه إنشـاءه، ومثَّـله لا بصـوت ولا نـداء ولا رويّـة ولا همامـة نفـس)، أي إنّ عمليـة الخلـق ليسـت مثـل مـا يفعلـه الإنسـان عندمـا يريـد أن يصنـع شـيئاً فيفكّـر ويصـوّر الـشيء، ويتحـرك ويتكلـم ويسـتفيد أحيانـاً مـن تجـارب وأمثلـة الآخريـن، وقولـه عليه السلام:

(أحـال الأشـياء لأوقاتهـا ولاءمَ بـين مختلفاتهـا، عالمـاً بهـا قبـل ابتدائهـا، محيطـاً بحدودهـا وانتهائهـا، عارفـاً بقرائنهـا وأحنائهـا...).

نحن ندرك الظهور لا الصدور:

إذا جمعنـا مـع هـذه الكلـمات العلويـة، الآيـة الكريمـة في قولـه تعـالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[1]، وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[2]، و ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٖ﴾[3]، وقـال تعـالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾[4]، فهنـاك عالمـان؛ عـالم الأمـر وهـو العـالم العلـوي الـذي فيـه صـدر الأمـر أو عـالم الصـدور، وعـالم نـازل؛ وهـو عـالم الخلـق، وهـو عـالم ظهـور

١- الحجر: ٢١.
٢- القمر: ٤٩.
٣- الرعد: ٨.
٤- الأعراف: ٥٤.

الأشـياء وهـو العـالم الـذي ندركـه.

يمكـن أن نقـول إنّ عمليـة الخلـق هـي ظهـور الأشـياء بالنسـبة إلى عـالم الخلـق الـذي هـو بالنسـبة إلينـا عـالم الدنيـا، أو مـا يسـمى بعـالم المُـلك أيضـاً، وأمّـا هـو بالنسـبة إلى الله فهـو عـالم الأمـر، وعـالم الخزائـن، وهـو فيـض الله الصـادر مـن الله، دون أن يكـون زمـان ومـكان، وقـدر وحـدود، وهـو مرتبـة الصـدور، لكـن عندمـا تنـزل مراتـب الوجـود إلى أن نصـل إلى مرتبـة المـادة، وهـي مرتبتنـا التـي نعيـش فيها وندركهـا، فـإنّ هـذه المرتبـة مـن مميزاتهـا الزمـان والمـكان والحـدود والتقديـرات، وهـي مرتبـة الظهـور، فالمخلوقـات التـي نراهـا ونحـسّ بهـا، هـي ظهـورات عـالم الأمـر الـذي ينـزل مـن الخزائـن إلى عـالم المـادة، عـلى نحـو مخلوقـات محـددة، وبقـدر وبمقـدار معـين، فالمخلوقـات الماديـة كلّهـا في عـالم الخزائـن، ليـس فيهـا حـدود زمانيّـة ومكانيّـة، وهـي موجـودات ثابتـة في عـالم الثوابـت أو الخزائـن، في مرتبـة الصـدور، ولكـن عندمـا تريـد أن تظهـر وتتجـلّى في مراتبهـا النازلـة، تظهـر لنـا بهـذه الحـدود، زيـد مثـلاً في عـالم الخزائـن والثوابـت موجـود، لكـن عندمـا يريـد أن يظهـر في عـالم المـادة، يظهـر في قطعـة زمنيـة ومكانيـة ومـن أب وأم معينـين، وتقديـرات أخـرى محـددة، ولأجـل المزيـد مـن التوضيـح نـضرب مثـالاً بالظـل الموجـود في هـذه الغرفـة، الـذي هـو درجـة نازلـة مـن ضـوء الشـمس، فهـذا الظـل في أعـلى درجـات ضـوء الشـمس ليـس فيـه حـدود مثـل هـذه الحـدود التـي للظـل هنـا، لكـن عندمـا يصـل إلى الأرض، وتنـزل مرتبـة الضـوء إلى أقـل درجاتهـا، ثـم تكـون هنـاك موانـع وجـدران، يحصـل الظـل الـذي مسـاحته هنـا ٣ في ٤م، ويبقـى لمـدة ١٢ سـاعة مثـلاً، وكـما أنّ هـذا الظـل هـو معلـول للشـمس وفيضهـا النـوري، وقائـم بهـا، وينعـدم وجـوده بدونهـا، كذلـك المخلوقـات كلهـا بـما فيهـا الماديـة، هي معلـولات للدرجـة الأعـلى مـن الوجـود القائمـة بذاتهـا، وهـي مرتبـة الله سـبحانه، ووجودهـا بكاملـه مرتبـط بوجـود الواجـب الغنـي المطلـق القائـم بذاتـه.

المخلوقات مظاهر فعل الله تعالى:

اتضح لنا إنّ المجال الأول للمعرفة هو معرفة الله بصفات فعله، فنعرفه أنّه الخالق، وأوضحنا معنى الخلق كي لا يتوهم البعض أنّ الله يخلق الأشياء مثل ما يصنع الإنسان الأشياء بنحو زماني ومكاني، وتنفصل عنه بعد أن يصنعها، فالله سبحانه ليس كذلك، وإنّما الفيض الإلهي يظهر بمراتبه النازلة لنا على شكل هذه المخلوقات.

دلالة الفعل الإلهي على توحيده:

في الخطبة (١٨٦) التي قال عنها السيد الشريف الرضي، أنّها خطبة في التوحيد، وتجمع من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة، جاء قوله عليه السلام: (بتشعيره المشاعر عرف أن لا مَشْعَر له)، أي إنّه جعل الأشياء تشعر وتحس بأن جعل لها أجهزة وأعضاء حسيّة، وجعلها تنفعل بغيرها، فتكتشف غيرها وترتبط به، وهذا الانفعال الذي هو مقدمة التفاعل والترابط بين الأشياء أساس لوجود نظام المخلوقات وبقائه، وهو كذلك يدل على أنّ الذي صاغ هذا النظام، إله واحد وعليم وقادر وعظيم، وإنّه خلق الأشياء منفعلة ومتفاعلة فيما بينها، وهو مصدر هذا الجعل، فهو لا يقع عليه الانفعال، إذ لا يمكن أن يقع عليه الانفعال، ويعرض عليه الإحساس كمخلوقاته، لأنّ الانفعال يحتاج إلى فاعل.

وقال عليه السلام: (وبمضادته بين الأمور عُرف أن لا ضد له).

التضاد بين الأشياء والاختلاف وعروض حالات ومواصفات مختلفة على محل واحد أساس للحياة، ولحركة الإنسان وسائر المخلوقات نحو الكمال، فلو لم يوجد في حياتنا إلا ليل فقط، او نهار فقط أو لون واحد فقط، أو فصل واحد وحالة جوية واحدة، أو طعم واحد أو رائحة واحدة، لما أمكن

للحياة أن تكون على الأرض، فهذا التضاد والاختلاف في أفلاك هذا الكون ومخلوقاته وأعراضها الذي ينتج الليل والنهار، والفصول والحالات المختلفة التي يجعل الإنسان والمخلوقات تتحرك وتطلب حالة بعد حالة، وتصل إلى كمالها المطلوب، تدلّ على وحدة هذا الخالق وعليه وعظمته ورحمته (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

ويدل هذا التضاد بين الأشياء أنّ الذي جعل الأشياء متضادة هو الذي خلق هذا النظام ولا يمكن أن يكون له ضد، فهو الغني المطلق الذي لا يتحول ولا يتغير ولا يحتاج، لأنّ هذه صفات المحتاج الفقير.

ثم يقول عليه السلام: (وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له)، القرن والجمع بين الأشياء كالجمع بين الذرات المختلفة لتكوين المركبات والأشياء المختلفة، كالقرن بين الأوكسجين والهيدروجين لتكوين الماء، والقرن بين الذكر والأنثى لأجل استمرار الحياة، والقرن بين الروح والجسد، والقرن بين الكواكب والنجوم لأجل تحقيق التوازن في الكون، كل ذلك دليل على وحدة وعظمة خالق هذا الكون.

ثم يذكر الإمام عليه السلام أمثلة على التضاد والتقارن، فيقول (ضادُّ النور بالظلمة والحرور بالصرد، مؤلف بين متضاداتها، مقارن بين متبايناتها، مقرّب بين متباعداتها، مفرّق بين متدانياتها...)، وهذه العبارة الأخيرة إذا فكرنا فيها نجد أنّ أعظم وأوضح مصداق لها هو الذرة حيث إنّ الله سبحانه فرق بين النواة والمدارات التي حول النواة التي تدور فيها الإلكترونات ذات الشحنة السالبة على النواة ذات الشحنة الموجبة، وكيف أنّ عالم المادة قائم على هذا التفريق بين النواة والإلكترونات، ولو اختلّ هذا التباعد، ولو في جزء قليل جداً من المعادن، لتحولت النواة إلى طاقة نووية تحرق الأرض ومَنْ عليها،

فسبحان الله العظيم الذي خلق كل شيءٍ فقدّره تقديرا، والذي جعل كبرياءه وعظمته موضعاً لرحمته وجوده وكرمه.

المجال الثاني: الصفات السلبية:

إننا لا نستطيع أن نعرف الله سبحانه بصفاته الثبوتيّة للذات المقدّسة، لأنّها فوق قدرة إدراكنا، وهي ليست مطلوبة منّا، بل المطلوب هو عدم الخوض فيها، لكننا يمكن أن ندرك الصفات السلبية، ولهذه المعرفة دور أساسي في تحقق التوحيد ونفي الشرك، ولذلك نرى في الخطب العلوية اهتماماً بالغاً في التعريف بهذه الصفات السلبية، ونرى أنّ الإمام يُرشد ويُنبّه إلى بعض التصورات والاعتقادات التي عند البعض، والتي يلزم منها القول بالشريك أو الحدوث أو الجسمية أو المحدودية أو التغيير والانفعال أو النقص.

وقد احتوت الكثير من خطبه عليه السلام التعريف بالله سبحانه وبصفاته السلبية، كما في الخطبة الأولى، حيث قال عليه السلام: بأنّ كمال توحيد الله بنفي الصفات عنه، أي نفي صفات المخلوقين، أو الصفات المنفصلة عن الذات، وأنّها الدليل على توحيده وقهره ونفيه لجميع الأغيار، كذلك فصّل الإمام عليه السلام في ذكر الصفات السلبية في الخطبة (١٨٦)، التي قال عنها السيد الرضي أنّها في التوحيد، وتجمع من وصول العلم ما لا تجمعه خطبة، ويقول في بدايتها: (ما وحدّه مَن كيفيه، ولا حقيقته أصاب مَن مثّله)، وبعد أن يذكر صفات الأفعال التي ذكرنا منها في المجال الأول، يذكر الصفات السلبية، ويقول عليه السلام في الخطبة (١٨٦): (لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيُحْدِثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي

غَيْرِهِ. الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ. لاَ تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلاَ تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. وَلاَ يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلاَمُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلاَ بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ. وَلاَ يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلاَ نِهَايَةٌ، وَلاَ انْقِطَاعٌ وَلاَ غَايَةٌ، وَلاَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ).

ومن الملفت للمتابع للخطاب العلوي، الذي هو خطاب قائد وحاكم للدولة العالمية في وقته، والحضور في هذه الخطابات عادة ما يكون عامّة الناس، ولكن نرى التأكيد على المسائل التوحيدية، ذات المعاني العميقة، التي تحتاج في فهمها إلى عقل فلسفي متدبّر، كما اتضح ذلك من توضيح بعض الكلمات المذكورة سابقاً.

خلاصة ميزان المعرفة:

والذي يخرج به المتدبّر للكلام العلوي المقدس في مجال معرفة الله وتوحيده، هو ثلاث نتائج هي:

١- التأكيد على ضرورة المعرفة وإنّها أساس الدين، ولذلك قلّما تجد خطبة من خطبه، حتى العامّة لجميع الناس، خالية من هذا التأكيد على المعرفة، وإنّه يرفع عنوان المعرفة أحياناً إلى درجة الرؤية فيقول لذعلب اليماني في الخطبة ١٧٩ وقد سأله: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبُد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟

فقـال ﷺ: لا تدركـه العيـون بمشـاهدة العيـان، ولكـن تدركـه القلـوب بحقائـق الإيـمان.

٢- التأكيـد عـلى عظمـة فعـل الله وحكمتـه وعجائـب خلقـه، وإنّـه تجـلّى بهـا لخلقـه.

٣- التأكيـد والتحذيـر مـن التصـورات التـي تـؤدي إلى الـشرك، أو النقـص أو الجسـمية والمحدوديـة، أو إمـكان الرؤيـة الحسـيّة.

دور معرفة اللّه في بناء المجتمع الصالح:

وهـذا يـدل عـلى أن أمـير المؤمنـين ﷺ يـرى أنّ المجتمـع الصالـح لحكومـة العـدل الإلهـي لابـد أن يتأسّـس عـلى عقيـدة التوحيـد الخالـص، والتوحيـد الخالـص لا يكفـي فيـه المواعـظ والنصائـح، ولا النهـي عـن عوامـل الـشرك العمـلي، بـل لابـد مـن تطهـير عقائـد النـاس مـن الـشرك النظـري أيضـاً، وتحريـك عقولهـم للوصـول إلى البراهـين والأدلـة التـي تجعلهـم يعتقـدون بإلـه هـو مصـدر الكـمال المطلـق في هـذا الكـون، ولا مصـدر سـواه، ولا مؤثـر في هـذا العـالم غـيره، كـما أنـه لا يعتريـه النقـص والفنـاء والانفعـال والتغـير، ولا كل مـا يوصـف بـه المخلوقـات مـن أوصـاف، وأن تترسـخ هـذه المعرفـة حتـى تصـل إلى درجـة الرؤيـة القلبيـة، والقلب هـو مركـز تفاعـل الإنسـان، ومحبتـه وشـوقه، وهـذا الحـب والتفاعـل القلبـي المعـبَّر عنـه بالرؤيـة، هـو فـرع الفهـم الراسـخ اليقينـي الـذي يحصـل في العقـل، نتيجـة التفكّـر والتدبّـر المنتـج للبراهـين القطعيـة اليقينيـة.

ولذلـك نـرى أنّ أحـد أصحابـه كـما ذكـر في الخطبـة (٩١) يـأتي ويسـأل الإمـام ويقـول: يـا أمـير المؤمنـين صـف لنـا ربّـك مثلـما نـراه عيانـاً، لنـزداد لـه حبـاً وبـه معرفـةً.

فغضـب ونـادى الصـلاة جامعـة، فاجتمـع النـاس حتـى غـصّ المسـجد بأهلـه، فصعـد المنـبر وهـو مغضـب متغـيّر اللـون، فحمـد الله وأثنـى عليـه وصـلّى عـلى النبـي، ثـم أخـذ يتكلـم في وصـف الله تعـالى في خطبـة طويلـة جـداً، أكّـد فيهـا عـلى عظمـة الله وعـلى تنزيهـه.

هـذه المقدمـة نقلهـا السـيد الشريـف الـرضي مـن روايـة مسـعدة بـن صدقـة عـن الإمـام جعفـر الصـادق ﷺ، وقـال بأنّهـا تُعـرف بخطبـة الأشـباح، وهـي مـن جلائـل خطبـه ﷺ، وهنـا نحتـاج إلى التأمـل في أمـور:

١- إنّ الإمـام ألقـى هـذه الخطبـة في زمـن خلافتـه، وعـلى منـبر الكوفـة، وكلنـا نعلـم أنّ الظـروف التـي كان يعيشـها الإمـام هـي ظـروف حـروب وفتـن، إضافـة إلى انشـغال الإمـام في القضـاء، وحـل مشـاكل أهـل الكوفـة، ومتابعـة أمـور الـولاة المنتشريـن في أرجـاء واسـعة مـن العـالم، تشـمل آسـيا وأفريقيـا وقسـم مـن أوربـا، ومـع ذلـك يـولي الإمـام في هـذه الخطبـة الأهميـة البالغـة لمسـألة المعـارف التوحيدية، ويلقـي هـذا الخطـاب الطويـل الـذي يـراد منـه ترسـيخ معـاني التحميـد والتنزيـه والمعرفـة الإلهيـة الصحيحـة.

٢- إنّ السـائل يـأتي إلى الإمـام ويسـأله أن يصـف لـه ربـه لـيراه عيانـاً وليـزداد حبـاً ومعرفـة، ولـولا وجـود ارتـكاز عنـد النـاس بـأنّ أمـير المؤمنـين يهتـم بهـذا الأمـر، ورواج ثقافـة معرفـة الله بواسـطة الإمـام عـلي سـلام الله عليـه، لم يجـرأ هـذا السـائل عـلى توجيـه هـذا الطلـب مـن الخليفـة والحاكـم والقائـد الأعظـم للأمـة.

٣- إنّ أمـير المؤمنـين نـادى بالصـلاة جامعـة، وهـذا دليـل عـلى أهميـة هـذا الأمر، ولأجـل أن يحـضر أكـبر عـدد مـن الناس.

٤- إنّ أمـير المؤمنـين ﷺ، صعـد وهـو مغضِـب متغـيّر اللـون، وسـبب الغضـب أمّـا لأنّ الأمـير ﷺ فهـم مـن سـؤال السـائل أنّـه يريـد الرؤيـة الجسـمانية، وهـذا

مـؤشر عـلى أنّ ثقافـة النـاس التوحيديـة ومعرفتهـم بـالله ناقصـة، وهـذا أمـر خطـير اكتشـفه أمـير المؤمنـين وغضـب وتغـير لونـه ونـادى النـاس لأمـر هـام، كأنَّ هنـاك عـدوا لـدودا يداهـم الكوفـة ويريـد غزوهـا.

أو أنّ سـؤال السـائل يريـد بـه الرؤيـة الصحيحـة وهـي الرؤيـة القلبيـة، وإنّ النـاس متعطشـة إلى المعـارف التوحيديـة فخـشي أن يكـون هنـاك تقصـير في ترويـج المعـارف التوحيديـة، فغضـب وتغـير لونـه مـن بـاب الخشـية أن يكـون هنـاك تفريـط في ترويـج هـذه المعـارف الهامـة.

ومهـما كانـت أسـباب الغضـب فـإنّ القـدر المتيقـن مـن هـذا الموقـف، هـو أن أمـير المؤمنـين الـذي جـاء للخلافـة ليؤسـس دولـة العـدل الإلهـي، وتحمّـلَ مـن أجـل ذلـك الفتـن والحـروب التـي أدت إلى شـهادته عليه السلام، يـرى أنّ العدل لا يُـبنى إلاّ عـلى أرضيّـة التوحيـد الخالـص، وكـما عليـه أن يقـف بوجـه الناكثـين والقاسـطين والمارقـين، بسـبب شركهـم العمـلي بتمردهـم عـلى ولايـة إمـام التوحيـد الحـق، كذلـك عليـه أن يقـف أمـام شـبهات التجسـيم والـشرك النظـري، وكـما أنّـه يغضـب ويتـألّم للأكبـاد الغرثـى والبطـون الحـرّى التـي تحـن إلى القـدِّ، ويتـأوّه عـلى فقـير اليمامـة والحجـاز الـذي لا عهـد لـه بالرغيـف، كذلـك يغضـب للمتعطّـش نحـو غـذاء التوحيـد الخالـص، وأتبـاع عـليّ والموالـون الحقيقيـون متعطشـون نحـو معـين معارفـه التوحيديـة العذبـة الرويّـة، كـي يغـرس في قلوبهـم أشـجار التوحيـد الطيبـة، ويحميهـم مـن آفـات الـشرك والصنميّـة الخفيّـة، حيـث يقـول عليه السلام:

(...فَأَشْـهَدُ أَنَّ مَـنْ شَـبَّهَكَ بِتَبَايُـنِ أَعْضَـاءِ خَلْقِـكَ، وَتَلاَحُـمِ حِقَـاقِ مَفَاصِلِـهِ مُ ، الْمُحْتَجِبَةِ ، لِتَدْبِـيرِ حِكْمَتِـكَ، لَمْ يَعْقِـدْ غَيْـبَ ضَمِـيرِهِ عَـلَى مَعْرِفَتِـكَ، وَلَمْ يُبَـاشِرْ قَلْبَـهُ الْيَقِـينُ بِأَنَّـهُ لاَ نِـدَّ لَـكَ، وَكَأَنَّـهُ لَمْ يَسْـمَعْ تَـبَرُّؤَ التَّابِعِـينَ مِـنَ الْمَتْبُوعِـينَ إِذْ يَقُولُـونَ:﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، كَـذَبَ

١ - الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

الْعَادِلُونَ بِكَ ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ ، عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ. فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً...).

إنّ عليّا عليه السلام لا يغضب إلاّ للحق، ولم يغضب إلاّ للخوف على الأمّة التي تشبّه الخالق بالمخلوق، أن تجعل الخالق مفهوماً مبهماً معلقاً في السماء، وأن لا ترتبط به إلاّ بالرموز والقشور والخرافات، وتأخذ منهج حياتها من الأصنام البشرية والحجرية، ويخشى عليّ عليه السلام من الأمّة التي فقدت إثارة وتنمية عقولها لتصل إلى معرفة الإله الحقيقي الغني المطلق، أن تتصور الإله مجسماً محسوساً، فتترك إله موسى وتذهب إلى عجل السامري، وللأسف فقد وقعت الأمة فيما كان يخشاه علي عليه السلام، رغم سعيه الحثيث، وبذله أقصى الجهود لإنقاذها، والسبب ما أفصح به لكميل عندما قال: (إن هاهنا لعلماً جمّا لو أصبت له حملة)[1]، أي لو وجدت جامعات وحوزات علمية تبحث عن المعرفة التوحيدية العلوية، ولم يجد عليّاً ما يبحث عنه من علماء مثل كميل وذعلب وهذا السائل، بل وجد مع الأسف علماء وخطباء وصفهم بأنّهم (لقناً غير مأمون مستعملاً آلة الدين للدنيا)، أي لا هم له إلاّ تجميع النصوص وتكويم المفاهيم، ثم نثرها على الناس مقابل الدراهم والدنانير.

وإذا كانت حواضرنا ومنتدياتنا العلمية اليوم تخلو من ذعلب اليماني وكميل ونوف البكالي وميثم ورشيد، وتهمل نهج البلاغة وخطاباته التوحيدية التي تزرع الثقافة التوحيدية الخالصة، وتستأصل جذور الشرك والجاهليّة من

١ - نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ١٣٧.

قلـوب الأمّــة، فليـس عجيبـاً أن نـرى أمّــة لم يبـق فيهـا مـن الإسـلام إلاّ اسـمه، ومـن القـرآن إلاّ رسـمه، أمّـة تكتفـي مـن دينهـا بلقلقـات لسـان وحـركات جوفاء، تسـبح وتحمـد إلـه السـماء بلسـانها، وتسـبح وتحمـد آلهـة الأرض بجوارحهـا.

فهـي في المسـجد والمحـراب تعبـد الله بلسـانها، وفي خـارج المسـجد والحـرم تعبـد أعـداء الله بجوارحهـا وسياسـتها واقتصادهـا وكل مـا لديهـا! فهـل في مثـل هـؤلاء موحّــد لله؟ وهـل فيهـم مـوال لـولي الله؟!

الفصل الثاني
ميزان معرفة النفس

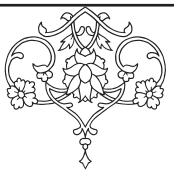

ميزان معرفة النفس:

عندما تفكّر ثم تصمّم أن تكتب فكرتك، وتريد من يدك أن تكتب، تنفذ اليد إرادتك، وعندما ترغب أن تنظر إلى شيء، تنفذ العين رغبتك في المشاهدة، وكذلك الإذن عندما ترغب في سماع شيء، وعندما تشتهي طعاماً تنفّذ اليد والفم والأسنان إرادتك، وعندما تغضب وتريد أن تنطق بكلمة أو تفعل فعلاً ما يأمر به غضبك، فاللسان والأعضاء تنفذ لك ما تريد، وعندما تحب أو تبغض أو تهرب من خطر، وتريد أن تترجم هذا الحب والبغض والخوف، تنفذ لك الأعضاء وتطيعك.

في كل هذه الأمور، لدينا آمر ومأمور، قائد ومنفّذ، لدينا حاكم وسلطان، يفكّر، يرغب، يحب، يبغض، يشتهي، يكره، ولدينا جنود وهم الأعضاء التي نفذت هذه الإرادات والأوامر والنواهي.

فمن هو هذا الملك والسلطان الحاكم في مملكة البدن؟

إنّه هو الذي يسمّى بنفس الإنسان، وهو حقيقة الإنسان، وأعضاء البدن هم جنودها الذين تُحقق بهم ما تريد.

وهذه النفس ليست ماديّة، وليست جزءً من البدن، بدليل أنّه لو كانت ماديّة، لتغيّرت بتغيّر المادة، فالعلم يقول إنّ خلايا الجسم في تجدّد وتغيّر مستمر، حتى خلايا المخ، ولو كانت النفس ماديّة بدنيّة، لتغيّرت أفكارنا ومعلوماتنا وحبّنا وبغضنا وتقييماتنا وإرادتنا دائماً، مع تغيّر خلايا أعضاءنا البدنيّة، ولكننا نرى إنّ بعض ما يتعلق بالنفس كالمعلومات والأفكار والتعلقات، تبقى معنا ثابتة، مع أنّ بدننا قد تغيّر بنحو كامل ولعدة مرات.

وهناك اصطلاحات مختلفة ينبغي توضيحها وهي تمثل جوانب أو مظاهر أو

درجـات النفـس، وهـي:

١- **العقل**: وهو القوة المدركة، وآلة التفكّـر، التي تنتج العلم.

٢- **القلـب**: وهـو مقـام مـن مقامـات النفـس، ويطلقـه القـرآن الكريـم عـلى مواضيـع مختلفـة[١]، وهـو درجـة أعـلى مـن العقـل، وهـو محـل الحـب والبغـض والإرادة، والمعلومـات إذا ترسـخت في العقـل ونزلـت إلى القلـب، فسـتنتج حبّـاً أو بغضـاً وإرادة، وعزمـاً ولـذة وألمـاً، وهنـاك معلومـات تـأتي إلى القلـب عـن طريـق العقـل أو الذهـن، وهنـاك معلومـات تـأتي مبـاشرة إلى القلـب، والأولى تسـمّى المعلومـات الكسـبية، والثانيـة هـي المعلومـات الوهبيّـة، التـي يحصـل عليها الإنسـان بواسـطة التقـوى وتزكيـة النفـس﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[٢]، ويمكـن القـول أنّ العلـم المؤثـر، هـو مـا نـزل في القلـب، والقلـب هـو مركـز قيـادة الإنسـان.

٣- **الفـؤاد**: هـو مصطلـح يمكـن أن يكـون مرادفـاً للعقـل، أو مرادفـاً للقلـب، أو هـو جامـع بينهـما، وهـو الـذي يتـم فيـه تفئيـد أي تنضيـج المحسوسـات التـي تـأتي مـن أعضـاء الحـس، كالسـمع والأبصـار، مـن أجـل تحويلهـا إلى علـم وشـعور وإرادة ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[٣].

٤- **الـروح**: وهـي الحقيقـة الأصليّـة للإنسـان، وتسـتعمل أحيانـاً مرادفـة للنفـس، وهـي عامـل الحيـاة بـكل درجاتهـا، وأدناهـا الحيـاة النباتيـة، وأعلاهـا الحيـاة الإنسـانية القدسـيّة، التـي تمتـاز بأعـلى درجـات الفكـر والشـعور والإرادة. والنفـس هـي روح تعلقـت بجسـم معـين، أمّـا مـادي، كـما في حياتنـا العاديـة في

١- أنظر إلى كتاب (أربعين حديث) للإمام الخميني (قدس)، الحديث الثاني عشر ص٢١٨.
٢- البقرة: ٢٨٢.
٣- النحل: ٨٧.

الدنيا، أو مثالي، كما في حالة المنامات والأحلام، التي نراها في النوم، أو حالة الإنسان بعد الموت.

والإنسان في بداية نشوئه من الحَيْمن والبويضة، يتكون من نطفة ثم يتطور إلى المضغة والعظام واللحم ويصير جسما، فتتعلق به الروح فيكون نفساً، ثم يكتمل حتى يصير إنساناً، ومع نزول الروح إلى البدن أو تعلقها به أو تدبيرها له، ينزل العقل أيضاً إلى النفس، أو يتجلّى أو يظهر فيها، وهو في بدايته قابلية للتعقل والإدراك، يتم تفعيلها بعد الولادة بواسطة الحواس وبشكل تدريجي.

٥- **الفطرة**: وهي النزعة إلى الله خالق الكون، ومصدر الكمال المطلق، المودعة في نفس الإنسان، وعلامتها صفة حب الخير والصدق والرحمة، المخبأة في جهاز النفس الإنسانية مهما كان اتجاهها الفكري والديني والسياسي، فلو جئت بإنسان ملحد لا يؤمن بالله، وسألته هل إنّ الظلم أفضل أم العدل، وهل الرحمة بالناس أفضل أم القسوة عليهم، وهل الصدق أفضل أم الكذب، وهل أنّ الكسب للمال عن طريق العمل الصحيح أفضل أم السرقة والنهب والسلب وإيذاء الآخرين؟

فلا شكّ أنّه سوف يقول لك أنّ العدل والرحمة والصدق والعمل الصحيح هو الأفضل، وهذا دليل النزعة الإلهية الموجودة في نفس الإنسان، والتي تسمى بالفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ...﴾[1]، وكأنّ الله شقّ العدم وأخرج منه إنساناً متجهاً نحو الله وصفاته الكماليّة.

ولو بقيت هذه الفطرة على سلامتها، وتم تفعيلها وتغذيتها بالغذاء السليم، وحمايتها من الانحراف والتلبيس والتغطية والتدسية ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2]،

١- الروم: ٣٠.
٢- الشمس: ١٠.

لسـار الإنسـان في طريـق التوحيـد الـذي هـو طريـق الكـمال الحقيـق ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[١].

١ - **الفجـور**: وهـي قابليـة للانحـراف عـن الطريـق الإنسـاني الصحيـح، أُودع في النفـس أيضـاً كـما قـال تعـالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[٢]، والسـبب في ذلـك أنّ كـمال الإنسـان بالاختيـار ومواجهـة عوامـل الانحـراف والانصيـاع لأوامـر العقـل، مـن أجـل حمايـة الفطـرة التوحيديـة، وحيـث أنّ الكـمال الإنسـاني بمصارعـة الانحـراف، فلابـد أن يكـون هنـاك قابليـة جـذب نحـو الانحـراف، وإلاّ لما كان خلْـق الإنسـان سـوياً ومتزنـاً، ولذلـك قـال تعـالى ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[٣]، أي جعلهـا سويّـة ومسـتوية ومتزنـة، كيـف؟ قـال ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[٤]، ففـي مقابـل التقـوى والفطـرة التوحيديـة، يوجـد جانـب الفجـور وقابليـة الانحـراف.

٢ - **النفـس الأمّـارة**: وهـي درجـة النفـس إذا سـيطرت صفـة الفجـور عـلى التقـوى، ودُسّـيت ودفنـت الفطـرة، أو سـيطر الجانـب الحيـواني والنهـم والتوحـش والهلـع والحـرص والرذائـل، عـلى جانـب الفضائـل الإنسـانية، وجـاء ذكرهـا في سـورة يوسـف الآيـة (٥٤) ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ...﴾[٥].

٣- **النفـس اللّوامـة**: وهـي درجـة النفـس التـي تحصـل مـن سـيطرة جانـب التقـوى والفطـرة، عـلى جانـب الفجـور والحيوانيـة، وهـي مصـدر الأخـلاق والفضائـل الإنسـانية، وهـي مركـز السـيطرة عـلى الغرائـز والعواطـف والرغبـات

١ - الشمس: ٩.
٢ - الشمس: ٧ ـ ٨.
٣ - الشمس: ٧.
٤ - الشمس: ٨
٥ - يوسف: ٥٣.

والنزعات، وتنظيمها بهداية العقل، وقد شرّفها الله سبحانه، بأن أقسم بها في سورة القيامة الآية (٢).

٤- **النفس المطمئنّة**: وهي درجة النفس العالية، التي يحصل عليها عندما تنتصر بشكل كامل على النفس الأمّارة، ويحرّر منطقة الغرائز، ويجعلها مطيعة بنحوٍ تام لعقله وفطرته، ويقضي على جميع احتمالات الفجور والانحراف، وتنقلب لديه مقاييس اللّذة والسعادة، من التلذذ بإشباع غرائز الجسم، وجمع المال والجاه، والسيطرة، إلى التلذذ بالعطاء والخدمة والتضحية، والشعور بالسعادة بنيل الفضائل الإنسانية.

ما هي النفس الإنسانية الحقيقية؟

بعد توضيح درجات النفس وجوانبها المختلفة، ينقدح لدينا سؤال مهم، هو إنّ النفس الإنسانية التي تمثل شخصيّة كل إنسان، والتي يتم توفيها عند الموت والتي تتلذذ وتسعد بالثواب وتتألم بالعقاب، ما هي؟

والذي يستفاد من الآيات القرآنيّة وكذلك من الكلمات العلويّة أنّ هناك نفسَيْن لدى الإنسان، أحداهما مذمومة والأخرى ممدوحة، فالنفس الأمّارة والمسوّلة والموسوسة والمطوّعة، والنفوس التي يؤمر أهل العذاب بإخراجها ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ...﴾[1]، والأنفس التي أهمّت الكافرين في قوله تعالى: ﴿...قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ...﴾[2] كل هذه النفوس مذمومة، وعلى الإنسان أن يتخلّص من تبعاتها.

وكذلك في كلمات أمير المؤمنين نجد قوله ﷺ في الخطبة ٨٧: (عِبَادَ الله، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ الله إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ

١- الأنعام: ٩٣.
٢- آل عمران: ١٥٤.

عَـلَى نَفْسِـهِ الْبَعِيـدَ، وَهَـوَّنَ الشَّـدِيدَ).

وقولـه عليه السلام في الخطبـة (٢٢٠) في وصـف السـالك الطريـق إلى الله سـبحانه: (قَـدْ أَحْيَـا عَقْلَـهُ، وَأَمَـاتَ نَفْسَـهُ، حَتَّـى دَقَّ جَلِيلُـهُ، وَلَطُـفَ غَلِيظُـهُ ...).

وفي المقابـل نـرى القـرآن الكريـم يصـف النفـس بأنّهـا ميـزان النجـاة والفـوز، ويقـول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[١]، ويقـول في آيـات عديـدة بـأنّ أهـل العـذاب قـد خسروا أنفسـهم: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[٢]، ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[٣]، وقولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ...﴾[٤]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ...﴾[٥].

وفي نهـج البلاغـة الخطبـة ١٨٣: (وَخُـذُوا مِـنْ أَجْسَـادِكُمْ فَجُـودُوا بِهَـا عَـلَى أَنْفُسَـكُمْ)، الخطبـة ٩٠: (حاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسـبوا، وزنوهـا قبـل أن توزنـوا)، خطبـة ٢٢٢: (حاسـب نفسَـكَ بنفسِـك)، وفي الخطبـة ١٣٣: (الدنيـا دار ممـر لا دار مقـر، والنـاس فيهـا رجـلان، رجـلٌ بـاع نفسـه فأوبقهـا، ورجـلٌ ابتـاع نفسـه فأعتقهـا).

فـأي نفـس هـذه التـي يجـب أن يقهرهـا الإنسـان ويميتهـا، ويسـتعين بـالله عليهـا، ويسـتعيذ بـالله مـن شرهـا، حتـى يصـل إلى الفـلاح، وأيّ نفـسٍ هـي التـي عـلى الإنسـان أن لا يخسرهـا، وأن يمسـك بهـا، وعـلى الإنسـان أن يأخـذ مـن جسـمه ويجـود عليهـا، وعليـه أن يشـتريها ليعتقهـا ويحررهـا، أيـن الإنسـان مـن هاتـين النفسـين؟

١- المائدة: ١٠٥.
٢- الزمر: ١٥.
٣- الأعراف: ٩.
٤- التوبة: ١١١.
٥- البقرة: ٢٠٧.

ثم مَنْ هو الذي تأمره النفس الأمّارة، وتسوِّل له النفس المسوّلة، وتطوّع له النفس المطوعة، وتوسوس له النفس الموسوسة؟

ومَنْ هو قابيل الذي طوعت له نفسه قتل هابيل أخيه؟ هل هو شخص آخر؟ ونفس أخرى؟ غير النفس المطوّعة؟

وعندما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة ٩٠: (زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا)، فمَن هو المحاسِب؟

وعندما يقول عليه السلام في الخطبة ٢٢٢: (حاسب نفسَك بنفسِك)، فمَنْ هو المحاسِب؟ ومَنْ هو المحاسَب؟

ومن أجل الوصول إلى تشخيص النفس الإنسانية التي تمثل الأنا، والتي يقع عليها العذاب والثواب، لابد من القيام بعملية جمع بين الآيات والكلمات النبويّة والعلويّة، وارجاع المتشابه إلى المحكم، والمجمل إلى المبيِّن، فنقول:

إنّ القرآن الكريم أكّد أن شخصية الإنسان تبدأ بنفخ الروح، وفي خلق آدم، تمّ نفخ الروح في جسده الطيني، وقال للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

وفي ذرية آدم قال أنّه بعد ١٢٠ يوما من انعقاد النطفة سوف يتم نفخ الروح ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]، وبعد أن يكسوا العظام لحماً، سوف يتم نفخ الروح ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ

١- الحجر: ٢٨ ـ ٢٩.
٢- السجدة: ٨ ـ ٩.

ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[١].

فالـروح هـي المشـخّص لإنسـانية الإنسـان، التـي استحقّـت سـجود الملائكـة لـه، وتعظيـم شـأنه، ولم يـأتِ ذم للـروح في القـرآن الكريـم كـما جـاء الـذم للنفـس وللإنسـان أيضـاً، ولكـن لم يعبّـر عـن الإنسـان بأنّـه روح، عـلى الرغـم مـن أنّ حقيقتـه هـي الـروح، وإنّـما عبّـر عنـه بأنّـه النفـس، ولذلـك فـإنّ كل الآيـات التـي ذكـرت التـوفّي، قالـت إنّ المـوت هـو توفّـي النفـس لا توفّـي الـروح: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾[٢]، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[٣]، ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾[٤].

والنفـس كـما مـضى توضيحهـا، هـي روح متعلقـة بجسـد مـا، ومـا يتـم توفّيـه هـي الـروح المتعلقـة بالجسـد المثـالي، بعـد أن تـترك الجسـم المـادي.

والنفخـة الروحيـة الإلهيـة، وإن كانـت هـي حقيقـة الإنسـان، لكـن شـخص الإنسـان، أو نفـس الإنسـان، هـو الجسـد الـذي تُنفـخ فيـه هـذه الـروح ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾[٥].

فالنفـس جسـد تحـلّ فيـه أو تدبّـره الـروح، ولا تحصـل النفـس عـلى الشـعور، وتحـس باللـذة والألم، إلاّ بوجـود أعضـاء وجسـد وأدوات إدراكيّـة.

ويظهـر أن النفـس عندمـا تتشـكل بتعلـق الـروح بالجسـد، يعبـأ فيهـا جانـب الفجـور والحيوانيّـة، ليقابـل جانـب التقـوى والفطـرة التوحيديـة الموجـودة في الروح، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[٦].

١- المؤمنون: ١٤.
٢- الزمر: ٤٢.
٣- الأنبياء: ٣٥.
٤- الأنعام: ٩٣.
٥- السجدة: ٨ ـ ٩.
٦- الشمس: ٧ ـ ٨.

وبعد هذه المرحلة وبلوغ الإنسان مرحلة تفعيل الإدراك، من أجل القيام بعمليّة الشكر ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، هنا سوف يكون الإنسان في ميدان الاختبار ومفترق الطرق، مثلاً إذا دار الأمر بين الظلم والعدل، فالعقل يشخص له الطريق الصحيح، وروحه وفطرته كذلك يقولان له بحسن العدل، وقبح الظلم، وفي المقابل هناك قطب آخر في نفسه يجذبه نحو الظلم، من أجل السيطرة والاستحواذ والتكاثر، فماذا يحصل هنا؟

ما هو القلب؟

إذا اختار نداء العقل واستجاب لطلب الفطرة، فسوف تصبح لديه نفس تسير في الطريق الإنساني الصحيح، وهنا يمكن أن نقول إنّ هذا الإنسان أصبح لديه درجة عالية من النفس أو الروح اسمها القلب، هو الذي يفكِّر ويشعر ويريد ويحب ويبغض ويتلذذ ويتألم، ومن يصل إلى درجة القلب فهو الذي ربح نفسه، وأصبح لديه نفس إنسانيّة، وهذا المعنى يمكن أن نكتشفه، أو على الأقل نستأنس إليه من الآيات والأحاديث التالية:

قوله تعالى في سورة ق: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾[2]، فإن الذي يحصل له التذكّر بسماع الآيات الإلهيّة، ويرقى بقراءتها هو من أحسن الاختيار، وأصبح له قلب واعٍ.

وفي بيان النتيجة الأخيرة للإنسان في يوم القيامة، قال تعالى: (﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[3].

١- النحل: ٧٨.
٢- ق: ٣٧.
٣- الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

وقولـه تعـالى: ﴿...فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ...﴾[١]، والقاسـية قلوبهـم هـم الذيـن انحرفـت منظومـة فكرهـم وشـعورهم وإرادتهـم وحبهـم وبغضهـم مـن الرحمـة والفضائـل إلى الظلـم والرذائـل، فصـاروا يتنفـرون مـن ذكـر الله، فقلوبهـم قاسـية ميتـة لا تتفاعـل مـع ذكـر الله الـذي هـو مصـدر الحيـاة الحقيقيـة، فهـم في الحقيقيـة كمـن لا قلـب لـه، وقولـه تعـالى: ﴿...أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٢].

وقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام لكميـل في الحكمـة ١٤٧: (يَـا كُمَيْـل بْـن زِيَـادٍ، إِنَّ هَـذِهِ الْقُلُـوبَ أَوْعِيَـةٌ...)

وقولـه في الخطبـة ٢٢٢: (...إِنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ جَعَـلَ الذِّكْـرَ جِـلاَءً لِلْقُلُـوبِ، تَسْـمَعُ بِـهِ بَعْـدَ الْوَقْـرَةِ، وَتُبْـصِرُ بِـهِ بَعْـدَ الْعَشْـوَةِ، وَتَنْقَـادُ بِـهِ بَعْـدَ الْمُعَانَـدَةِ،...).

وقـال في الخطبـة ٢٢٠ بعـد وصـف السـالك إلى الله بأنّـه (قَـدْ أَحْيَـا عَقْلَـهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَـهُ، حَتَّـى دَقَّ جَلِيلُـهُ، وَلَطُـفَ غَلِيظُهُ).

ثـم قـال: (...وَثَبَتَـتْ رِجْـلاَهُ بِطُمَأْنِينَـةِ بَدَنِـهِ فِي قَـرَارِ الْأَمْـنِ وَالرَّاحَـةِ، بِـمَا اسْـتَعْمَلَ قَلْبَـهُ، وَأَرْضَى رَبَّـهُ).

وقولـه عليه السلام في الحكمـة ١٩٣: (إِنَّ لِلْقُلُـوبِ شَـهْوَةً وَإِقْبَـالاً وَإِدْبَـاراً، فَأْتُوهَـا مِـنْ قِبَـلِ شَـهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَـا، فَـإِنَّ الْقَلْـبَ إِذَا أُكْـرِهَ عَمِـيَ).

وقولـه عليه السلام في آخـر خطبـة القاصعـة ١٩٢، في وصـف أتباعـه المخلصـين: (...وَإِنِّي لَـِنْ قَـوْم لاَ تَأْخُذُهُـمْ فِي الله لَوْمَـةُ لاَئِـم، سِـيَمَاهُمْ سِـيَمَا الصِّدِّيقِـينَ، وَكَلاَمُهُـمْ كَلاَمُ الْأَبْـرَارِ، عُمَّارُ، اللَّيْـلِ، وَمَنَـارُ النَّهَـارِ، مُتَمَسِّـكُونَ بِحَبْـلِ الْقُـرْآنِ، يُحْيُـونَ سُـنَنَ الله وسُـنَنَ رَسُـولِهِ، لاَ يَسْـتَكْبِرُونَ وَلاَ يَعْلُـونَ، وَلاَ يَغُلُّـونَ، وَلاَ يُفْسِـدُونَ، قُلُوبُهُـمْ فِي الْجِنَـانِ، وَأَجْسَـادُهُمْ فِي الْعَمَـلِ!).

١- الزمر: ٢٢.
٢- الرعد: ٢٨.

ويقول عليه السلام في المناجاة الشعبانية: (إلهي هب لي قلباً يدنيه منك شوقه)[١] ويقول أيضاً فيها: (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة...)[٢].

ويقول الحديث القدسي: (ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)[٣]، وفي حديث شريف عن النبي صلى الله عليه وآله: (قلب المؤمن عرش الله)[٤]، وفي دعاء الإمام السجاد في شهر شعبان: (اللهم صلّ على محمد وآل محمد واعمر قلبي بطاعتك)[٥].

ومن مجموع هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، يمكن أن نستنتج أنّ شخصية الإنسان بما يتكون لديه من قلب، وأنّ الشعور والإرادة والحب والكراهية ينطلق من القلب، والقلب في بدايته أيضاً أرض خالية وقابلية محضة، وهي الأنا التي هي محور الإنسان، وهي روح وفطرة الإنسان التي في مقابلها قابلية الفجور المودعة أيضاً في نفس الإنسان، وهناك كلام للإمام عليه السلام لولده الحسن في الكتاب (٣١)، يوضح ذلك حيث يقول له: (...وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ...).

فعندنا روح وعندنا بدن يتكون منهما نفس الإنسان، هذه النفس في جانبها فطرة توحيدية، وعقل هداية، وفي جانبها الآخر أيضاً هوى ووساوس وفجور، والنفس في وسط هذا الاستقطاب، وعندما تبدأ فيها الميول والانجذاب، هنا

١- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي: أعمال شهر شعبان.
٢- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي: أعمال شهر شعبان.
٣- المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني: ج٥ ص٢٦.
٤- بحار الأنوار: ج٥٥ ص٤٩.
٥- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، أعمال شهر شعبان.

يكـون شـخص الإنسـان قـد بـدأ بالتكـوّن، أي الدرجـة الأعـلى مـن النفـس بـدأت تتبلـور، وهـذه الدرجـة هـي قلـب الإنسـان، وهـذا القلـب يتقلـب عـادة بـين القطبـين، وينعـم بالثبـات والراحـة والطمأنينـة إذا ثبـت عـلى تغليـب جانـب العقـل والفطـرة عـلى جانـب الفجـور والحيوانيـة، وإذا حصـل العكـس ابتـلِيَ الإنسـان بقسـاوة القلـب، وقـد يتحـول إلى مـا هـو أسـوأ مـن الأنعـام والوحـوش ﴿...إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

فـالأول هـو ذاك القلـب الـذي ربـح نفسـه عندمـا جعـل الـروح تتكامـل باسـتخدام البـدن بـما ينطبـق مـع الفطـرة والعقـل، وهـذا هـو القلـب الإنسـاني، وهـو قلـبٌ ربـحَ نفسـه.

والقلـب الثـاني خـسر نفسـه، لأنّـه كان لديـه القابليـة والقـدرة لاختيـار تكميـل الـروح بالاسـتفادة مـن البـدن بـما يطابـق الفطـرة والعقـل، لكنّـه اختـار مـا يطابـق الهـوى ووسـاوس الشـيطان، فخـسر نفسـهُ الإنسانيّـة.

ويمكـن أن نوضـح أمثلـة وجدانيـة تقـرّب لنـا هـذا المعنـى: مثـلاً عندمـا نريـد أن نسـتيقظ لصـلاة الليـل قبـل الفجـر، ويـدق جـرس المنبـه، فنحـن هنـا نـرى أنفسـنا بوضـوح أمـام قطبـين، الأول يقـول لنـا أن القيـام هـو الأفضـل وفيـه خـير الدنيـا والآخـرة، والقطـب الآخـر يزيّـن لنـا النـوم وتأجيـل الصـلاة وتسـويفها، ونحـن وجدانـاً نشـعر أننـا في الوسـط، والـذي في الوسـط هـو الأنـا، وهـو شـخصنا، والـذي يحسـم هـذا النـزاع في الأخـير هـو الشـعور والإرادة، فـإذا تغلـب الشـعور بلـذة المناجـاة والحضـور أمـام ربنـا وخالقنـا تبـارك وتعـالى، والتلـذذ بالنعـم المعنويـة والمواهـب الروحيّـة، فسـوف نقـوم للصـلاة ويذهـب الكسـل والنعـاس، وإذا تغلـب الشـعور بالرغبـة للنـوم والراحـة الجسـديّة، فسـوف لـن نقـوم ونعـود إلى النـوم، والـذي حسـم الأمـر هـو مركـز الشـعور والرغبـة واللـذة وهـو القلـب.

١ – الفرقان: ٤٤.

أو إذا ما واجهت اختباراً أخلاقياً، فرأيت فقيراً محتاجاً إلى المال، فإنّك تجد أن هناك قطباً في داخلك يدعوك للإمساك بالمال، ويخوفك من الانفاق، وإنّه سوف يسبب لك الفقر والأذى وفقدان الاحترام لدى الناس، وهناك قطب آخر يجذبك نحو الانفاق، وإنّه سوف يجلب لك البركة والرحمة والأمن الاجتماعي، وإنّ هذا المال لن يضيع وسوف يتحول إلى باقيات صالحات، وخير وسعادة أخروية.

وبين هذين القطبين تجد نفسك أنت في الوسط، فإذا تغلب الأول شعر قلبك بلذة الجمع والحرص والخوف من الفقر، وتغلب على لذة الإيثار والتضحية والعطاء، وإذا تغلب القطب الثاني، شعر قلبك بالرحمة ولذة وسعادة العطاء، واللذات الإنسانية، وعندها سوف تتحرك نحو الإنفاق، وهنا نرى أنّ القلب الذي حصل فيه الشعور باللذّة والرحمة هو الذي حسم الأمر.

وبهذا يمكن أن نقول أنّ القلب هو المشخّص النهائي أو الدالّة النهائية لشخصيّة الإنسان، لأنّه مركز الشعور والإرادة والرغبة واللذّة والحزن والألم، ولا يمكن أن يكون للإنسان أكثر من قلب ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ...﴾[1]، لكن يمكن أن يكون للإنسان نفسان في وقت واحد، أحدهما أمّارة بالسوء والأخرى لوّامة، ويحصل الصراع بينهما والفائز هو الذي يحدد بوصلة القلب، وتحديد بوصلة القلب هو الذي يحدد اتجاه الإنسان في الحياة.

ما هو الإنسان؟

من مجموع هذه التصنيفات التي ذكرت اعتماداً على التأمل في الآيات والروايات، يمكن أن نخرج بما يلي:

١- **اصطلاح النفس بالمعنى الأعم يطلق على:** الروح + الجسد + العقل +

١- الأحزاب: ٤.

الفطــرة + القلــب، وقــد يطلــق أحيانــاً عــلى كل واحــدة منهــا.

٢- **النفــس بالمعنــى الأخــص**: الــروح + جســد مــادي أو مثــالي، وهــي قابليــة واســتعداد ثــم تتحــول بعــد ذلــك إلى أمّــارة أو لوّامــة أو مطمئنــة أو قدسيّــة، وهــي نفــس الأنبيــاء والأوليــاء.

٣- **القلــب**: مجمــوع قابليــات واســتعدادات العقــل + الفطــرة + الــروح + الجســد، وهــو مركــز الإنســان الــذي يُــدرك ويشــعر ويريــد ويحــب ويكــره ويتلــذذ ويتــألم بهــا.

٤- **القلــب عنــد التفعيــل بالنحــو الصحيــح**: عقــل + فطــرة متكاملــة + روح + جســد مــادي أو مثــالي + نفــس لوّامــة أو مطمئنــة أو قدســيّة.

٥- **القلــب عنــد التفعيــل غــير الصحيــح**: عقــل معطّــل + فطــرة محجوبــة + روح مغطــاة + جســد مــادي أو مثــالي.

والإنســان الحقيقــي الــذي عــرف نفســه وربحهــا هــو القســم الرابــع، وهــو الــذي يتكــون لديــه إدراك للحقائــق، وشــعور باللــذات الإنســانية العاليــة، كــما يكــون لــه إرادة وعــزم نحــو الاتصــاف بصفــات الكــمال المطلــق الإلهــي.

وفي المقابــل أصحــاب الصنــف الخامــس هــم الذيــن عطلــوا العقــل وغطّــوا الفطــرة فقــدوا النفــس الإنســانية الحقيقيــة، وســيطرت عليهــم النفــس الأمّــارة، ففقــدوا الإدراك والشــعور بالحقائــق واللــذات الإنســانية، وعندمــا عطّــلوا جهــاز النفــس الــذي يجعــل القلــب يتلــذذ باللّــذات العاليــة، فقــد خــسروا أنفســهم الحقيقيــة، وتحوّلــوا فقــط إلى نفــس تتلــذّذ باللــذات الحيوانيــة والرذائــل، فصــاروا ﴿...إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

١- الفرقان: ٤٤.

فهذه النفس التي فقدت الشعور والإرادة المطابقة للفطرة والروح والنفحة الإلهية ليست نفسا حقيقية وإنما هي نفس مجازية، وهذه النفس المجازية هي عدو الإنسان وعليه أن يجاهدها ويسيطر عليها، ويستخدمها لنفسه الحقيقية[١].

فالإنسان قلب يحيط به قطبان، وعليه أن يفعّل الفكر والشعور والإرادة، نحو القطب الذي يفعّل الفضائل الإنسانية، ويتغلب على القطب الذي يجذبه للرذائل، بل عليه أن يستخدم قطب الغرائز لخدمة قطب الإنسانية.

كيف يتم صناعة الإنسان؟

بعد أن عرفنا النفس الإنسانية التي إذا ربحناها سوف يكون لدينا قلب يشعر باللذات الإنسانية العالية، وإذا خسرناها، خسرنا القلب الحقيقي الذي يجعلنا مظهراً للصفات الإلهيّة.

يتضح لنا الطريق نحو بناء الإنسان، إنّه طريق بناء وصناعة بإعمار القلوب، وهنا نرى كلام أمير المؤمنين الذي يرسم لنا خارطة الطريق نحو بناء الإنسان، فيقول في الخطبة ١٨٣:

(...فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا، أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا،...)[٢].

وبعد أن يذكر عليه السلام أن الله تعالى طلب منّا أن ننصره، وله جند السماوات والأرض، وطلب منّا أن نقرضه وله ملك السماوات والأرض، فهو غني عنّا، ولكنّه سبحانه أراد أن يبلونا لكي نختار العمل الأحسن: (وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ

١- أنظر كتاب (تعليم وتربيت در إسلام)، للشهيد مطهري ص١٦٨.
٢- نهج البلاغة خطبة ١٨٣.

(يَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلاً) كـما قـال عليه السلام: (فَبَـادِرُوا بِأَعْمَالِكُـمْ تَكُونُـوا مَـعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ، رَافَـقَ بِهِـمْ رُسُـلَهُ، وَأَزَارَهُـمْ مَلاَئِكَتَـهُ، وَأَكْـرَمَ أَسْـمَاعَهُمْ أَنْ تَسْـمَعَ حَسِـيسَ نَـارٍ أَبَـداً، وَصَـانَ أَجْسَـادَهُمْ أَنْ تَلْقَـى لُغُوبـاً وَنَصَبـاً: (ذلِـكَ فَضْـلُ اللهِ يُؤْتِيـهِ مَـنْ يَشَـاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيـمِ).

هـذه الكلـمات العلويّـة، خارطـة للإنسـان نحـو التحـرر والتحليـق في سـماء الإنسانيّـة، وفضـاء الكـمال المطلـق والحيـاة الأبديّـة، ومخالفـة هـذا النهـج تُوقِـع الإنسـان في القيـود والأغـلال وظلـمات الضنـك والضيـق والأنفـاق المظلمـة.

وطريـق الحريّـة والعـروج والتسـامي هـو أن تأخـذ مـن عيونـك وأعضائـك التي تحـب النـوم والراحـة والكسـل وتعطـي لروحـك غـذاءً ووقـوداً عـلى شـكل عبـادة أو جهـاد أو خدمـة لخلـق الله، يتطلـب منـك العمـل والتعـب والسـهر والصـبر والمثابـرة، وأن تأخـذ مـن أموالـك التـي تحـب نفسـك الأمّـارة أن تزيـد في جمعهـا وادخارهـا، وتزيّـن لـك لـذّة تكاثرهـا والتفاخـر بهـا، فتعطـي هـذه الأمـوال لنفسـك اللوّامـة والمطمئنّـة والمقدّسـة الإلهيّـة، وتجـود بهـا عليهـا عـلى شـكل إنفاق عـلى الفقـراء والمسـاكين، وتكافـل وتراحـم وخـيرات وباقيـات صالحـات.

عندمـا تنـصر الله بقوّتـك البدنيّـة، وتسـتعمل أعضـاءك في سـبيل الله، وعندمـا تنفـق أموالـك في سـبيل الله وتقـرض الله قرضـاً حسـناً، فإنّـك تجـود عـلى نفسـك وتكرمهـا، وتحيـي نفسـك الحقيقيـة، وعندمـا تسـتجيب لدعـوات الكسـل والعجـز والجهـل والتخنـث والطمـع والهلـع والتكاثـر، فإنّـك تفقـد نفسـك الحقيقيـة التـي بهـا تكـون إنسـانا، وتحيـي نفسـك الكاذبـة التـي سـوف تكتشـف زيفهـا وتتركهـا في الطريـق، فتنـدم حيـث لا ينفـع النـدم، وهنـاك سـوف يبـدو لـك أنّـك خسـرت نفسـك وحياتـك الحقيقيـة، وتقـول عندهـا ﴿يَقُولُ يَـٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1]، وفي الخطبـة ٢٢٠ في وصْـف السـالك إلى الله يقـول عليه السلام:

١- الفجر: ٢٤.

(قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ).

هنا يعبّر عن الطريق إلى الوصول إلى باب السلامة ودار الإقامة، هو إحياء العقل وإماتة النفس، ولا شك إنّ النفس المقصودة هنا، هي النفس الأمّارة والمسوّلة والموسوسة، وإماتتها يعني كبح جماحها، والسيطرة عليها بواسطة العقل والفطرة والروح الإلهيّة التي بها تصير النفس لوّامة مطمئنّة، ثم يقول: إنّ الوصول إلى مقام الطمأنينة والسلامة والأمن والراحة يتم باستعمال القلب.

يقول المفكّر الشهيد مطهري حول هذه الكلمات العلويّة: إزالة غلظة الجسمانيات والترف وأوساخ الكسل والخمول والنهم والشهوانيّة، فإذا دق جليله ولطف غليظه، برق له لامع كثير البرق، وأضاءت له مصابيح النور من داخله وفتحت له الأبواب بابا بعد باب، حتى يصل إلى باب السلامة ودار الإقامة، ثم يقول رحمه الله: صدقوا أن هذه العبارة لم يستطع أن يأتي بمثلها أحد من كبار العرفاء في خلال ثلاثة عشر قرناً من مسيرة العرفان[1].

وقال عليه السلام في الخطبة ٨٣: (عِبَادَ اللهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ).

هذه الأنوار العلوية تكشف لنا أن الإنسان في بداية أمره خليط وأمشاج من الاستعدادات العالية تحيط بها شوائب وحجب وموانع وعقبات، وعلى الإنسان أن يزيلها بالتفكر ومجاهدة الهوى (أحيا عقله وأمات نفسه)، فإذا

١- عن كتاب المعرفة (شناخت)، مجموعة آثار الشيخ مطهري: ج١٣ ص٣٨١.

فعـل ذلـك تفعلـت تلـك الاسـتعدادات وزالـت تلـك الحجـب والموانـع وأشرقـت الأضـواء في نفسـه الإلهيـة، فـيرى الطريـق واضحـاً إلى دار السـلام والحيـاة الحقيقية، ويرقـى إلى أعـلى مقـام في سـلم الإنسـانية بحيـث يـشرف عـلى الوجـود ويـرى الأشـياء عـلى حقيقتهـا، فيضـع كل شيء بمقـداره المناسـب في محلـه المناسـب، ولذلـك قـال: (فَهُـوَ مِـنَ الْيَقِـينِ عَـلَى مِثْـلِ ضَـوْءِ الشَّـمْسِ، قَـدْ نَصَـبَ نَفْسَـهُ لله ـ سُـبْحَانَهُ ـ فِي أَرْفَـعِ الْأُمُـورِ، مِـنْ إِصْـدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْـهِ، وَتَصْيِـيرِ كُلِّ فَـرْعٍ إِلَى أَصْلِـهِ).

الإنسان بين النظامين الإلهي والمادي:

بعـد اسـتعراض هـذه المجموعـة مـن الكلـمات العلويـة والجمـع فيـما بينهـا، وكذلـك بينهـا وبـين الآيـات الكريمـة والتأمّـل فيهـا، اتضـح لدينـا أنّ بنـاء الإنسـان يتـم عـبر بنـاء النفـس الـذي يعتمـد عـلى تشـغيل العقـل واسـتخدام أعضـاء الجسـم، لتغذيـة الـروح بـما كشـفه العقـل، وجذبـت نحـوه الفطـرة، فالعقـل يكشـف والـروح تأمـر والفطـرة تشـجّع والأعضـاء تنفـذ ومركـز القيـادة الـذي يحصـل فيـه الإدراك والشـعور والإرادة هـو القلـب.

والنظـام الإلهـي المعـرفي، يصنـع الإنسـان بصناعـة القلـب الـذي تتجـه بوصلتـه الادراكيـة والشـعورية نحـو مصـدر صفـات الكـمال المطلـق الـذي هـو مصـدر الوجـود، وهـو الله سـبحانه، فيجعلـه خليفـة الله في الأرض، ويكـون قلبـه عرشـاً لله، أي أنـه يهـب للإنسـان مقـام العـرش الـذي هـو مقـام تدبـير الكـون، وبهـذا المقـام يكـون خليفـة لله في الأرض.

والطريـق إلى ذلـك كـما اتضـح هـو سـيطرة الـروح والنفـس الإلهيّـة عـلى النفـس الماديّـة والغرائزيّـة، لا بمعنـى إلغائهـا بـل بمعنـى السـيطرة عليهـا واسـتخدامها لتغذيـة النفـس الإنسـانية (وَخُـذُوا مِـنْ أَجْسَـادِكُمْ فَجُـودُوا بِهَـا عَـلَى أَنْفُسِـكُمْ...).

وهنا يظهر الفرق الأساسي بين المدرسة الإلهيّة والمدرسة الماديّة، حيث إنّ المحور في حركة الإنسان والمجتمع في النظرية الإلهيّة النبويّة العلويّة، هو النفس والروح الإلهيّة، ولكن المحور في النظرية المادية لفهم وإدارة الحياة هو الجسم والغرائز الماديّة.

ويلعب العقل والمعرفة هنا دوراً هاماً وأساسيّاً في بلورة الرؤية الكونيّة، والفهم الذي تؤسس عليه الإيديولوجية والمنهج.

فالنظام المعرفي الإلهي الذي يدير العقل ويثيره ويقوم بتنميته بالشكل الصحيح، كما رأينا في الفصل الأول والثاني من هذه الرسالة، يجعل الإنسان يكشف خالق الكون، وأنّه الكمال المطلق ومصدر مظاهر العظمة والقدرة والعلم والرحمة، ويكشف النفس الإنسانيّة الحقيقية بأنّها هي التي تبحث عن إدراك اللذات العالية، وتستخدم الغرائز والبدن المادي لأجل الوصول إلى شعور وإرادة عالية، وحياة أبديّة سامية.

لكن النظام المعرفي المادي المنغلق على المادة والتجربة، والذي لا يرفع رأسه نحو السماء في تحريك العقل واستثماره على النحو الصحيح، ينتج معرفة غائمة وضبابيّة عن الوجود، وهي لا تتجاوز المعرفة الحسيّة الضيّقة، وبالنتيجة فإنّها لا تصنع إلاّ إرادة للتمتع باللّذات المادية والحسيّة، ولذلك فإنّ موازين ومقاييس الحياة في النظام المادي هي: أصالة الغريزة، أصالة المنفعة، أصالة الاقتصاد، أصالة القوة والسيطرة.

وهذه نشأت من الفلسفات والرؤى الكونية الناتجة من حركة العقل بعيداً عن ارشاد الوحي، فكانت نظرية المعرفة النقديّة لـ (ايمانوئيل كانت)، التي تقول بعدم وجود حقائق موضوعيّة، بل وكذلك الفلسفة الوضعيّة لـ (أوكست كونت)، التي تقول بعدم وجود شيء خارج الحس والتجربة

الماديّــة، ومـا نتـج عـن ذلـك مـن نظريـات نسبيّــة الحـق، وعدم وجـود حـق ثابت، والمذهـب الوجـودي الـذي يقـول للإنسـان بأنّــك جسـم وشـهوات لا غـير، وأنت حـرٌّ في أن تحقـق مـا تريـد، وقيمـة الإنسـان في حريّــته المطلقـة، والمقصـود بحريتـه المطلقـة، حريّــة مـا يشـعر بـه مـن إيحـاء حواسـه الماديّــة وغرائـزه، وأنتجـت هـذه الفلسـفة نظريــة أصالــة الإنســان المتفـوق للفيلسـوف الملحـد الوجـودي الألمـاني المعـروف (فردريـك نيتشـه)، الـذي يدعو إلى سـحق كل الأخـلاق الدينيّــة، ويقول: (إنّ الغيبيـات والأخـلاق القديمـة وقبـل كل شيء الإيـمان بالآخـرة يجـب أن تشـيّع إلى القـبر، وأن تضـاف إلى الإنسـان الحـر الطبيعـي حقوقـه مـرة أخـرى)[1].

ويقـول فردريـك نيتشـه أيضـا: (فالـذي كان قبـل ذلـك شراً ملعونـاً وهـو الجسـد والشـهوة والغرائـز، تحـول إلى قيمـة إيجابيـة، والـذي كان قبـل ذلـك خـيراً، وهـو القناعـة الزهـد وحـب الخـير، تحـول إلى معـالم إنحطـاط)[2].

وقـد كان لهـذه الفلسـفات الماديـة دور كبـير في تأسـيس نظـام مـادي قائـم عـلى السـيطرة والنهـب والسـلب، واسـتضعاف الشـعوب واسـتحمارها، بعـد وضـع الخطـط لإبقـاء قابليـة الاسـتضعاف والاسـتحمار فيهـا.

ولأجـل التعـرف عـلى هـذا الأمـر نقـرأ هـذه المقالـة[3]، (عندمـا سُـئل (سـتيفن بركـر) وهـو أسـتاذ علـم النفـس الأبـرز في جامعـة هارفـرد، في إحـدى المقابـلات مؤخـراً عـن الفيلسـوف الـذي لاقـى تقديـراً وقبـولاً أكثـر مـن غـيره، أجـاب إنّــه (فيردريـك نيتشــه)، وبـرر ذلـك بالقـول مـن السـهل أن نلحـظ أفـكاره الاجتماعيـة، قـد ألهمـت الكثـير مـن الحـركات العنصريـة حـول العـالم في القرنـين

١- في صحبة الفلاسفة. روبرت تسيمر: ج١: ص١٨٨، ترجمة عبد الله محمد أبو هشه، دار الحكمة لندن.
٢- نفس المصدر: ص١٩٨.
٣- موقع (New Statesman) هوكو دوتسون، ترجمة ياسر منهل ٢٩/ ٨/ ٢٠١٨.

العشرين والواحد والعشرين، بما في ذلك الحركات النازية والفاشية والبلشفية واليمين الأمريكي والحركات النازية الجديدة في يومنا هذا. إنّ (راسل) فهم (نيتشه) جيداً في كتابه عن الفلسفة الغربية، وإنّ سبب صعود هتلر هو نيتشه، والحرب العالمية الثانية هي حرب نيتشه، ويبقى ترامب في البيت الأبيض واليمين المتطرف في الشوارع إذا ما نجحت الفاشية في الوصول إلى أمريكا، الآن الأوضاع في أمريكا تشبه حقبة الثلاثينيات، عندما أعلن (موسوليني) بأنّه قد تأثّر بطروحات (نيتشه)، وقدم هتلر نفسه باعتباره (الإنسان المتفوق) وفق الرؤية (النيتشويّة) وإنّه الذي يقود عرقه الآري المتفوق نحو النصر. ولم يعد لدينا منظومة أخلاقية مشتركة تنظم حياتنا عليها، وعوضاً عن ذلك أصبحنا نحتكم للنسبيّة الأخلاقية أو العدميّة التي تعتقد بعدم وجود قيمة للحياة، وبعدم وجود عامل أخلاقي، هذه العدمية والنسبية جعلت العالم يشعر بالضياع، وأدت إلى أحداث منها انتخاب ترامب، وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي، وظهور النزاعات القومية وكراهة الأجانب، التي تتصف بها حركات اليمين المتطرف في الوقت الراهن).

إنّ ما نشهده اليوم من هيمنة النظام الغربي الأمريكي الأوربي، على ثروات العالم، وانقسام العالم إلى مجموعة متفوقة منفردة بالمال والقرار، وأخرى محكومة مستعبدة منهوبة وممزقة، وما شهدناه من استعمار واحتلال وحروب عالمية وما آل إليه العالم من حالة عدم الاستقرار بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وتصدي أمريكا للعولمة، حيث شهدنا وضعاً مضطرباً في العالم، وحروباً داخلية مستمرة في مناطق الثروات، لاسيما في الشرق الأوسط، وأصبح النظام الغربي الأمريكي الأوربي يركّز على صناعة الأسلحة وإنشاء الاستخبارات، وشركات الإعلام والتواصل، فالإعلام يضلّل ويخدع، والاستخبارات تزرع الفتن وتربي العملاء، وتثير الحروب الداخلية، والحكومات الغربية تأخذ ثروات شعوبنا، وتصدر لها في مقابلها السلاح لتتحارب فيما بينها.

هـذا النظـام العالمـي القائـم عـلى حفـظ مصالـح وهيمنـة مجموعـة معينـة عـلى حسـاب شـعوب العـالم، وليـد مـدارس فلسـفية أنتجـت هـذه الإيديولوجيـات، فنظريـة الإنسـان المتفـوق، أو السـوبرمان لـ(نيتشـه)، ونظريـة البقـاء للأقـوى لـدارون، والفلسـفة الوجوديـة لسـارتر وهايدكـر، التـي تؤكـد بـأنّ كـمال الإنسـان بإطـلاق العنـان لرغباتـه وغرائـزه، ونظريـة هيجـل في تطـور الـروح المطلـق، التـي تنتـج الدولـة، وإنّ هـذا يقتـضي وجـود فـروق بـين القوميـات والأعـراق، ونظريـات راسـل وجـون سـتوارث مـل في الحريّـة الشخصيّـة، ونظريـة ميكافيـلي في أنّ الغايـة تـبرر الوسـيلة، والنظريـة البراغماتيـة لجـون ديـوي التـي هـي الأسـاس للحكومـات الأمريكيـة، كل هـذه أنتجـت لنـا هـذا النظـام العالمـي الجديـد الـذي هـو نظـام مصالـح وهيمنـة لمجموعـة تملـك التكنلوجيـا والسـلاح والإعـلام عـلى غيرهـا.

وإذا كانـت هـذه المجموعـة المتسـلطة عـلى العـالم تحافـظ عـلى قـدر مـن النظـام المـدني والأمـن الغذائـي والصحـي والاجتماعـي لشـعوبها في داخـل دولهـا، وعـلى حسـاب مئـات الشـعوب والـدول الأخـرى، فـإنّ مـا حصـل أخـيراً في حادثـة وبـاء كورونـا فضـح رؤوس النظـام المخـادع، وكشـف حقيقتهـم حتـى لشـعوبهم أيضـاً عندمـا ألغـوا النظـام الصحـي والوقائـي، والـذي كان يمكـن أن يقـي الملايـين مـن شـعوبهم، ويحميهـم مـن الإصابـة بهـذا الفـيروس المهلـك، لكنهـم سـمحوا لقتـل الملايـين مـن الشـعوب كـي لا تتأثـر الأمـوال والجيـوب.

وأصبـح العـالم اليـوم عـلى حافـة الانهيـار إذا لم تنقذ البشريّـة نفسـها بالاتجـاه نحو البديـل الصالـح، ولا بديـل سـوى الفكـر الصالـح الـذي يصنـع الإنسـان الحقيقي.

مشـكلة الفكـر المـادي هـي فصـل الوجـود عـن مصـدره، وحجـب العقـل مـن اكتشـاف هـذا المصـدر، وعندمـا لا يكتشـف الإنسـان المصـدر، فسـوف يضيّـع نفسـه وهدفـه، وعندمـا يضيّـع الإنسـان مصـدره وهدفـه ونفسـه الحقيقيـة، سـوف

يشعر أنّه قد أُلقى به عشوائياً في فضاء الوجود، بلا مبدأ ولا منتهى، فما عليه إلاّ أن يتعامل بما لديه من شعور بمعزل عن المصدر والهدف، ولا شعور لمثل هذا الإنسان إلاّ ما تصنعه إيحاءات الغرائز والخيال والأوهام، ومثل هذه الرؤية الكونيّة لا تنتج فكراً أفضل من الوجودية الإباحيّة والعنصرية والسيطرة والاستحواذ.

والحل هو الرجوع إلى البديل عن أصالة المادة والمتعة والغريزة والسيطرة، إلى اصالة الله، والمنهج الذي يرى الله ظاهراً في مخلوقاته، وإنها آيات ودلالات عليه، أصالة النفس الإنسانيّة التي تتكامل في صيرورتها مظهراً لله، بأن تستخدم كل ما في الوجود بما في ذلك غرائزها ومصالحها وأموالها من أجل إظهار رحمة الله وعدله في الأرض.

والبديل هو النظام الإلهي العلوي، الذي يقول قد أفلح مَن تزكّى، وقد أفلح مَن أعطى واتقى، في مقابل النظام المادي الذي يقول قد أفلح مَن استعلى واستغنى، البديل هو الذي يرى حريّة الإنسان في كبح جماح الشهوات والغرائز، وتحطيم أغلال الطمع والجشع والاستحواذ والاستئثار، وبناء الإنسان الذي يتلذذ بالعطاء والتضحية والإيثار، فالإنسان يجود على نفسه إذا أعطى من جسمه وشهواته ورغباته، وإذا أضمر بطنه وأسهر عينه وأنفق ماله واستعمل أقدامه وأعضاءه في خدمة الآخرين، هذا هو نظام علي بن أبي طالب، الذي عندما أصبح حاكماً للعالم راح يعطي قوته وعشاء عائلته جميعاً للفقير واليتيم والأسير، ويبقى طاوياً جائعاً لوجه الله لا يريد من أحد جزاءً ولا شكورا.

وفي المقابل نظام نيتشه وسارتر وهايدكر، خرّج لنا حاكماً كـ (هتلر وستالين وموسوليني وترامب)، الذين يتلذذون ويرقصون على أنغام سفك الدماء ونهب وسلب الشعوب، علينا أن نرجع إلى القرآن ونهج البلاغة، لا للتلاوة

والقـراءة، وإنّــما لاسـتخراج النظـام البديـل، وإنقـاذ العـالم الـذي يـكاد أن يغـرق في بحـر الماديّــة المظلـم، ولا سـفينة نجـاة غـير سـفينة عـليّ ومنهجـه، فلنركـب فيهـا وننـادي البشريّــة وندعوهـم بفكرنـا وسـلوكنا، ونقـول مَـن تخلّــف عنهـا غـرق، ومَــن ركبهــا نجــا و ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾[1].

---

١ – هود: آية ٤٣.

الفصل الثالث
ميزان الحريّـــة

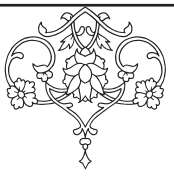

ميزان الحريّــة:

وهــو بحــث يترتــب عــلى البحثــين الســابقين أي معرفــة الله ســبحانه ومعرفــة النفــس.

كثيرون في هـذا العـالم ممّـن يدعـون أنّهـم أحـرار، ولكنّــهم مكبّــلون في القيـود، ويسـعون إلى الأغـلال والسلاسـل بأقدامهـم، ويربقـون أنفسـهم بأيديهـم.

والكثـير مـن شـعوب العـالم خُـدع بشـعار الحريّــة، الـذي رفعـه أربـاب الهيمنـة والاسـتحواذ والسـلب والنهـب، الحاكمـون عـلى هـذا العـالم، وفي الحقيقـة هـو فـخّ وشـباك لصيـد الشـعوب وتسـخيرها، لأهـداف ومـآرب الصياديـن.

وقـد وقعـت أمتنـا في هـذا الفـخ منـذ قـرون بسـبب الجهـل والتجهيـل والخـداع، وفقـدت حريتهـا الحقيقيّــة، وفقـدت وضيّــعت نفسـها وهويّــتها، وأصبحـت مســتعبدة خاضعــة، والمصيبــة العظمــى أن تألــف الأمــة جــدران الأقفــاص والسـجون، كبعـض الطيـور المؤهلـة، تخـاف أن تطـير وتحلِّــق في الفضـاء الواسـع المفتـوح، وإذا فتحـت لهـا بـاب القفـص أدارت وجههـا واستوحشـت مـن الشـمس والنـور والهـواء الطلـق والحدائـق والبسـاتين، إنّــها تظـن أن السـجن والخضـوع والتبعيـة قضاؤهـا وقدرهـا، وتخـاف مـن المجهـول أشـد مـن خوفهـا مـن المـوت والقتـل، هكـذا يفعـل الجهـل.

ما هي الحرية:

هل الحربّـة هي مطلق رفع القيود، أم أنّـها رفع القيود عن حقيقة الإنسان؟

لا شـك أنّ الحريّــة المطلوبـة هـي حريّــة الإنسـان، والإنسـان مجموعة مـن القوى والنزعـات، وبعضهـا خـادم وبعضهـا مخـدوم، فـإذا رفعنـا القيـود عـن الجميـع فقـد يسـتولي الخـادم عـلى المخـدوم وهـو الإنسـان، فيكـون هـو الضحيّــة، كالنخلـة التي

وجـد فيهـا السـعف والجريـد ليخـدم أعـذاق التمـر، ثـم يجـب أن يـزول بعـد أن أدّى دوره وأصبـح زائـداً، فـإذا أهمـل البسـتاني نخلتـه وأطلـق العنـان لجميـع مـا فيهـا مـن سـعف وجريـد فـإنّ الطلـع والأعـذاق والتمـر هـو الضحيّـة.

الإنســان كالشــجرة فيهــا أوراق وثمــر، والأوراق وســيلة لحصــول الثمــر، والبســتاني الماهــر هــو الــذي يرعــى أوراق الأشــجار كــي تنتــج أفضــل الثــمار، وأحيانــاً يهــذّب الأشــجار، ويقطــع الكثــير مــن الأغصــان والأوراق طمعــاً في تحقيــق أفضــل الثــمار.

الإنسـان متكـون مـن روح ونفـس إنسـانية، ومن جسـد ونفـس حيوانيـة غرائزية، وحقيقـة الإنسـان في إنسـانيته، والحريـة هـي رفـع القيـود عـن هـذه النفـس، كـي تنمـو وتعلـو وتسـمو، فهـي ثمـرة خلـق الإنسـان، والجسـم والغرائـز أوراقهـا وأغصانهـا، وليـس مـن حريّـة الشـجرة أن تطلـق العنـان لأوراقهـا وأغصانهـا المتسـلقة وألیافهـا وأشـواكها عـلى حسـاب ثمارهـا ونتاجهـا.

كذلـك ليـس مـن حريـة الإنسـان بـشيء أن يطلـق العنـان لغرائـزه ورغباتـه المادية والبدنيـة، لتعمـل مـا تشـاء عـلى حسـاب نفسـه الإنسـانية العالية.

لكـن النظـام المـادي الـذي وقـف نظامـه المعـرفي عـلى الحـس والتجربـة، لم يعـرف سـوى الأوراق والألیـاف، ولم يطلـع عـلى فاكهـة الإنسـان الطيبـة، وهـي النفـس الإنسـانية الإلهيّـة، فعـرف الشـجرة وضيّـع الثمرة.

في حـين أنّ النظـام المعـرفي الإلهـي يضـع منهجـاً للتنميـة والإثـارة والتفعيـل للعقـول، كـي تكشـف الثمـرة الإنسـانية ومصدرهـا وهدفهـا، وتربـط الإنسـان بالبسـتاني العـارف الصـادق الأمـين، الـذي يرعـى هـذه الشـجرة ويوفـر لها الحريّـة والفضـاء السـالم، كـي ترتبـط بجذورهـا، بالأصـل الثابـت وتتفـرع أغصانهـا في السـماء، وتـؤتي أكلهـا الطيّـب كل حـين بـإذن ربهـا.

حريّة الإنسان الحقيقية أن يرتبط بمصدر إنتاج ثمرة الإنسانية، وهو مصدر الكمال المطلق في الوجود، وهو الله، وهذا الارتباط هو العبودية، وفي ظل هذه العبودية تتحقق الحريّة الحقيقية، والنبي والإمام كالفلاّح الذي يرعى الشجرة كي تبقى مرتبطة بجذورها ويسقيها ويغذّيها لتثبت، ويهدي غصونها وأوراقها لكي لا تنحرف، ولتنمو وتتحرك وتفتح الأزهار، وتنضج الثمار، فالأنبياء والأئمة والقادة الإلهيّون، هم صانعوا الحريّة الحقيقية، وهم قادة الأحرار ولولا هم، لكانت الأرض غابة متوحشة.

إنّ ما يعبّر عنه في القرآن ونهج البلاغة، بمصطلح (الدنيا)، هو عبارة عن تغليب رغبات ونزعات النفس المادية والغرائزية على النفس الإلهية ورغبات الروح الإنسانية، وتسمى دنيا لأنّها تسافُل وهبوط من الدرجة العالية إلى الدرجة الدانية، ومَنْ تبع الدنيا وجعلها ميزان حياته فقد آثرها على الله تعالى، فانقطع إليها، وصار عبداً لها، ويقول عليه السلام في الخطبة ١٦٣ في وصف المتقين: (عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا...).

وفي الخطبة (١٠٩) وبعد أن يصف عليه السلام الدنيا بأنّها جيفة، ولكن المحبّين للدنيا قد عميت أبصارهم بهذا العشق الواهم، فلم يعرفوا حقيقتها، وخُدِعوا بظاهرها الجذاب فتعلقوا بها، فيقول: (وَ مَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ وَ أَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ وَ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ وَ أَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ وَ وَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَ لِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا وَ حَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا).

ومــن هــذا الــكلام العلــوي نفهــم أنّ الحريّــة تنطلــق مــن داخــل الإنســان، وكذلــك الــرقّ والاســتعباد، فالأنســان يصنــع حريتــه بنفســه، وكذلــك يصنــع الأغــلال والقيــود ويســتعبد نفســه، والمفتــاح لــكلا هذيــن البابــين هــو المعرفــة والإدراك والشــعور، فالــذي لا يعــرف ســوى المــادة والغرائــز وجمــع المال والسـيطرة والاستحواذ، فهــو ســوف يــصرف جميــع همــه وهمتــه وســعيه نحوهــا، أو نحــو مَــنْ بيــده شيء منهــا، فيكــون عبــداً لغرائــزه أو لمــن بأيديهــم إشــباع غرائــزه ورغباتــه، ومثــل هــذا الإنســان لــن يكــون حــرا أبــداً، لا في أعمالــه ولا في أخلاقــه ولا في مواقفــه، بــل حتــى إذا أراد أن ينتــج علــماً أو تقنيــة، فــإنّ هــذا العلم والتقنيّــة ســوف يكــون في خدمــة الشــهوات والمنافــع الماديّــة والسـيطرة.

لكــن مَــن تقــوده المعرفــة إلى معرفــة خالــق هــذا الكــون، وأنّ لهــذا الكــون هدفــاً عاليــاً وســامياً وأبديــاً، ويعرف نفســه الإلهيــة، ويلتفت إلى رغباتهــا العالية والأبديّــة، فهــذه المعرفــة ســوف تجعلــه يرتبــط بالكمال المطلــق الذي تتــوق إليه نفســه الحقيقيّــة، وعندمــا يذهــب لمعرفــة منهــج الارتبــاط بعــد التعــرّف عــلى الرســول والنبــي والقائد الإلهــي، ســوف يفهــم أنّ المنهــج هــو اســتثمار البــدن والغرائــز وكل مــا في الكــون من نعــم، مــن أجــل عبوديّــة الله ونيــل رضــاه، وعبوديّــة الله هي تطبيــق أوامــره وإظهار أخلاقــه وصفاتــه في الأرض، وعــلى رأس هــذه الصفــات الرحمــة والعــدل، وكلــما تــرك الإنســان التعلّقــات (الدنيــا) التــي تمنــع الرحمــة والعــدل، وكلــما واجــه أســباب منــع تحقــق الرحمــة والعــدل في الأرض، وهــم الطغــاة والظالمــون والمفســدون، كلــما كان أقــرب إلى الله ونيــل كمالــه ورضــاه وحياته الأبديّــة الســعيدة.

فالعبوديّــة لله هــي التخلــص مــن عبوديّــة الأهــواء والأعــداء، وهــي الحريّــة الحقيقيّــة التــي تصنــع الإنســان الحقيقــي، وتكــوِّن مجتمــع العــدل والقســط الإلهــي، وهــذا مــا صنعــه وأراد صناعتــه النظــام النبــوي والعلــوي، وهــو نظــام يتلــذذ القائمــون عليــه بالتضحيــة بــكل مــا لديهــم مــن أجــل نــشر الرحمــة والعــدل لجميــع

العـالم، وإظهـار الرأفـة لجميـع المخلوقـات.

يقـول عليه السلام في الخطبـة (٢٢٤): (وَاللهِ لَأَنْ أَبِيـتَ عَـلَى حَسَـكِ السَّعْدَانِ مُسَـهَّداً، أَوْ أُجَـرَّ فِي الْأَغْـلَالِ مُصَفَّـداً، أَحَـبُّ إِلَيَّ مِـنْ أَنْ أَلْقَـى اللهَ وَرَسُـولَهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ظَالِماً لِبَعْـضِ الْعِبَـادِ، وَغَاصِباً لِـشَيْءٍ مِـنَ الْحُطَـامِ، وَكَيْـفَ أَظْلِـمُ أَحَـداً لِنَفْـسٍ يُـسْرِعُ إِلَى الْبِـلَى قُفُولُهَا).

وفي جـواب مَـنْ قـدم لـه قطعـة مـن الحلـوى بـما يشـبه الرشـوة والتزلّـف بعنـوان الهديّــة، زجـره الإمـام بشّـدة وقـال هَبِلَتْـكَ الْهَبُـولُ (أي ثكلتـك الأم التـي لا يعيش لهـا ولـد):

(...هَبِلَتْـكَ الْهَبُـولُ أَ عَـنْ دِيـنِ اللهِّ أَتَيْتَنِـي لِتَخْدَعَنِـي أَ مُخْتَبِـطٌ أَنْـتَ أَمْ ذُو جِنَّـةٍ أَمْ تَهْجُـرُ وَ اللهِّ لَـوْ أُعْطِيـتُ الْأَقَالِيـمَ السَّـبْعَةَ بِـمَا تَحْـتَ أَفْلَاكِهَـا عَـلَى أَنْ أَعْـصِيَ اللهَّ فِي نَمْلَـةٍ أَسْـلُبُهَا جُلْـبَ شَـعِيرَةٍ مَـا فَعَلْتُـهُ وَ إِنَّ دُنْيَاكُـمْ عِنْـدِي لَأَهْـوَنُ مِـنْ وَرَقَـةٍ فِي فَـمِ جَـرَادَةٍ تَقْضَمُهَـا مَـا لِعَـلِيٍّ وَ لِنَعِيـمٍ يَفْنَـى وَ لَـذَّةٍ لَا تَبْقَـى نَعُـوذُ بِـاللهَّ مِـنْ سُـبَاتِ الْعَقْـلِ وَ قُبْـحِ الزَّلَـلِ وَ بِـهِ نَسْـتَعِينُ...).

الحريّــة في النظام المادي تعدم نفسها:

لقـد أخطـأ فلاسـفة النظـام المـادي في تحقيـق الحريّـة الحقيقيـة للمجتمـع البـشري لأنهـم ضيّعـوا النفـس الإنسـانية التـي يجـب أن تتحـرر، وضيّعـوا مصـدر الحريـة وهدفهـا أيضـاً، فهـم وتبعـا لنظامهـم المعـرفي، لم يكشـفوا سـوى إنسـان لا يتعـدى عـن مجموعـة مشـاعر ورغبـات حسـيّة، تنتهـي بانتهـاء مـدة الحيـاة وتوقـف البـدن عــن الحركــة، وطالبــوا بالحريــة لهــذا الإنســان، ورأوا أن كمالــه بحريّـــة رغباتــه ومشـاعره الحسـيّة، ولا يحدّهـا شيء سـوى رغبـات الآخريـن، وقـد تلقّـى المجتمـع البـشري هـذه الأفـكار بالترحيـب والإعجـاب، لأنهـا جـاءت كـردة فعـل عـلى الكنيسـة التـي كانـت تدعـو إلى الكبـت والاسـتبداد والتخلـف، كـما وإنّ المجتمـع

البـشري رأى فيهـا أنهـا المنقـذ لواقعـه المتخلـف الـذي جلبتـه لـه الحكومـات المتعاقبـة عليـه، والخطـاب الدينـي المحـرّف والبعيـد عـن الحيـاة الكريمـة، ولكـن سرعـان مـا اكتشـفت البشريـة أنّ هـذه الحريـة لم تحقـق لهـا إنسـانيتها التـي كانـت تصبـوا إليهـا، فلـم يسـتطع طـير الإنسـانية أن يحلّـق في سـماء الحريـة الموعـودة، بـل كانـت الحريـة الماديـة كالفايـروس الـذي نخرهـا مـن الداخـل وجعلهـا تشـعر بالخـواء والتفاهـة، وسـلط عليهـا مـن خارجهـا الوحـوش والكـواسر.

حول هذه الحرية المزعومة يقول المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﷺ:

وقـد سـكرت الإنسـانية عـلى أنغـام هـذه الحريـة وأغفـت في ظلالهـا برهـة مـن الزمـن، وهـي تشـعر لأول مـرّة أنهـا حطّمـت كل القيـود، وإنّ هـذا العمـلاق المكبـوت في أعماقهـا آلاف السـنين قـد انطلـق لأول مـرة، وأتيـح لـه أن يعمـل كـما يشـاء في النـور دون خـوف أو قلـق.

ولكـن لم يـدُم هـذا الحلـم اللذيـذ طويـلا، فقـد بـدأت الإنسـانية تسـتيقظ ببـطء وتـدرك بصـورة تدريجيّـة ولكنهـا مرعبـة، إنّ هـذه الحريـة ربطتهـا بقيـود هائلـة، وقضـت عـلى آمالهـا في الانطـلاق الإنسـاني الحـر.

وحـول السـبب في ذلـك يقـول السـيد الشـهيد ﷺ: (إنّ الإنسـان زوّد بالقـدرة التـي تمكنـه مـن السـيطرة عـلى شـهواته وتحكيـم منطقـه العقـلي فيهـا، فـسرّ حريتـه بوصفـه إنسـاناً إذن، يكمـن في هـذه القـدرة، فـإذا جمّدنـا هـذه القـدرة، وفتحنـا لـه حريّـة شـهواته الحيوانيـة، ووفرنـا لـه مغريـات الاسـتجابة لهـا، كـما تفعـل الحضـارات الغربيـة الحديثـة، وجعلنـا الإنسـان أداة لتنفيـذ تلـك الشـهوات، حتـى إذا التفـت إلى نفسـه أثنـاء الطريـق وجـد نفسـه محكومـاً لا حاكـماً، ومغلوبـاً عـلى أمـره وإرادته[1].

١ - المدرسة الإسلامية، السيد الشهيد محمد باقر الصدر: ص٩٥ــ ٩٧.

وحول هذا الخطأ الذي وقعت فيه الفلسفة المادية في نظرها إلى الحرية، يقول المفكر الشهيد مرتضى مطهري ﷺ: نحن نحترم الحرية بما أنها ضرورة لحياة الإنسان، والإنسان محترم لأجل أن يصل إلى الكمال اللائق به، والحيثية التي يجب أن يحترم لأجلها الإنسان هي حيثية كونه روح إلهية وإرادة إلهية، وحرية إرادة الإنسان محترمة بشرط كونها في اتجاه كمال الإنسان.

وكما أن إرادة الإنسان تُلغى إذا خالفت حفظ الطبيعة التكوينية للإنسان، كما إذا تعارضت إرادته وميوله ورغباته للطعام مع صحته وسلامته البدنية، ويجبر على التضحية بالإرادة، بتناول الدواء واللقاح والخضوع للعمليات الجراحية، بل إنّ عدم إجباره على العلاج أو التلقيح أو الحمية، يعتبر مخالفاً لحقوقه وحريته الإنسانية،

كذلك فإنّ رغبات الإنسان في مجال المصالح العالية الفردية والاجتماعية، تجري عليها نفس القاعدة، وكما أنّ تشخيص سلامة البدن بيد الطبيب لا بيد المريض، كذلك تشخيص المصالح الاجتماعية ليس بيد الفرد بل بيد القانون الذي أما أن يكون بشرياً أو إلهيّاً، ونحن نعتقد أنّ البشر لا يستطيع أن يصنع نظاماً صالحاً، فيتعين المصدر الإلهي، وعليه فالإرادة يجب أن تكون في اتجاه حفظ الطبيعية الإنسانية، لا أن يضحى بالإنسانية لأجل إرادة الأفراد.

فنحن لا نريد أن تُكبت ميول الإنسان ورغباته، ولكن لا نريد أن يضحي الإنسان بعقله وروحه ومصالحه الاجتماعية وحياته الأبديّة من أجل تلبية حاجات موقّتة ومحدودة.

وإذا كانت مخالفة الميول والرغبات لأجل حفظ مصلحة بدن الإنسان التي يشخّصها الطبيب ليست مخالفة للحرية، فكيف تكون مخالفة الميول والرغبات لأجل مصلحة الإنسان التي يشخّصها خالقه وربّه العالم به، تكون مخالفة للحرية وحقوق الإنسان!

ومـا يقولـه أصحـاب الفلسـفة الوجوديـة مثـل هايدكـر وسـارتر مـن أنّ الديـن يمسـخ حقيقـة الإنسـان لأنّـه ينفـي حريّـة الإنسـان، فهنـا يقـول المفكـر الشـهيد مطهـري:

الحـق إنّ (سـارتر) لم يعـرف الله، ولم يعـرف معنـى العبوديـة لله، ولم يفهـم منهـا سـوى معناهـا الخاطـئ الـذي أخـذه مـن الديـن المحـرّف.

الله سـبحانه هـو الغايـة القصـوى لكـمال الإنسـان، والتعلـق بغايـة الكـمال ليـس مسـخاً لحقيقـة الإنسـان، بـل هـو تأكيـد لهـا، وتعميـق لنفـس الإنسـان، بـل إنّ انسـلاخ الإنسـان عـن غايـة كمالـه ومصـدر وجـوده هـو الإلغـاء لنفسـه وحقيقتـه، لا الارتبـاط بهـا، ارتبـاط الإنسـان بـالله ليـس ارتباطـاً للنفـس بغيرهـا، بـل هـو ارتبـاط لنفـس الإنسـان بدرجاتهـا الأكمـل والأعـلى[1].

نعـم فالنظـام الإلهـي عندمـا يقـول بالحريـة للإنسـان كـما يـوصي الإمـام أمـير المؤمنـين ولـده الحسـن فيقـول:

(وَ لَا تَكُـنْ عَبْـدَ غَـيْرِكَ وَ قَـدْ جَعَلَـكَ اللهُ حُـرّاً)[2]، فـإن هـذه الحريـة تعنـي الحرية في الأفـق المفتـوح المطلـق، حيـث ثمرتهـا هـو أنّ الإنسـان يصبـح مظهـراً لصفـات الله سـبحانه، وهـذه حريـة حقيقيـة لا تـؤدي إلى التقاطعـات والنزاعـات، وتحقـق الكـمال الفـردي والاجتماعـي للإنسـان، لكـن الحريـة في المنظـار الغـربي المـادي تـؤدي لا محالـة إلى التقاطـع والـصراع عـلى تحقيـق الرغبـات، لأنّهـا حريـة في أفـق مغلـق ومحـدود. ومـن العجيـب أنّ المفكّـر والمـشرّع الغـربي قـد غفـل عـن هـذا الأمـر البديهـي.

يقـول الفيلسـوف البريطـاني (جـون سـتوارت مـل): لا يجـوز إجبـار الفـرد عـلى أداء عمـل أو الامتنـاع عـن عمـل بدعـوى أنّ هـذا الأداء أو الامتنـاع أحفـظ

١- الحريّة (آزادي) للشهيد مطهري: ص١٢٠.
٢- نهج البلاغة الكتاب ٣١.

لمصلحته وأجلب لمنفعته وأعوَد عليه بالخير والسعادة، ولأنّه في نظر الناس هو عين الصواب، بل هو صميم الحق، فالإنسان غير مسؤول أمام المجتمع عن شيء من تصرفاته إلاّ ما كان منها ذا مساس بالغير، أمّا التصرفات التي لا تخص غير نفسه ولا تتعلق بغير شخصه، فله فيها كامل الحريّة ومطلق الإرادة، ذلك لأنّ الإنسان سلطان في دائرة نفسه، وأمير حر التصرف في جسمه وعقله[1].

ومن الحق أنّ نسأل (ستوارت مل) الذي يعد من أكبر المنظرين للفكر الغربي الحديث، هل نسي أم تناسى أنّه قبل أن يقول للغربي إنك حر في كل ما تريد، قد قال له وربّاه على أن لا يفكر ولا يشعر إلاّ بالمادة والملك والمتعة والشهوات المحدودة والمؤقتة والمحصورة في إطار هذا العمر القصير، وهل يعقل لمفكر مثل (ستوارت مل) أن لا يعلم أن النزوات والرغبات المادية إذا أصبحت هدفاً نهائياً للإنسان، فإنّ الإنسان لا يشبع منها، ولا يقتنع إلاّ بالإكثار منها، وعندها كيف ستكون نتيجة هذه الحريّة؟ أليست هي الصراع والتكالب على الرغبات؟!

وهل خفيت عليه الحقيقة التي يوضحها أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية في الكتاب (٤٩) فيقول عليه السلام:

(أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا وَ لَهَجاً بِهَا وَ لَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا وَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ وَ نَقْضُ مَا أَبْرَمَ).

وهل أنّ قانون منع المساس بحرية الغير في تحقيق ما يرغب ويريد، يحل المشكلة؟ أم أنّ هذا القانون في الحقيقة يكون بمثابة الأقفاص الحديدية التي تُحجز فيها الحيوانات المختلفة في حديقة الحيوانات كي لا يأكل بعضها بعضاً؟!

١ - الحرية جون ستوات مل: ص٣٣، ترجمة طه السباعي.

نعـم قـد انتبـه المـشرِّع والحاكـم الغـربي إلى هـذا المحـذور، فوجـد لـه حلاً ينسـجم مـع فكـره المـادي بـأن يحـل مشـكلة الـصراع عـلى المنافـع والرغبـات في المجتمـع الغـربي عـن طريـق هـدم الإنسـانية مـن أساسـها، وبإحـراق الأرض بنـار الحـروب والفتـن والنزاعـات، والحـل هـو أن فتـح للغربيـين بابـا لإشـباع نهمهـم في المـال والسـلطة والاسـتحواذ عـن طريـق الاسـتيلاء عـلى ثـروات الشـعوب والأمـم الأخـرى، وهكـذا راحـوا يغـزون بلـدان العـالم، ويقتلـون أهلهـا كـما تقتـل الحـشرات والديـدان، تـارة باسـم الاسـتعمار وأخـرى باسـم التطـور، وأحيانـاً باسـم الحريّـة والديمقراطيـة، وأخـيراً باسـم العولمـة وباسـم مكافحـة الإرهـاب والقضـاء عـلى أسـلحة الدمـار.

والعجيـب أنّ (سـتوارت مـل) في تنظـيره عـن الحريّـة الفرديـة يقـول أنّ الإنسـان أمـير وسـلطان في دائـرة نفسـه، في التـصرف بجسـمه وعقلـه، وسـؤالنا هـو: كيـف يمكـن للإنسـان الـذي علمتـه الفلسـفة الماديّـة أن لا وجـود إلاّ للـمادة والشـهوات والدنيـا، أن يكـون سـلطاناً وأمـيراً في دائـرة محـدودة وضيقـة يتنـازع فيهـا مليـارات النـاس؟

فكيـف يتحـرك ليحقـق إمارتـه وسـلطانه دون أن يصطـدم بالآخريـن، فأمـا أن يُـمنع مـن ذلـك فيكـون عبـداً محروماً مظلوماً لا أمـيراً ولا سـلطاناً، أو لا يُمنـع فيكـون غاصبـاً ظالمـاً! وإلاّ فكيـف يكـون أمـيراً وسـلطاناً في الربـح والقـوة والمتعـة غـير المحـدودة والآخـرون كلهـم أيضـاً يريـدون أن يكونـوا أمـراء وسـلاطين؟!

الفصل الرابع
ميزان السعـــــادة

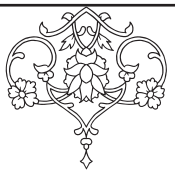

ميزان السعادة:

ما هي السعادة؟ هل هي اللذة؟ أم هي ترك اللذة؟

وإذا كانت هي اللذة، فهل هي اللذات الحسيّة البدنية، أم اللذات العقلية؟ أم هي اللذات الفطرية والمعنوية والروحية؟

اختلف المفكرون والفلاسفة في الجواب على هذا السؤال تبعاً لاختلاف نظرياتهم في المعرفة ورؤيتهم الكونية.

والذي يهمنا هنا هو أن نتأمل في أنفسنا بالتدبر والتنمية العقلية لكلمات ميزان الحق والحقيقة؛ عليّ عليه السلام، كي يدلّنا على حقيقة السعادة ومنهج الوصول إليها ونيلها، ونحن عندما نتأمل أنفسنا نجد أننا نشعر بالسعادة إذا حققنا شيئاً يلائم شعورنا، فنحن عندما نشعر بالجوع والرغبة بتناول الطعام وتكون لنا قدرة على الحصول عليه، نكون سعداء بالحصول على الطعام والتلذذ بتناوله، وكذلك في سائر اللذات الأخرى التي نشعر بالحاجة إليها ولدينا القدرة على بلوغها.

ولكن هذه السعادة المعتمدة على الشعور والقدرة مهددة بالزوال بفقدان منشأها، فالإنسان بعد دقائق من الطعام يفقد الشعور بالرغبة إلى مواصلة الأكل بسبب الشبع، وعليه أن ينتظر إلى عدة ساعات كي يتجدد لديه الشعور بالرغبة بالطعام، وحينها قد لا توجد قدرة على الحصول على الطعام بسبب حصول موانع خارجية كالحوادث والأعداء وعدم توفر الوسائل... الخ.

كما إنّ هناك هاجساً حقيقياً يعكّر صفو هذه اللذات، حتى ولو توفرت كل عوامل تحققها، وهو هاجس الموت الذي يهدم هذه اللذات من أساسها، ويتوقعه الإنسان في كل لحظة.

إذاً هنـاك عوامـل داخليـة نفسـية وخارجيـة تمنـع ثبـات وبقـاء الشـعور باللـذة والقـدرة عـلى نيلهـا، بـل تمنـع حصولهـا، وبالتـالي فـإن الإنسـان إذا أراد أن يحقـق السـعادة الدائمـة، فعليـه أن يبحـث عـن سـعادة ذات عوامـل وأسـباب ثابتـة وباقيـة، وأن يجـد حـلاً واقعيـاً لمشـكلة زوال السـعادة، وهـذا الحـل لا يتوفـر إلاّ في ظـل النظـام الإلهـي النبـوي العلـوي، ومـا يصنعـه مـن فكـر وشـعور ينتـج سـعادة حقيقيـة.

حيـث وفّـر النظـام المعـرفي الإلهـي طريقـاً إلى تحقـق الحيـاة السـعيدة التـي سـمّاها (الحيـاة الطيبـة).

قـال تعـالى: ﴿مَنْ عَـمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعندمـا سـئل أمـير المؤمنـين عـن معناهـا، قـال عليه السلام: (الحيـاة الطيبـة هـي القناعـة) (الحكمـة: ٢٢٩).

وقبـل أن يفـسر الآيـة قـال: (كَفَـى بِالْقَنَاعَـةِ مُلْـكاً، وَبِحُسْـنِ الْخُلُـقِ نَعِيـماً) (الحكمـة: ٢٢٩).

فهنـا يدلّنـا أمـير المؤمنـين أن محـور الحيـاة السـعيدة هـو القناعـة، وليـس القناعـة بمعنـى الاكتفـاء بالقليـل مـن النعـم الماديـة، كـما يتبـادر عنـد البعـض، بـل إنّ القناعـة هـي تغيـير لمفهومـي الملـك والنعيـم، وهنـا يكمـن الحـل الجـذري لمشـكلة السـعادة الحقيقيـة.

فـإذا كان أكثـر النـاس يـرون الملـك والنعيـم منحـصراً بالمـال واللـذات الماديـة، فـإنّ الميـزان العلـوي يقـول بـأنّ الملـك الحقيقـي والكنـز الـذي لا يفنـى ولا يبيـد هو القناعـة، كـما أنّ النعيـم الحقيقـي الـذي يُصلـح الفـرد والمجتمـع هو حسـن الخُـلق،

١ - النحل: ٩٧.

وهذا التغيير المفهومي والفكري، يجعل الجهاز الشعوري للإنسان يتحول من جعل الشعور منحصراً بالماديات والغرائزيات والقدرة على نيلها، إلى تشغيل الدرجات العالية من الشعور، وهي درجات الشعور الفطري والإنساني، والتعلق بالحياة الأبدية والارتباط بالمطلق، وهنا سوف يكون الشعور باللذة ليس متوقفاً على توفر اللذة المادية، بل يشتغل حتى في حالة عدم توفرها، فهنا يوجد مفتاحان لتشغيل الشعور بالسعادة عند الإنسان المؤمن، هما مفتاحا الشكر والصبر، فإذا توفرت النعم الماديّة يُشغّل مفتاح الشكر، وإذا لم تتوفر يشغّل مفتاح الصبر، فالمهم عند المؤمن الصالح وبعد أن انفتحت أمامه آفاق الحياة وخرج من جدران المادة، وسجن المعيشة الضنكة الضيقة، هو أن يتلذذ باللذات الإنسانية، فإذا توفرت لديه اللذات المادية، جعل منها وسيلة وسلّماً للصعود إلى اللذات العالية، بواسطة الشكر واستثمار النعم في سبيل الله والحياة الباقية، وإذا ابتلى بالفقدان ونقص من الأموال والأنفس والثمرات صبر، وحول هذا الفقدان بواسطة الصبر إلى وجدان درجات عالية من الإنسانية والأخلاق العالية، وهذه هي الحياة الطيبة، وتصلح الدنيا والآخرة بالسير طبقاً لخارطة الطريق هذه التي رسمها عليّ عليه السلام للبشرية.

وقد عبّر أمير المؤمنين عن هذا المنهج في كثير من كلماته في نهج البلاغة، بأنّه منهج جعل الدنيا وسيلة للآخرة، وإنّ الدنيا تصلح وتصبح بيد الإنسان إذا صارت طريقاً للآخرة، وإنّ الإنسان يخسر الدنيا ويفسدها، ويفسد آخرته أيضاً إذا جعل الدنيا هدفاً، يقول عليه السلام في الخطبة (٨٢):

(مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ وَ آخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَ فِي حَرَامِهَا عِقَابٌ مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ وَ مَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَ مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ وَ مَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ وَ مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ وَ مَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ).

ويقول عليه السلام أيضاً في الخطبة (١٣٣): (وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ

مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً وَ الْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ وَ يَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَ الْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ وَ الْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ وَ الْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ).

وفي كتاب (٤٩) الذي يخاطب عليه السلام فيه معاوية ويقول له: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا وَ لَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا وَ لَهَجاً بِهَا وَ لَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا وَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ وَ نَقْضُ مَا أَبْرَمَ...).

وفي الحكمة (٣٧١) يقول عليه السلام: (وَ الرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ وَ مَطِيَّةُ التَّعَبِ...).

ومن هذه الكلمات العلوية يمكن أن نستنتج معادلة مهمة هي أنّ مَنْ أراد الدنيا، بمعنى جعل الرغبات المادية هدفاً فإنّه سوف يخسر الدنيا، وكذلك الآخرة، ومَنْ جعل الآخرة (وهي الرغبات الإنسانية العالية) واستعمل رغبات الدنيا لأجل الوصول للرغبات الأخروية العليا فإنه سوف يربحهما جميعاً.

إرادة الدنيا = فقدان الدنيا والآخرة

إرادة الآخرة = تحصيل الدنيا والآخرة.

وهذه المعادلة تنتج لنا شعورا وقدرة أوسع وأدوم من الشعور المتعلق باللذات المادية إذا كانت هدفاً لا يرى الإنسان غيره.

هنا سوف تكون اللذات المادية من الطعام أو الزواج أو المال أو الجاه وسيلة للحياة الأبدية الأخروية، فلن تكون هذه اللذات محلاً للحرص والجشع والهلع والطمع، لأن هذه الصفات تخالف كونها وسيلة للآخرة، بل تكون جميع اللذات محلاً للقناعة والشكر والصبر، فإذا كانت قليلة، كان قانعاً ولم يطمع، وإذا كانت كثيرة، كان شاكراً ولم يمنع، وإذا لم يحصل على شيء منها،

كان صابراً ولم يجزع، وفي كل الأحوال سوف يشعر بأنّ هناك شيئاً يحققه وهو رضا الله والدار الآخرة واللذات الفطرية والمعنوية، فيكون سعيدا وكريماً وعزيزاً في جميع الأحوال.

بل إنّ لذة وسعادة الإنسان الإلهي أسعد وأسمى إذا صبرَ وتحمّل المصاعب، وواجه الموانع والعقبات في سبيل الأهداف الإلهية العالية، فالمؤمن لديه وله ولذّة لا توصف بالجهاد والعبادات والأعمال القربيّة التي تتطلب البذل والتعب والنصب ومخالفة الهوى.

أنظر أمير المؤمنين عليه السلام كيف يصف أحبابه وشيعته الصادقين فيقول: (... أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ وَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَ هِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا وَ سَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا وَ أَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَ صَفّاً صَفّاً...)، وأيّ سعادة وأيّ شعور بالنشوة واللذة أعظم من الوله، وهو شدة الحب وقد وصف به أمير المؤمنين عليه السلام مَنْ سمّاهم في آخر هذه الخطبة بأنّهم إخوانه، وقال: (...أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ وَ نَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ...)، وفي وصف المتقين في الخطبة (١٩٣) يقول عليه السلام: (...قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ وَ زَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى...).

ووصف أصحاب العلم الحقيقي، وهم من تكشّفت لهم حقائق الوجود، وذلك في كلامه لكميل بن زياد في الحكمة (١٣٧) فقال عليه السلام: (...هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَ أَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وَ صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَ الدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ...).

طريق السعادة:

مـن مجمـوع هـذه الأنـوار العلويـة نكشـف طريـق السـعادة التـي هـي الشـعور الثابـت والمسـتمر باللـذات السـامية التـي تلائـم روح الإنسـان وفطرتـه، وهـو الفكـر الـذي يكشـف اللـذات غـير الفانيـة، ويجعـل القلـب يتعلـق بهـا، فـإذا تعلـق بهـا، جعـل كل شيء طريقـاً نحـو نيلهـا، فـإن حصـل الإنسـان عـلى النعـم واللـذات الماديّـة، جعلهـا طريقـاً إلى اللـذات الأبديّـة، بواسـطة الشـكر، وإذا لم يحصـل عليها أو فقدهـا، جعـل الصـبر طريقـاً إلى لذاتـه، ولم يتأثّـر شـعوره بالسـعادة، فهـو في حـال سرور وملـك ونعيـم دائـم، هـو الشـكر والصـبر والقناعـة وحُسـن الخُلـق والقلـب السـليم، فـلا يخـاف مـن احتـمال فقـد الموجـود، ولا يحـزن عـلى المفقـود ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1].

عندمـا تشـعر أنـك لـن تفقـد شـيئاً في المسـتقبل فهنـا يـزول الخـوف والقلـق، وعندمـا تشـعر إذا فقـدت شـيئاً مـن أمـورك البدنيـة والماديـة، إنّـك حصلـت عـلى بديـل أفضـل، فلـن تشـعر بالحـزن، وعندما تشـعر أنّـك دائـماً في إنجـازات دائميّـه، تسـير عـلى منحـنٍ مسـتمر في الارتفـاع حتـى تصـل إلى أفـق مفتـوح مـن الحيـاة الأبديّـة الخالصـة، فإنـك عندهـا سـوف تكـون في سرور دائـم.

والأسـاس الـذي ينطلق منـه الشـعور بالإنجـازات الدائميّـة والفوز المسـتمر هو الفكـر والتدبـر الصحيـح الـذي يكشـف للإنسـان حقائـق الكـون والنفـس، والذي عبّـر عنـه عليه السلام: (هَجَـمَ بِهِـمُ الْعِلْـمُ عَـلَى حَقِيقَـةِ الْبَصِـيرَةِ)، وعـبّر عنـه في وصـف أوليـاء الله في الحكمـة (٤٣٢): (إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللهَّ هُـمُ الَّذِيـنَ نَظَـرُوا إِلَى بَاطِـنِ الدُّنْيَـا إِذَا نَظَـرَ النَّـاسُ إِلَى ظَاهِرِهَـا وَ اشْـتَغَلُوا بِآجِلِهَـا إِذَا اشْـتَغَلَ النَّـاسُ بِعَاجِلِهَـا...).

فـإذا وصـل الإنسـان إلى حقيقـة البصـيرة، ونظـر إلى باطـن الدنيـا، فسـوف

١- يونس: ٦٢.

يشتغل جهازه للأهداف العالية، فهناك أهداف عالية، وهناك أهداف دانية، الأولى هي الآخرة، والثانية هي التي تسمّى الدنيا، إذا كان الفكر ماديّاً حسيّاً فقط، فلا يكتشف إلاّ الأهداف الدانية الحسيّة المحدودة، فإذا تحرك نحوها فلا محالة أن يرتطم بجدرانها، لأنّها محدودة فيتوقف الشعور بالسعادة، لكن الفكر الناتج من حركة العقل وفق المنهج الإلهي والعلوي للمعرفة، يكشف الأهداف العالية، ويتحرك نحوها ويتعلق بها، وهي ذات آفاق مفتوحة ومتعالية، فلا تتوقف سعادة الإنسان السائر إلى نحو المثل الأعلى الإلهي والحياة الباقية، بل إنّ الجدران التي ارتطم بها الإنسان المادي الذي لا يعرف غير المادة، سوف تتحول عند الإنسان الإلهي إلى قواعد للانطلاق نحو الأعلى، والحصول على إنجازات ومكاسب أعلى، فالمصائب والابتلاءات يحوّلها المؤمن إلى هدى ورحمة، والموت عند المؤمن يتحول إلى بوابة نحو الحياة الكاملة الخالصة الخالدة.

ومن قول امير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (٢٢٠) الذي ذكرناه في معرفة النفس نكتشف معنى في غاية الشرف والسمو يوضح لنا بان السعادة تنطلق من نفس الانسان الحقيقية اذا تغلبت على النفس الوهمية التي هي حجاب يمنع النفس عن رؤية الطريق للاتصال بمعين الكمال المطلق الذي تحصل به النفس الإنسانية على شعور بالفوز المستمر وأن هناك شيئا تراه وتشعر به وتريده ويتحقق لها (لهم ما يشاؤون فيها)، (لا يبغون عنها حولا) وهذان الوصفان هما ركنا السعادة وبهما وصف الله أهل الجنّة:

الأول: ان يتحقق كل ما تريد.

الثاني: ان يكون هناك تجدد واستمرار بلا كلل ولا ملل، والوصول إلى هذا المقام يتحقق بإحياء العقل، (قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ

بِـهِ السَّـبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْـوَابُ إِلَى بَـابِ السَّـلاَمَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَـةِ، وَثَبَتَـتْ رِجْـلاَهُ بِطُمَأْنِينَـةِ بَدَنِـهِ فِي قَـرَارِ الْأَمْـنِ وَالرَّاحَـةِ، بِـمَا اسْـتَعْمَلَ قَلْبَـهُ، وَأَرْضَى رَبَّـهُ.).

فهنـاك عقـل يجـب أن يحيـى، وهنـاك نفـس يجـب ان تمـوت، وهنـاك جليـل يجـب ان يـدق، وهنـاك غليـظ يجـب ان يلطـف فيسـلك الانسـان السـبيل نحـو السـعادة، وهـي بـاب السـلامة ودار الإقامـة وثبـات الإقـدام بطمأنينـة النفـس في قـرار الامـن والراحة.

فالأمـن يعنـي عـدم الخـوف، والراحـة تعنـي عـدم النقـص، فهـذا الاشـباع الدائمـي الآمـن هـو السـعادة، ويحصـل للإنسـان بـما اسـتعمل قلبـه وارضى ربـه، فالخطـوة الأولى والأساسـية لهـذه السـعادة هـي احيـاء العقـل واماتـة النفـس والهـوى المانـع عـن رؤيـة وإدراك الكـمال المطلـق.

الآخرة تُصلح الدنيا ولا تلغيها:

النظـام المعـرفي الإلهـي العلـوي الـذي ينتـج فكـراً وشـعوراً يجعـل اللـذات العاليـة والأبديـة هدفـاً لا يلغـي اللـذات الماديـة والدنيويّـة، وإنّـما يصلحهـا، ويجعـل الإنسـان يختـار أفضلهـا، فالدنيـا بـما أنهـا دار لامتحـان الإنسـان، وكـمال الإنسـان فيهـا منـوط بانتخابـه أحسـن الخيـارات﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾[1]

ففـي الدنيـا حـق وباطـل، وفيهـا حـلال وحـرام، وفيهـا طاهـر ونجـس، فـإذا كان غـير المؤمـن لا يعـرف إلاّ اللـذات الماديـة وهـي هدفـه ومثلـه الأعـلى، فـإنّ مـا يهمّـه أن يحصـل عـلى اللـذات الماديـة، ولا يهمّـه مـن أي طريـق حصلت، حقـاً كان أم باطـلا، عـدلاً كان أم ظلـما، وكذلـك همّـه أن يشـعر باللـذة في الطعـام أو الغرائـز الأخـرى، ولا يهمـه حـلالاً كانـت أم حرامـا، طاهـرة كانـت أم نجسـة وقـذرة.

١ - الملك: ٢.

لكن الإنسان المؤمن لا يختار الدنيا ولذاتها المادية البدنية وحياته الاجتماعية إلاّ باتباع الحق في القول والعمل، ولا يأكل ولا يشرب ولا يتزوج ولا يسكن ولا يلبس إلاّ الحلال الطيب الطاهر، فأي حياة دنيوية أفضل، هل هي حياة المؤمن بالآخرة أم حياة الكافر بها؟

وحول هذا المعنى يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الكتاب (٢٧) وفيه يخاطب واليه على مصر (محمد بن أبي بكر):

(...أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ: سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّة...)

ولو أمعنّا الفكر في العبارة العلوية الأخيرة، لأنتجت لنا معادلة مهمة جداً، وهي أن المؤمن والمتدين الملتزم لا تقل سعادته الدنيويّة عن غير المتدين، وهذا خلاف ما هو معروف ومرتكز في أذهان الكثير، إن لم يكن الأكثر من المتديّنين، بأن مَنْ يريد أن يكون ملتزماً فعليه أن يحرم نفسه من اللذات، وهنا يصحح لنا ميزان الحق الإلهي على لسان عليّ الحق سلام الله عليه هذا الخطأ الثقافي الفكري، ويقول أن المتقين لا ينقص لهم نصيب من لذّة، نعم قد يملك الكافر والفاسق مظاهر وزخارف دنيويّة كثيرة، ويملك المليارات ويعيش في القصور، ولكن هل أنه يتلذذ بالدنيا أكثر من ذلك الإنسان المؤمن الذي يعيش في الكوخ أو البيت المتواضع ولا يملك إلاّ قوت يومه؟ يقول القرآن الكريم الذي لا أصدق منه قولاً ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1].

ويقـول القـرآن الناطـق المتحـرك عـلى الأرض وهـو عـليّ عليه السلام إن لـذات المؤمـن المتقـي بالحـلال القليـل، أفضـل مـن لـذات غـيره، وإن كان مـن الملـوك وأبنـاء الملـوك.

ولـو غصنـا في بحـر الفطنـة والحكمـة العلويـة وحلّـقنا في سـماء الهمّـة لاصطدنـا لآلـئ مـن البحـر العلـوي ولطرنـا بهـا في أعـالي قمـم الإنسـانية، ولعرفنـا أنّ لـذات المتقـين أفضـل وأعظـم بكثـير مـن عبيـد الشـهوات والدنيـا.

عندمـا يصـف عـليّ أتباعـه وحواريـه وأحبابـه الذيـن هجـم بهـم العلـم عـلى حقيقـة البصـيرة، فيقـول أنّـهم اسـتلانوا مـا اسـتوعره المترفـون وآنسـوا بـما اسـتوحش منـه الجاهلـون.

فالحيـاة عنـد عبيـد المـادة مـا هـي إلاّ لحظـات قضـم لقمـة، ونـزوة شـهوة وسـورة غضـب ونشـوة تسـلط، فـإذا فقدهـا أو خـاف أن يفقدهـا، هبـت ريـاح الحـزن والخـوف عـلى حديقـة حياتـه، فتحولـت إلى هشـيم وحطـام، وأصبحـت وعـرة موحشـة، وصـار كالبنـدول يتأرجـح بـين القلـق والكآبـة والخـوف والحـزن، ولكـن أتبـاع المنهـج العلـويّ، إذا مـا أصحـرت وأوعـرت حياتهـم، كشـفوا بمحـراث بصيرتهـم باطنهـا، فـإذا بهـا ليّـنة سـهلة جميلـة، فنثـروا فيهـا بـذور الصـبر، وسـقوه بغيـث الدمـوع وحـرارة الإخـلاص والخشـوع، فـإذا بصحرائهـا أصبحـت واحـات أشـجار طيبـة وحدائـق بهجـة وسرور، ووحشـتها وظلامهـا يتحـول إلى أُنـس ونور.

هـذه هـي ولايـة عـليّ وأبنائـه، التـي يدلّـنا عليهـا في نهـج بلاغتـه، فهـي ولايـة المحبـين الوالهـين التـي أوضـح معالمهـا في مناجاتـه الشـعبانية عندمـا قـال: (إلهـي أقمنـي في أهـل ولايتـك مقـام مَـنْ رجـى الزيـادة مـن محبتـك وألهمنـي ولهـاً بذكرك

١ - التوبة: ٨٥.

إلى ذكـرك)[1].

فـإذا كانـت البشريّـة اليـوم تئنّ ألمـاً وسـغباً من مجانـين السـلطة والمال والشـهوات المتسـلطين عـلى رقابهـا، فـلا منقـذ لها سـوى ولايـة عـليّ ومنهجه.

لقـد تركـت البشريـة ولايـة عـلي ودخلـت في ولايـة غـيره، تركـت مـن يـرى الله في كل شيء، ودخلـت في ولايـة مَـن يـرى (الأنـا) والسـلطة والتكاثـر والتفاخـر في كل شيء، وعندمـا يتـولى مثـل هـذا الـولي فإنّـه يبيـع خلـق الله جميعـاً، ويجعـل عبـاد الله خـولا، وأموالـه دولا، ويهلـك الحـرث والنسـل لأجـل نـزوة شـهوة، أو نشـوة سـلطان أو غلبـة أو سـورة غضـب أو عصبيـة أو هيجـان حـرص أو طمـع.

وإذا كانـت البشريـة قـد خُدعـت بقـول مَـن يعجبـك قولـه في الحيـاة الدنيـا وهـو ألـدّ الخصـام، فكانـت وقـودا للحـرب والفتـن والأهـواء، وركـب الطغـاة ظهرهـا، وحلبـوا ضرعهـا في طـول هـذه القـرون المتمادية، فـإنّ جرائـم هـؤلاء الجبابـرة الأخـيرة بحـق البشريـة لاسـيما في طريقـة تعاملهـم مع وبـاء كورونـا ومـع المختلفين معهـم في اللـون والعنـصر واللغـة، قـد عـرّت حقيقتهـم، وكشـفت اسـتهانتهم بـأرواح الملايـين، حتـى مـن شـعوبهم، وقـد أضـاء الصبـح لـذي عينـين، مـا أحـوج البشريـة إلى معرفـة عـليّ ومنهجـه، كـي تعـود إلى عـليّ وتدخـل في ولايتـه، تعـود إلى عـلي كـي يـرى الله فيهـا ولا يـرى نفسـه، تعـود البشريـة إلى عـليّ الـذي يجمـع عشـاء أطفالـه ليقدمـه ليتيمهـا وفقيرهـا وأسـيرها، تعـود إلى عـليّ كـي يكـون لهـا أسـوة في جشـوبة العيـش ويشـاركها في مـكاره الدهـر، تعـود إلى عـليّ الـذي يـرى قيمـة خلافتـه أقـلّ مـن النعـل البـالي إلاّ أن يقيـم حقّـا ويبطـل باطـلاً، تعـود إلى عـليّ الـذي لا يريـد أن يقيـم نـصراً عـلى الجـور وتوزيـع المناصـب والمكاسـب، تعـود إلى عـليّ الـذي لا يريـد تأليـف حكومـة ومجلـس وزراء مـن العـروش والكـروش، تعود إلى عـليّ الـذي لا يحـب المـدح والإطـراء، تعـود إلى عـليّ الـذي لا يطمـع في سـلطانه القـوي والحليـف والقريـب، ويلجـأ إلى عدلـه الضعيـف والغريـب...

١ - مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي: المناجاة الشعبانية.

الفصل الخامس
ميزان فهم الدين

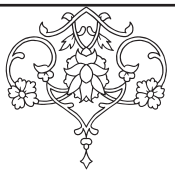

ميزان فهم الدين:

ليس هناك شيء في التاريخ أكثر انتشاراً وتأثيراً ولصوقاً بالجنس البشري كالعامل الديني، والمقصود بالدين هو الارتباط بقوة مطلقة تستطيع أن تدفع عن الإنسان الشرور، وتجلب له الخير والبركات والحياة في الدنيا وما بعد الموت، وليس هناك من عامل محرك نحو العمل والعطاء والتضحية كالدين، إذا تم استثماره في هذا الاتجاه، وليس مثل الدين من كابح للرذائل وصمام أمان للمجتمع يحفظه من الظلم والفساد، وفي المقابل أيضاً ليس كالدين شيء يمكن استغلاله وخداع الناس به ليكونوا مطايا ووسائل لدنيا ورغبات ومآرب الآخرين.

ومن هنا تبرز الأهمية القصوى لفهم الدين الصحيح وتشخيص الدين الحقيقي من الدين المزيّف، والنبي من المتنبي، والإمام والعالم من المدّعي للإمامة والمقام العلمي.

ولم يهمل القرآن الكريم هذه المسألة المصيرية، ولم يغلق باب الوحي القرآني إلاّ من بعد أن أنزل الله على رسوله أن يبيّن للأمة هندسة الصراط المستقيم، والمهندس الذي يهدي نحو خارطة طريق الإسلام الأصيل، ويوزع مصابيح الكشف وأجهزة التشخيص ومفاتيح الوعي والبصيرة.

والهندسة هي الولاية العلوية، ومهندسها وقائدها ومعلمها هو عليّ وأبناؤه الطاهرون، ولم يعلن الوحي إكمال الدين وإتمام النعمة إلاّ بعد إعلان هذا الأمر الهام المصيري ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[1]، وتم تحذير الرسول والأمة بأنّ الإسلام كرسالة إلهيّة إلى الأرض يتوقف ابلاغها

١ - المائدة: آية ٦٧.

علـى إنفـاذ هـذا الأمـر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ...﴾[١].

فالإسـلام مجموعـة مـن المفاهيـم والعقائـد والقوانـين والأحـكام، وهـي كالمـادة الخـام التـي تحتـاج إلى التشـخيص والتمييـز والتنظيـم، وبوصلـة تعيّـن الاتجـاه ومصابيـح تـضيء الطريـق، ومفاتيـح لأقفـال وموانـع الطريـق، وهـذه مهمّـة ولاية الإمـام والقائـد الصالـح، ولا رسـالة دون هـذه الولايـة.

وعندمـا ابتعـدت الأمـة عـن مهنـدس الولايـة، وعطّلـت مصنـع إنتـاج الإنسـان الحقيقـي، بقـي الإسـلام مـادة هلاميـة مـن مفاهيـم وطقـوس عجنتهـا وخبزتهـا كل فئـة لمـا يطابـق أهواءهـا ومصالحهـا.

لذلـك لم يسـتطع القـرآن أن ينتـج أمّـة ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾[٢] و ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٣] و﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾[٤]، بـل إنّ واقعنـا يشـهد عـلى العكـس مـن ذلـك إلاّ مـن رحـم ربّـك، ولا نبالـغ إذا قلنـا بـأنّ علينـا اليـوم أن نعـود إلى الإسـلام لأنّـه ليـس لدينـا إسـلام، عندمـا فصلنـا إسـلامنا عـن ولايتـه وقيادتـه وإمامتـه الحقيقيـة التي قـال الله لرسـوله إنـك إن لم تبلغهـا للأمـة (فـما بلغـت رسـالته).

والأسـاس المهـم في تحقـق هـذه العـودة هـو الفكـر الـذي نسـتقيه بأوعيـة عقولنـا وقلوبنـا مـن ينابيـع العلـم العلـوي، والـذي بـه نشـخّص الإسـلام الحقيقـي ونميّزه عـن سـواه.

---

١ – المائدة: آية ٣.
٢ – آل عمران: ١٣٩.
٣ – البقرة: آية ١٤٣.
٤ – آل عمران: آية ١١٠.

مراحل فهم الدين:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، هذه الآية تبيّن المصدر الأصلي للإسلام وهو القرآن الكريم، لكن القرآن يحتاج إلى أمرين آخرين، أحدهما بيان الرسول والآخر هو التفكر وعمل العقل، فهنا ثلاث مراحل في فهم الدين، وقد بيّن لنا أمير المؤمنين عليه السلام آليّة تفعيل هذه المراحل الثلاث للوصول إلى فهم الدين، فهو يؤكد على كون القرآن هو المصدر الأساسي، ويقول عليه السلام في الخطبة (١٧٦): (وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلاَ لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً: فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ...) إلى أن يقول: (وَاسْتَدِلُّوهُ عَلى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ)، وفي الخطبة (١٥٨) يقول عليه السلام: (ذلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ)، وفي الخطبة (١٣٣) يقول عليه السلام:(...كِتَابُ الله تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي الله، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ الله)، وفي الخطبة (٩١) يقول عليه السلام: (فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِىءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ...).

والذي يظهر من هذه الكلمات وكذلك الأحاديث الأخرى والآيات القرآنية الكريمة التي وصفت بعضها القرآن الكريم بأنّه مصدر الهدى

١- النحل: آية ٤٤.

والشـفاء والنـور، والآيـات التـي ربطـت تبيينـه وتوضيحـه بالرسـول الأكـرمﷺ، إنّ هنـاك دلالتـين للقـرآن الكريـم، أحدهمـا إجماليـة كليـة، وهـي دلالـة القـرآن عـلى القـرآن، والثانيـة تفصيليّــة وهـي دلالـة القـرآن عـلى الإسـلام.

الدلالة الإجمالية للقرآن:

وهـي دلالـة مهمّــة واساسـية توضـح الأهـداف العاليـة للقـرآن وترسـم معـالم الأمــة والحضــارة التــي يريــد الإســلام بناءهــا، فخلافــة الله في الأرض بمعنــى إظهـار صفـات الله في الأرض، وإقامـة العـدل والقسـط والإيـمان بـالله وتوحيـده عـن طريـق العقل والتفكّــر، وأن الله سـبحانه الشـهيد عـلى كل شيء والحـاضر الحي القيـوم المنـزّه عـن الجسـمية والمحدوديّــة والإدراك بالأبصـار، وإن الأمـة يجـب أن تكـون قويـة وعزيـزة ولا تركـن للظالمـين، ولا تـوالي الكفـار، وأن تتوحّــد وتعتصـم بحبـل الله المتمثـل بالرسـول والـوليّ الصالـح، الـذي يملـك أعـلى درجـات العلـم والعــدل، والــذي يقــوم بتعليــم الأمــة وتزكيتهــا وقيــادة صراعهــا في الجهاديــن الأكـبر والأصغـر في مقابـل أعدائهـا، ويدعـو الأمـة إلى العلـم والعمـل والإنتـاج الأوفـر والاســتهلاك الأمثـل وإقامــة القسـط والعــدل، والتكافـل الاجتماعــي وإزالـة الفقـر والمسـكنة مـن المجتمـع، ويـزرع الأخـلاق الإنسـانية العاليـة ونبـذ الرذائـل والعنصريـة والتعصـب والتمييـز والطبقيّــة.

وهـذه الدلالـة القرآنيـة التـي تبـين الأهـداف العاليـة للقـرآن هـي التـي جعلهـا النبـي وأهـل البيـت عليهـم السـلام ميزانـاً لتشـخيص صحـة الروايـات، عندمـا أمـروا بنبـذ وطـرح كل مـا خالـف القـرآن، والأخـذ بـما وافـق القرآن،.فهـذه الدلالـة لا تتوقـف عـلى الرجـوع إلى الروايـات كـي تتـم، وإلاّ لـزم الـدور، وهـو توقـف الـشيء عـلى نفسـه لأنـه إذا قلنـا أنّ دلالـة جميـع آيـات القـرآن متوقفـة عـلى توضيـح الروايـات لهـا كـما يقـول بعـض الإخباريـين، ومـن جهـة نقـول بـأنّ صحـة الروايـات متوقـف عـلى عـدم مخالفـة القـرآن، فهـذا هـو الـدور المسـتحيل منطقيـاً.

وحول هذا المعنى يقول صاحب تفسير (تسنيم) الجوادي الطبري الآملي: إن مقتضى قول القرآن هو أنه لا يحتاج إلى الغير، لا في كونه نيرا بنفسه ولا في إنارته لغيره، لأنه لو كان محتاجاً لمبيّن آخر فإن ذلك المبيّن سيكون هو الأصل، وسيكون القرآن فرعاً وتابعا له، وكون القرآن فرعا لا يتلائم مع كونه نورا..... وكونه تبيانا لكل شيء لا يحتاج إلى الغير في تبيين نفسه[1].

وهذه الدلالة التي بها يتم تقييم النصوص، وكذلك يقيّم بها الإنسان نفسه ومجتمعه، ولعلها هي المقصودة من قوله عليه السلام: (...كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ...)، فالقرآن هو المصباح الذي نكشف ونحس به الأشياء.

كيف نحصل على الدلالة القرآنية:

وهذه الدلالة تحصل باتباع المراحل التالية:

١- معرفة معنى كلمات الآية التي يراد التعرف على دلالتها.

٢- ربط الآية بسياق الآيات التي معها.

٣- ربط الآية بسياق الآيات القرآنية المرتبطة بها في الموضوع.

٤- ربطها بالأحكام العقلية القطعية.

مثلاً آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2]،فهذه الآية لا يمكن أن تتم دلالته بالاقتصار على معاني كلماتها فقط، وإنّما علينا أن نربطها بالآيات التي قبلها، والتي نهت عن ولاية الكفار وقالت ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ

١- تفسير تسنيم، ج١ ص٩٧ ـ ٩٨، عبدالله جوادي آملي.
٢- المائدة: ٥٥.

أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾[١]، وكذلك الآية التي بعدها التي تقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٢]، من الواضح أنّ دلالة هذه الآيات على أن الولاية المقصودة، هي ولاية الحكومة لا المحبّة، وكذلك علينا أن نربطها بالسياق القرآني العام، حيث الآيات التي أوضحت أنّ الله أرسل الأنبياء وأنزل الكتاب لأجل إقامة القسط والعدل، وتطبيق أحكام الله، وأنّ الله لا يظلم مثقال ذرة، إضافة إلى حكم العقل بأنّ الله سبحانه لا ينقض غرضه، لأنّه يستحيل على الحكيم أن يناقض نفسه، بأن يريد شيئاً ثم يأمر بخلافة، أو يسمح بسبب أو وسيلة تؤدي إلى نقض الغرض، فيستحيل أن يسمح بولاية غير الإمام العالم بحكم الله، والذي بولايته وطاعته لا يتحقق العدل والقسط في الأرض، ولا يزول الظلم والجور، ونضيف هذا كله إلى شأن النزول لهذه الآية، فيصبح لدينا دون شك أنّ المقصود بالولاية هو ولاية الإمام المعصوم، العالم العادل، ومصداقها الأكبر والأول هو علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام.

وكذلك في الآيات التي يبدو من ظاهرها أنّها تدل على الجسميّة والمحدودية، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[٣] أو ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾[٤] أو ﴿...يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ...﴾[٥]، فهذه يجب أن ترتبط بالآيات الأخرى التي تبين أنّ الله حاضرٌ وشهيد ومحيط بكل شيء (على كل شيء شهيد) (بكل شيء محيط) (معكم أينما كنتم) (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)، وهذه تنفي المحدودية، كذلك ينبغي أن تُربط

١- المائدة: ٥٢.
٢- المائدة: ٥٦.
٣- طه: ٥.
٤- البقرة: ٢٥٥.
٥- الفتح: ١٠.

هذه الآيات مع الدليل العقلي القطعي، الذي ينفي الجسمية والمحدودية عن الله جل وعلا، لأنها تعني الحاجة إلى الغير، والمحتاج إلى الغير لا يكون إلهاً.

والمثال الآخر؛ الآيات التي يظهر منها أن كل ما يحدث في الوجود فهو مرتبط بالله، على نحو الحصر، ولا دور للإنسان في حصول أي شيء، فهذه الآيات يجب أن تُربط بآيات أمر الإنسان بالعمل وإعداد القوة والجهاد والصبر وتغيير الأنفس، كذلك آيات الثواب والعقاب، وآيات الامتحان والبلاء واختيار الأحسن، التي تدل على أنّ الأمور قد ربطها الله سبحانه باختيار الإنسان، وإنّ التغيير والنصر والبركات الماديّة في الدنيا، وكذلك الثواب والعقاب في الآخرة، معتمد على نوع اختيار الإنسان وعمله، إضافة إلى الدليل العقلي بقبح معاقبة الإنسان على شيء لم يفعله بل فعله غيره.

وهذه الطريقة في معرفة الدلالة القرآنية هي المقصودة من قوله عليه السلام في الخطبة (١١٠): (وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ...).

فهنا أمر بالتعلم والتفقه وإحسان التلاوة، فالتعلم والتفقه يعني الربط بين المعلومات للوصول إلى معلومة جديدة، وإحسان التلاوة ليس المقصود منها القراءة للآيات ومراعاة أحكام التجويد، بل هي حق التلاوة الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

صدق التلاوة وأحسن التلاوة هو جعل الآيات مترابطة يتلو بعضها بعضاً، كي تنتج الإيمان، وتنتج القرآن الذي هو ربيع القلوب، وشفاء الصدور، وفي كلمات الخطبة (١٣٣) قال عليه السلام: (...كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ...) ثم قال عليه السلام: (...وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلى

١- البقرة: ١٢١.

بَعْـضٍ، وَلاَ يَخْتَلِـفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِـفُ بِصَاحِبِـهِ عَـنِ اللهِ...).

فـإذا لم يحصـل هـذا الترابـط والتواصـل بـين الآيـة القرآنيـة وبـين خيـوط النسـيج القـرآني، فـإنّ القـرآن الـذي هـو ربيـع القلـوب وشـفاء الصـدور والمصبـاح الـذي نبـصر بـه... لـن يتحقـق، بـل يحصـل العكـس مـن ذلـك، فالتمسـك بالمتشـابهات، وقطـع الآيـات عـن سـياقاتها القرآنيـة والتاريخيـة، وفصلهـا عـن العقـل القطعـي والتعامـل الانتقائـي، والإيـمان ببعـض والكفـر بالآخـر، حـوَّل القـرآن الكريـم مـن هـدى ونـور وشـفاء، إلى ضـلال وأمـراض وعمـى، ولم يـزد الأمّـــة إلاّ خسـارا.

أهميّـة الدلالة الاجمالية في معرفة الدين:

الدلالـة الإجماليـة المذكـورة هـي التـي ترسـم الهيـكل العـام للإسـلام ومعالمـه الرئيسـية، وهـي دلالـة أساسـية ومصيريـة، وتعطـي للإنسـان فهـماً وبصـيرة، تشخّـص لـه محـددات البنـاء وخارطتـه التـي يجـب عليـه أن يبنـي نفسـه ومجتمعـه وفقـاً لهـا، لذلـك فـإنّ كل مـا يمكـن أن نـراه مـن نصـوص مخالفـة لهـذه الدلالـة القرآنيـة، فهـي مخالفـة للبنـاء القـرآني، ولا يمكـن أن يصـدر مـن النبـي وأهـل البيـت مـا يخالـف البنـاء الإلهـي ويهدمـه.

وحـول هـذا المعنـى يقـول السـيد السيسـتاني حفظـه الله: إن الاعتبـار السـندي على المختـار لا يكفـي في حجيـة الخـبر، بـل لابـد مـن مقايسـة الخـبر بشـواهد الكتـاب والسـنّة مـن جهتـين:

الأولى: أن لا يكـون مضمـون الخـبر مخالفـاً للمعـارف المسـلمة في الإسـلام ممـا ورد في الكتـاب والسـنّة، كأن يكـون هادمـا لمـا بنـاه الإسـلام، أو بانيـاً لمـا هدمـه.

الثانيـة: أن يكـون مضمونـه موافقـاً مـع الكتـاب والسـنّة توافقـاً روحيـاً، بمعنـى أن يتسـانخ مـع المبـادئ الثابتـة مـن الشريعـة مـن خـلال نصوصهـا القطعيـة[1].

١- قاعدة لا ضرر ولا ضرار، السيد السيستاني: التنبيه الثاني ص٢٠١.

ولذلك فإنّ ما يروى أو ينقل لنا من مفاهيم خلاف المعرفة التوحيدية الصحيحة والعقائد السليمة، أو خلاف السعي لإقامة القسط والعدل ومواجهة الظلم والفساد والطاغوت، أو يفهم منها عدم الحاجة إلى العلم والعمل وولاية الولي الصالح، ووحدة الأمّة وقوتها في مقابل الأعداء، فكل ذلك يرمى نحو الجدار، لأنّ النبي وأهل البيت لم يقولوه، ولكن هذه الدلالة على الرغم من أهميتها القصوى فهي غير كافية في معرفة الإسلام، وتحتاج إلى الدلالة التفصيلية القرآنية لأجل معرفة الإسلام لا القرآن.

الدلالة التفصيليّة على الإسلام:

وهي دلالة القرآن على تفاصيل الشريعة وجزئيات الإسلام، وهنا يأتي دور النص النبوي وأحاديث أهل البيت التي هي طريق إلى النص النبوي، والقرآن الكريم يرجعنا في هذه الدلالة، إلى بيان النبي وسيرته، فيقول (القرآن الكريم): ﴿...وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟...﴾[١]، و ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[٣] و ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ...﴾[٤].

١- الحشر: ٧.
٢- النحل: ٤٤.
٣- النساء: ٦٥.
٤- النساء: ٨٣.

وهنــا نرجــع إلى الكلــمات العلويــة التــي تُرشــدنا إلى كيفيــة بنــاء الشــخصية الإســلامية والمجتمــع الــذي يحكــم الإســلام كنظــام كامــل يقــود الحيــاة، ويحقــق الأهــداف العاليــة التــي أوضحهــا القــرآن الكريــم في دلالتــه الكليــة الإجماليــة.

وفي هــذا الصــدد فقــد وردت في نهــج البلاغــة تعليــمات هامــة جــداً وحسّاســة في منهــج بنــاء الشــخصية العلويــة والمجتمــع الولائــي.

يقــول عليه السلام في وصــف أهــل البيــت في الخطبــة (٢٣٩): (...فَإِنَّهُــمْ عَيْــشُ الْعِلْــمِ وَ مَــوْتُ الْجَهْــلِ هُــمُ الَّذِيــنَ يُخْبِرُكُــمْ حُكْمُهُــمْ عَــنْ عِلْمِهِــمْ وَ صَمْتُهُــمْ عَــنْ مَنْطِقِهِــمْ وَ ظَاهِرُهُــمْ عَــنْ بَاطِنِهِــمْ لَا يُخَالِفُــونَ الدِّيــنَ وَ لَا يَخْتَلِفُــونَ فِيــهِ فَهُــوَ بَيْنَهُــمْ شَــاهِدٌ صَــادِقٌ وَ صَامِــتٌ نَاطِــقٌ...) و (...لَا يُخَالِفُــونَ الْحَــقَّ وَ لَا يَخْتَلِفُــونَ فِيــهِ وَ هُــمْ دَعَائِــمُ الْإِسْــلَامِ وَ وَلَائِــجُ الِاعْتِصَــامِ بِهِــمْ عَــادَ الْحَــقُّ إِلَى نِصَابِــهِ وَ انْــزَاحَ الْبَاطِــلُ عَــنْ مُقَامِــهِ...)، إلى أن يقــول:(... عَقَلُــوا الدِّيــنَ عَقْــلَ وِعَايَــةٍ وَ رِعَايَــةٍ لَا عَقْــلَ سَــمَاعٍ وَ رِوَايَــةٍ فَــإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْــمِ كَثِــيرٌ وَ رُعَاتَــهُ قَلِيــلٌ).

وفي الحكمــة (٩٨) قَــالَ عليه السلام: (اعْقِلُــوا الْخَــبَرَ إِذَا سَــمِعْتُمُوهُ عَقْــلَ رِعَايَــةٍ لَا عَقْــلَ رِوَايَــةٍ فَــإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْــمِ كَثِــيرٌ وَ رُعَاتَــهُ قَلِيــلٌ).

وفي الخطبــة (١٨٢) يتــأوّه شــوقاً إلى إخوانــه ويبكــي عليهــم ثُــمَّ قَــالَ عليه السلام: (أَوِّهِ عَلَى إِخْــوَانِيَ الَّذِيــنَ تَلَــوُا الْقُــرْآنَ فَأَحْكَمُــوهُ وَ تَدَبَّــرُوا الْفَــرْضَ فَأَقَامُــوهُ أَحْيَــوُا السُّــنَّةَ وَ أَمَاتُــوا الْبِدْعَــةَ دُعُــوا لِلْجِهَــادِ فَأَجَابُــوا وَ وَثِقُــوا بِالْقَائِــدِ فَاتَّبَعُــوهُ).

وفي الخطبــة (١٢١) يفتقــد عليه السلام هــؤلاء الإخــوان الأعــزاء ويبحــث عنهــم ويقــول: (...أَيْــنَ الْقَــوْمُ الَّذِيــنَ دُعُــوا إِلَى الْإِسْــلَامِ فَقَبِلُــوهُ وَ قَــرَءُوا الْقُــرْآنَ فَأَحْكَمُــوهُ وَ هِيجُــوا إِلَى الْجِهَــادِ فَوَلِهُــوا وَلَــهَ اللِّقَــاحِ إِلَى أَوْلَادِهَــا...).

وفي الخطبــة (١٧٣) يقــول عليه السلام في وصــف مَــن يحمل راية الإســلام الصحيــح فيقول: (...وَ لَا يَحْمِــلُ هَــذَا الْعَلَــمَ إِلَّا أَهْــلُ الْبَــصَرِ وَ الصَّــبْرِ وَ الْعِلْــمِ بِمَوَاضِــعِ الْحَــقِّ...).

ومـن هـذه المجموعـة مـن المصابيـح العلويـة، يمكـن أن نصنـع جهـازا للتنميـة العقليـة نكشـف بـه الإسـلام الحقيقـي، ونفهمـه ونميـزه عـن الإسـلام الخـاوي المزيّـف، ويمكـن ترتيـب وتأليـف هـذا الجهـاز الكاشـف عـن فهـم الإسـلام وفقـاً للمراحـل التاليـة:

١- تـلاوة وتدبّـر النـص القـرآني: وهـذا مـا كنّـا نحتاجـه في معرفـة دلالـة القرآن عـلى القـرآن، ونحتاجـه هنـا بنفـس الدرجـة بـل أكثـر، لأننـا هنـا نحتـاج إلى نصـوص مـن النبـي والعـترة لبيـان الآيـات، والتـلاوة هـي إيجـاد عمليـة ربـط بـين الآيـات وإدخـال جميـع السـياقات الداخليـة والخارجيـة في معرفـة المقصـود، والتدبّـر هـو عـدم الاكتفـاء بالمعـاني المبـاشرة الظاهـرة مـن الآيـات، والانتقـال إلى دبـر الآيـة، أي المعنـى المقصـود مـن وراء هـذه الآيـة بعـد ادخـال جميـع القرائـن والسـياقات بـما في ذلـك سـياق الأهـداف القرآنيـة العليـا، وكذلـك الأدلـة العقليـة القطعيّـة.

٢- البحـث عـن النصوص الروائيّـة التـي تفسر وتبيّـن الآيـات القرآنيـة، وكذلك التـي تبيّـن مفـردات الإسـلام بنحـو مبـاشر، وهـذه النصـوص يجـب أن تكـون معتـبرة مـن الناحيـة السنديّـة، أي أن نطمئـن إلى صحـة ارتباطهـا بمصـدر الشرعيـة وهـم النبـي وأهـل البيـت صلـوات الله عليهـم.

٣- عقلنـة النـص: وهـذا هـو الأمـر الجوهـري في جهـاز فهـم الإسـلام، حيـث يقـول عليه السلام: اعقلـوا الخـبر إذا سـمعتموه عقـل وعايـة ورعايـة لا عقـل سـماع وروايـة، وليـس المقصـود مـن العقلنـة هـو أن العقـل ينتـج حكـماً شرعيـاً بنحـو مسـتقل عـن الـشرع، كلا؛ بـل إن العقـل يقـوم بعمليـة الكشـف عـن الحكـم الشرعـي.

أو إنّـه يقـوم برعايـة النـص وإخضاعـه للكواشـف الدلاليـة، حتـى يسـتخرج منـه الحكـم المقصـود الـذي يشـكّل مفـردة في منظومـة الإسـلام، ولبنـة في بنـاء النظـام

الإسـلامي، وأول عمـل ينبغـي تنفيـذه في عمليـة العقلنـة، هـو عـدم تعـارض النص مـع الـدلالات القرآنيـة الإجماليـة المذكـورة، وهـي الأهـداف العاليـة للقـرآن.

وبعـد أن يتـم التأكـد مـن عـدم المخالفـة، يتـم البحـث عـن المُـعارض لـه مـن النصـوص، فـإذا وُجـدت أخبـار معارضـة، فأمـا أن يكـون التعـارض تباينيـاً، أي أن أحدهـا يقـول إفعـل والآخـر يقـول لا تفعـل، فهنـا إمـا أن يتسـاقط الخـبران، أو يتـم الجمـع بينهـما.

وإذا كان التعـارض عـلى نحـو غـير تباينـي فهنـا يتـم الجمـع بحمـل العـام عـلى الخـاص، والمطلـق عـلى المقيّـد، والمجمـل عـلى المبـيّن، وهنـا أصبـح لدينـا نـص اجتـاز مرحلتـين مـن الغربلـة، الأولى عـدم مخالفـة القـرآن، والثانيـة عـدم التعارض، وهنـاك مرحلـة أخـرى وهـي كونـه قـد صـدر لأجـل حكـم شرعـي عـام، لا لأجـل قضيـة شـخصية في مـورد معـين ومحـدود، ولا لأجـل مراعـاة ظـروف أمنيـة اقتضـت صـدور هـذا الحكـم.

وبعـد تجـاوز هـذه المرحلـة مـن الرعايـة للحديـث، تـأتي مرحلـة عقلنـة مهمـة للنصـوص، وهـي وضـع النصـوص في موضعهـا المناسـب بالنسـبة إلى كل الشريعـة وأهدافهـا، وهـذا هـو روح العقلنـة والرعايـة والوعايـة والدرايـة، التـي أمـر بـه الأمـير والأئمـة عليهـم السـلام في التعامـل مـع الحديـث.

وهـو عليه السلام عندمـا يصـف العاقـل يقـول في الحكمـة (٢٣٥): (...هُـوَ الَّـذِي يَضَـعُ الـشَّيْءَ مَوَاضِعَـهُ...)، فقيـل لـه صـف لنـا الجاهـل، فقـال عليه السلام.. قـد فعلـت..

ولا شـك أن النـص الـذي يقصـد بـه بيـان حكـم إسـلامي هـو مـن أهم الأشـياء، ويجـب أن يوضـع في موضعـه المناسـب، وموضعـه المناسـب هـو أن يرتبـط مع سـائر أجـزاء الشريعـة، حتـى تكـون الشريعـة منظومـة متكاملـة مترابطـة، تحقـق الأهداف التـي أرادهـا الله سـبحانه منهـا،

وإذا أردنا أن نشبّه المعقول بالمحسوس، فإن مثلَ النص والرواية، مثل قطعة الغيار التي تشكل جزء من جهاز أو ماكنة معينة، فعندما أريد أن استخدمها الاستخدام الصحيح، فعليّ أولا أن أتأكّد من سلامتها وصلاحها، وإنها متناسبة مع الماكنة، ثم بعد ذلك أضعها في المكان المناسب لها، حتى ترتبط بسائر أجزاء الماكنة، ويتحقق بها عمل الماكنة وهدفها.

فلو قرأت خبراً أو رواية أو سمعتها، تأمرني بعمل معيّن كصلاة مستحبة أو دعاء أو زيارة أو سلوك معين، فهنا عليّ أن أعقل هذا الخبر وأضعه في موضعه المناسب إلى كل الدين، وبدون هذه العقلنة فإن المقصود من الحديث لن يقع، وقد يحصل العكس أحياناً.

فلو أردتُ أن أؤدي روايات النوافل والأدعية والأذكار فهنا لابد أن أفهم أن المقصود من هذه الأعمال المستحبة هو صناعة الإنسان الكامل المتقرب إلى الله، كي يظهر صفات الله وأولها الرحمة والرأفة والعدل وإعمار الأرض وتحقيق عزّة وكرامة المجتمع.

فالشعائر والعبادات يجب أن تكون وحدات بناء لمجتمع العدالة والرحمة والعزّة والدولة الكريمة، التي هي الأهداف العالية للشريعة التي أكّد عليها القرآن الكريم، أمّا إذا لم توضع هذه الأحاديث في موضعها المناسب المرتبط بالشريعة وأهدافها، فسوف تكون هي بنفسها مقصودة بمعزل عن أهداف الشريعة، وفي هذه الحالة لربما تؤدي مثل هذه المناسك والشعائر إلى تربية أناس منعزلين عن الحياة، وعالة على المجتمع، وعقبة في طريق التطور والعلم والعمل والإعمار، ولربما يقومون بأداء هذه الشعائر على حساب مصالح الناس ونظمهم وراحتهم وقيمهم، وبالنتيجة لم يحصل المقصود من أمر الشارع بهذه العبادات، والسبب هو التعامل مع النصوص تعامل سماع ورواية لا تعامل وعاية ورعاية.

ومــن هنــا يتضــح أنّــه لابــد مــن ربــط مضامــين النصــوص بالأهــداف العليــا للشريعــة، عــلى مســتوى اســتنباط الأحــكام وعــلى مســتوى ثقافــة النــاس، وعــلى مســتوى الأداء والتطبيــق، وبذلــك نتخلــص مــن ظاهــرة التجزئــة والانتقائيــة واللاهدفيــة التــي تــؤدي إلى تســطيح الديــن وتفريغــه مــن محتــواه

٤- عصرنــة النــص: بعــض النصــوص ناظــرة إلى التطبيقــات التــي تحقــق الهــدف في عــصر النــص، والآن وبعــد أن أصبحــت تلــك المصاديــق لا تحقــق الهــدف، فهنــا لابــد أن نحتفــظ بالمفهــوم ونغيّــر المصــداق إلى مــا يتحقــق بــه الهــدف.

مثالــه: قولــه تعــالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾[1]، فهــل نســتطيع اليــوم أن نُرهــب أعــداء الله وأعداءنــا بالخيــل؟ أم إننــا يجــب أن نعــدّ جميــع مــا أمكننــا مــن الأســلحة المتطــورة، كالطائــرات والصواريــخ ووســائل الدفــاع الإلكترونية الذكيّــة وأمثــال ذلــك...

ومثالــه الآخــر مــا قالــه أمــير المؤمنــين عليه السلام في الحكمــة (١١٧) عندمــا ســئل عــن قــول الرســول صلى الله عليه وآله (...غــير الشــيب ولا تتشبّــهوا باليهــود) فقــال عليه السلام: (إنّــما قال صلى الله عليه وآله ذلــك والدّيــن قُــلٌّ، فأمّــا الآن وقــد اتســع نطاقــه، وضرب بجرانــه فامــرؤ ومــا أختــار، وهــذه الروايــة تــدل عــلى فائدتــين:

الأولى: إن الأمــر بالــشيء يبقــى واجبــاً أو فعــالاً مــادام ملاكــه القطعــي موجــوداً، فــإذا زال المــلاك بتغــير الزمــان، يــزول وجــوب الأمــر، ويصــير مباحــاً، والمــلاك الــذي اســتدعى الأمــر بتغيــير الشــيب هــو قلــة المســلمين، فــكان المطلــوب أن لا يظهــروا في ســن الشــيخوخة، ويســتضعفهم العــدو، وعليهــم أن يظهــروا بمظهــر الشــباب والكهولــة كــي يهابهــم العــدو.

١- الأنفال: ٦٠.

الثانية: إنّ إظهار الأمة الإسلامية في موضع القوة والهيبة، أمر يستحق أن يحكم الولي والحاكم، بتغيير المباح وجعله واجباً، فلو كان الرسول ﷺ حيّاً اليوم وهو يرى أمته ضعيفة متفرقة، قد مزقت نفسَها بنفسِها، وفقدت هيبتها وأضاعت عزّتها ووحدتها بيدها، فماذا سيوجب عليها لإعادة هويتها الضائعة؟!

عدم الفهم مشكلة الأمّة:

وبعد أن تعرفنا على النهج العلوي لفهم الدين، أتضح لنا أنّ مشكلة الأمة مع الدين، والدين مع الأمة، هي أنّ الأمة تؤمن بدين وتعمل به ولكنه إيمان وعمل بلا فهم.

أو إنّها تعمل بدين لا تفهمه، ولذلك فإنها في كثير من الأحيان تبتعد عن الدين باسم الدين، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال في الخطبة (١٥٤): (...وَالنّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عِنْدَهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بَغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ!...).

أنظروا إلى الولي الحق وإمام الولاية الإلهيّة، يدعونا إلى أن تكون الخطوة الأولى في حياتنا هي العلم والمعرفة، وفهم طريق الدين الصحيح، وإلا فسوف نبتعد عن أهداف الدين التي هي في الحقيقة أهدافنا.

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة العالية، المفكّر الشهيد محمد باقر الصدر في ستينات القرن الماضي وكتب قائلاً: إن شروط التغيير والنهضة ثلاثة هي:

وجود مبدأ ـــ فهم المبدأ ـــ عمل بالمبدأ، وإنّ الأمة لديها إيمان بالمبدأ وتعمل

بـه، ولكنهـا لا تفهـم المبـدأ، ولذلـك ابتليـت بالتخلـف والتمـزق، وابتعـدت عـن الأهـداف[١].

إنّ أمـير المؤمنـين يبحـث عـن أتبـاع وشـيعة يتمسـكون بديـن يحقـق أهدافـه، والمسـلم والمؤمـن والشـيعي هـو الـذي يحقـق أهـداف الإسـلام بعملـه الدينـي.

لا يريـد عـلي سـلام الله عليـه أمّـة كثـيرة الصـلاة والصيـام والحـج والـزكاة والشـعائر وتـلاوة القـرآن والمسـاجد والجماعـة والجمعـات، ولكنهـا لا تحقـق أهـداف القـرآن في إقامـة القسـط والعـدل، وإظهـار أخـلاق الله سـبحانه وصفاتـه، وإعـمار الأرض بالرحمـة والعلـم والعمـل الصالـح، وتطهـير الأرض مـن الطاغـوت والطغـاة والظلـم والفسـاد.

وقـد حـذر أمـير المؤمنـين عليه السلام مـن هـذه الأمّـة التـي يصـحّ أن نعبّـر عنهـا أنّـها أمّـة الإسـلام المقلـوب، بعـد أن انقلبـت عـلى أهدافـه، وبلـغ بهـا الأمـر أن راحـت تحـرك مركبـة الإسـلام لتحقيـق أهـداف أعـداء الإسـلام، وضاعـت لديهـا المقاييـس والموازيـن، أُنظـر إلى الاسـتشراف العلـوي لهـذه الأمّـة، حتـى كأنّـه ينظـر إليهـا بعينـه الإلهيّـة، ويصفهـا لنـا، ويقـول في الخطبـة (١٤٧): (وَإِنَّـهُ سَـيَأْتِي عَلَيْكُـمْ مِـنْ بَعْـدِي زَمَـانٌ لَيْـسَ فِيـهِ شَيْءٌ أَخْفَـى مِـنَ الْحَـقِّ، وَلاَ أَظْهَـرَ مِـنَ الْبَاطِـلِ، وَلاَ أَكْثَـرَ مِـنَ الْكَـذِبِ عَـلَى الله وَرَسُـولِهِ، وَلَيْـسَ عِنْـدَ أَهْـلِ ذلِـكَ الزَّمَـانِ سِـلْعَةٌ أَبْـوَرَ مِـنَ الْكِتَـابِ إِذَا تُـلِيَ حَـقَّ تِلاَوَتِـهِ، وَلاَ أَنْفَـقَ مِنْـهُ إِذَا حُـرِّفَ عَـنْ مَوَاضِعِـهِ، وَلاَ فِي الْبِـلاَدِ شَيءٌ أَنْكَـرَ مِـنَ الْمَعْـرُوفِ، وَلاَ أَعْـرَفَ مِـنَ الْمُنكَـرِ! فَقَـدْ نَبَـذَ الْكِتَـابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَـاهُ حَفَظَتُـهُ; فَالْكِتَـابُ يَوْمَئِـذٍ وَأَهْلُـهُ طَرِيـدَانِ مَنْفِيَّـانِ، وَصَاحِبَـانِ مُصْطَحِبَـانِ فِي طَرِيـقٍ وَاحِـدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُـؤْوٍ; فَالْكِتَـابُ وَأَهْلُـهُ فِي ذلِـكَ الزَّمَـانِ فِي النَّـاسِ وَلَيْسَـا فِيهِـمْ، وَمَعَهُـمْ وَلَيْسَـا مَعَهُـمْ! لِأَنَّ الضَّلاَلَـةَ لاَ تُوَافِـقُ الْهُـدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَـا. فَاجْتَمَـعَ الْقَوْمُ عَـلَى الْفُرْقَـةِ، وَافْتَرَقُـوا عَـنِ الْجَمَاعَـةِ، كَأَنَّهُـمْ أَئِمَّـةُ الْكِتَـابِ وَلَيْـسَ الْكِتَـابُ إِمَامَهُـمْ،

١- الاسلام يقود الحياة رسالتنا: ص١٠.

فَلَـمْ يَبْـقَ عِنْدَهُـمْ مِنْـهُ إِلاَّ اسْـمُهُ، وَلاَ يَعْرِفُـونَ إِلاَّ خَطَّـهُ وَزَبْـرَهُ...).

وهـل بقـي مـن هـذه المواصفـات شيء لم ينطبـق عـلى هـذه الأمّـة؟ أليسـت هـي أمّـة قـد غرقـت إلى أم رأسـها في التناقـض والازدواجيّـة وانقسـام الشخصيّـة في علاقتهـا بدينهـا؟

ألسـنا نصـلي جماعـات وجمعـات في المسـاجد والمحاريـب؟ ونمـلأ الفضـاء بالتهليـل والتحميـد؟ ثـم نخـرج مـن المسـاجد فـلا نـترك إلهـاً غـير الله إلاّ ونعبـده، ولا طاغـوت إلاّ ونتبعـه ونسـبح بحمـده.

ألسـنا نجتمـع للمسـابقات عـلى قـراءة القـرآن وتجويـده، ثـم نخـرج لنتسـابق عـلى خيانـة القـرآن وتمزيـق أهدافـه وقتـل أمّـته، أُنظـر وتأمـل في سر هـذا الانقلاب عـلى الديـن والبعـد عـن أهدافـه، وهـو أنهـم لا يريـدون قرآنـاً يُـتلى حـقّ تلاوتـه، ويريـدون إسـلاماً يحـرّف عـن مواضعـه، أي أنهـم يريـدون قرآنـاً مقطـع الأوصـال، وإسـلاماً لا يوضـع في مواضعـه التـي تحقـق الأهـداف.

الفهم؛ طريق لإحياء الدين وإقامته:

وعـلى العكـس مـن تلـك الأمّـة، هنـاك الأمـة التـي يبحـث عنهـا عـلي عليه السلام ميـزان الحـق الإلهـي، ويسمّـيهم إخوانـه، وهـم الشـيعة الحقيقيـون، ويقـول عليه السلام في الخطبـة (١٨٢): (...أَوِّهِ عَـلَى إِخْـوَانِي الَّذِيـنَ تَلَـوُا الْقُـرْآنَ فَأَحْكَمُـوهُ، وَتَدَبَّـرُوا الْفَـرْضَ فَأَقَامُـوهُ، أَحْيَـوُا السُّـنَّةَ، وَأَمَاتُـوا الْبِدْعَـةَ، دُعُـوا لِلْجِهَـادِ فَأَجَابُـوا، وَوَثِقُـوا بِالْقَائِـدِ فَاتَّبَعُـوا....).

ويقـول في الخطبـة (١٢١): (...أَيْـنَ الْقَـوْمُ الَّذِيـنَ دُعُـوا إِلَى الْإِسْـلاَمِ فَقَبِلُـوهُ؟ وَقَـرَأُوا الْقُـرْآنَ فَأَحْكَمُـوهُ؟ وَهِيجُـوا إِلى الْجِهَـادِ فَوَلِهُـوا وَلَـهَ اللِّقَـاحِ إِلَى أَوْلاَدِهَـا، وَسَـلَبُوا السُّـيُوفَ أَغْمَادَهَـا، وَأَخَـذُوا بِأَطْـرَافِ الْأَرْضِ زَحْفـاً وَصَفًّـا صَفًّـا؟! بَعْـضٌ هَلَـكَ، وَبَعْـضٌ نَجَـا. لاَ يُبَـشَّرُونَ بِالْأَحْيَـاءِ، وَلاَ يُعَـزَّوْنَ عَـنِ الْمَوْتَـى ، مُرْهُ الْعُيُـونِ

مِـنَ الْبُـكَاءِ، خُمْـصُ الْبُطُونِ مِـنَ الصِّيَـامِ، ذُبُلُ الشِّـفَاهِ مِـنَ الدُّعَـاءِ، صُفْـرُ الْأَلْـوَانِ مِـنَ السَّـهَرِ، عَـلَى وُجُوهِهِـمْ غَـبَرَةُ الْخَاشِـعِينَ، أُولئِـكَ إِخْـوَانِي الذَّاهِبُـونَ، فَحَـقَّ لَنَـا أَنْ نَظْمَـأَ إِلَيْهِـمْ وَنَعَـضَّ الْأَيْـدِيَ عَـلَى فِرَاقِهِـمْ!...).

في هـذه الكلـمات العلويّـة التـي تصـف المجتمـع العلـوي الولائـي الـذي يشـتاق إليـه أمـير المؤمنـين ﷺ، ويظمـأ إليـه، ويعـضّ الأيـدي عـلى فـراق أعضـاء هـذا المجتمـع وهـم إخـوان عـليّ ويتـأوّه عليهـم، نـرى ثـلاث مواصفـات أساسـية، اثنتـان منهـما يقومـان مقـام السـبب والأصـل، واثنـان أخريـان بمنزلـة النتيجـة والثمـرة.

الأولى: إحـكام القـرآن، أي أنهـم عندمـا تَـلَـو القـرآن جـاءوا ليقـرأوا كتابـاً أنـزل لأجـل أهـداف وأغـراض يحققهـا، وإنّ القـرآن جـاء بمـشروع وهـو خارطـة طريـق، (كاتولـوج) لتنفيـذ هـذا المـشروع الإلهـي، فقـرءوه بالكامـل وأحكمـوا الربـط والتنسـيق بـين جميـع حلقاتـه، ولم يبعّـضوا فيـما بينهـا، ولم يجعلـوا القـرآن عضـين، ولم يؤمنـوا ببعـض الكتـاب ويكفـروا ببعـض، ولم يتبعـوا المتشـابه ويتركـوا المحكـم لتحقيـق أغراضهـم ومآربهـم ومصالحهـم، بـل إنهـم أحكمـوا كل القـرآن ليحقـق أغـراض وأهـداف القـرآن.

الثانيـة: تدبُّـر الفـرض وإقامتـه: التدبـر هـو معرفـة مـا في دبـر الـشيء ومـا وراءه، وإخـوان عـليّ وشـيعته لا يأتـون إلى العبـادات ليـؤدوا حـركات رمزيـة، وتمتـمات لسـانية، وأعـمالا اسـتعراضية، وعـادات اجتماعيـة، وإنـما كانـوا ينظـرون إلى مـا وراء هـذه العبـادات مـن أهـداف، فالصـلاة معاهـدة يوميـة متجـددة بـين الإنسـان ومصـدر الخـير والكـمال والفضيلـة في هـذا الكـون، لأجـل ترسـيخ عقيـدة الارتباط بهـذا المصـدر، والاسـتعانة بـه لأجـل مـلأ الأرض بالمعـروف والفضائـل الإنسـانية، وتطهيرهـا مـن الفحشـاء والمنكـر والظلـم والرذائـل، والصيـام دورة رياضيـة مـن العيـار الثقيـل، لتدريـب الإنسـان عـلى السـيطرة عـلى الشـهوات والغرائـز، وتفعيـل

الشعور الإنساني، وفتح منافذ النفس الإنسانية لتتجلّى فيها الصفات الإلهيّة، والحج برنامج عالمي سنوي لجمع الناس حول مركز التوحيد كي يكونوا جميعاً يداً واحدة تحطم أصنام القوة والمال التي تسلب الربوبية من الله وتنسبُها لغيره، وترويض النفس على الابتعاد عن مظاهر الترف والبهرجة، وتنبيه الأمّة إلى أساليب الخداع والتمويه، التي يقوم بها شياطين الأرض لتفريق هذه الأمة، وإضعافها وتجريدها من عوامل وحدتها وقوتها وعزّتها.

والزكاة ليس عملاً لتهدئة الضمير، ونشوة الوجدان الإنساني بتوزيع علب الطعام على الفقراء، وإنما هي نظام تكافل اجتماعي، يجتث الفقر والمسكنة، ويكرم الإنسان الذي لا يستطيع لأسباب ما أن يحصل على حياة كريمة بنفسه، فهي مشروع إكرام للفقراء والمحتاجين، وليست إطعاماً فحسب.

وفي المجتمع العلوي تؤدى هذه العبادات والفرائض لأجل ما وراءها من الأهداف، الصلاة لا تؤدّى لأجل الصلاة، والصيام لا لأجل الصيام، والحج لا لأجل مناسكه وحركاته، والزكاة كذلك، وإنما يتم إقامة هذه الفرائض، أي جعلها قائمة وواقفة ومرفوعة الرأس، لأجل أن تحقق أغراضها، فهناك فروض وعبادات نائمة وهياكل هامدة لا تحرك ساكناً ولا تترك أثراً، لا على الفرد ولا على المجتمع، وهناك فروض وعبادات قائمة حيّة متحركة تحقق أهدافها التي من أجلها فرضها الله علينا، ومجتمع ولاية عليّ عليه السلام هو مجتمع الفرائض القائمة لا النائمة.

الثالثة: الوله إلى الجهاد: ومن أحكم تلاوة القرآن، ونظر إلى آياته نظرة مَن يرى الله سبحانه متجليّاً ظاهراً فيها، وتدبّر فرائض الشريعة، فرآها كؤوساً وأكواباً وقوارير ينهل بها الإنسان من زلال النعيم الأبدي.

ومن نال هذه الدرجة من الرؤية والمعرفة، فإنّ درجات شعوره ورغباته

سـوف تعلـو وتسـمو، فيبحـث عـن ذرى الحيـاة، وهـي الجهـاد والصـبر والمقاومـة، فيكـون لهـا ولهَـه وهياجـه، وفيهـا أنسـه ولذتـه ونشـوته، ويتنفّـر مـن وديـان الدعة والراحـة والخمـول، ويراهـا حرمانـاً وخيبـة.

الرابعـة: الثقـة بالقائـد وأتباعـه: مَـن أحكـمَ القـرآن وتدبّـر الفـرض، فقـد عـرف المصـدر وشخّـص الهـدف وأبـصر الطريـق نحـو تحقيـق الهـدف، وهنـا سـوف يتبيّـن لـه القائـد المرتبـط بالمصـدر، كـي يوصـل الأمّـة نحـو الهـدف، القائـد الـذي يعـرف المصـدر وهـو الله سـبحانه، ويُظهـر أخلاقـه وصفاتـه في سـيرته وسـلوكه، ويتفاعـل مـع الهـدف، وتـذوب جميـع معـالم شخصيّـته وهمومـه وهمّـته ومقاييسـه وموازينـه، وحبـه وبغضـه في إيصـال الأمّـة إلى الهـدف، حتـى يصبـح القائـد بنفسـه طريقـاً، ويتحـد السّـالك مـع المسـلك، فهنـا فـإن إخـوان عـليّ عليه السلام يضعـون أيديهـم بأيـدي هـذا القائـد، ويثقـون بـه ويتبعونـه اتبـاع الطاعـة والتسـليم الكامـل، ولكنها ليسـت طاعـة عميـاء، وإنـما هـي طاعـة وعـي وبصـيرة ومعرفـة، وَثَـقوا بالقائـد فاتبعـوه، ووَثَـقوا أنّـه مـن الله وإلى الله، ذاب هـو في طريـق الله، فـلا رأي ولا هـوى ولا شرط ولا غايـة لـه سـوى الله، فاتبعـوه وأطاعـوه، وألغـوا جميـع الآراء والأهـواء والـشروط والغايـات سـوى هـدى الله وهدفـه وغايتـه، والقائـد عندهـا يكـون هـو الطريـق إلى الله سـبحانه، فهـم معـه في الحـرب وهـم معـه في السـلم، وهـم معـه في النـصر والغنائـم وهـم معـه في الانكسـار والهزائـم، حيـث إن مفهـوم النـصر لديهـم هـو نيـل رضـا الله بطاعـة القائـد الإلهـي.

الباب الثاني
موانع التفكير

الفصل الأول

موانع العقل النظري:

التفكير حياة العقل، والعقل متى ما كان حيّاً منتجاً للعلم الصحيح، فإنّه سوف يؤسس للحياة الصحيحة، لأن الحياة شعور وإرادة، والشعور ينتجه العلم، والعلم ينتجه الفكر، وقد عرفنا في الفصول السابقة كيف أن تنمية العقل تؤدي إلى تشخيص الميزان الصحيح لمعرفة مصدر الوجود وهو الله، ومعرفة النفس وهدفها وهو بلوغ السعادة الحقيقية، ثم تشخيص الطريق نحو بلوغ النفس هدفها، وهو معرفة الدين الصحيح، الذي بتحقق بالارتباط بمصدر الكمال المطلق، الذي بسلوكه يصنع الإنسان نفسه ومجتمعه الإنساني الولائي الإلهي.

وقد رأينا أن مفاتيح المعرفة والتشخيص كلها بيد العقل، وعملية تشغيل مصنع المفاتيح هي عملية التفكير، وعرفنا أن تجميد وتحريف عملية التفكير والعقلنة أدّت إلى ضياع هويّة الأمة، ضيّعنا معرفة الله وضيّعنا أنفسنا وهدفنا، وضيّعنا ديننا الذي هو سبيل نجاتنا، وما عسى أن يوصف إنسان لا يعي مصدره ولا نفسه ولا هدفه ولا طريقه؟

لا أعتقد أنّ هناك وصفاً أدق من توصيف أمير المعرفة، وباب مدينة العلم والحكمة، عليّ عليه السلام

عندما قال لكميل في الحكمة (١٤٧): (...النَّاسُ ثَلَاثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَ مُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَ هَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَ لَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ...)

هذا هو حال الأمة التي لا تتحرك على سبيل نجاة، أمّة همج رعاع، تصفق لنداء الشرق يوماً، وترقص لنداء الغرب في يوم آخر، وكل مَن أتقن فن الخداع والتمويه والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فإنه يركب ظهرها

ويحلب ضرعها ويمسك بزمامها، ويجعلها تعادي أوليائها وتوالي أعدائها، وتحطم أسرتها ومجتمعها وعوامل عزتها وقوتها، والسبب في ذلك أنهم لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

الأمّة الفاقدة للفكر والعلم والمعرفة، أمة بلا هدف، وإذا كانت بلا هدف كانت بلا طريق، بل يرسم طريقها كل مَن يخدعها، ويخدعها ويقودها من لوّحَ لها بلقمة اليوم حتى وإن كان ذابحاً لها غداً، وقد وصفها أمير المؤمنين بدقّة بالغة في الخطبة (١٧٥) عندما قال عليه السلام: (أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ وَ التَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ وَ إِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ وَ مَشْرَبٍ دَوِيٍّ وَ إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا وَ شِبَعَهَا أَمْرَهَا...).

نعم هكذا تكون الأمة، إذا انعدم الفكر بموت العقل، فينعدم الشعور، ولا يبقى لديها إلا شعور الساعة واللحظة، شعور تصنعه الأكلة والنزوة والخدعة، ويتحدد بحدودها، ويتحرك في مسارها.

وكم هو توصيف أنيق وعميق لحال هذه الأمة، عندما يقول إنهم تاركون خيرهم وعزتهم وكرامتهم ليأخذها منهم غيرهم، عن الله ذاهبون، إلى أعدائهم راغبون، كالغنم أو الإبل التي تساق نحو الذبح عندما يخدعها ذابحها بالعلف، فتَعْدوا إليه مسرعة غافلة عما يراد بها، وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن إثارة العقل وتنميته ليصنع البصيرة والوعي ويشخص المبدأ والهدف والطريق والقائد، وبقي علينا أن نبيّن موانع وعقبات عملية التفكير، لأن العقل لا يتحرك إلاّ من بعد أن يتحرر، ولا ينمو إلاّ من بعد أن يكون سالماً من الأمراض والآفات، وهذا موضوع مهم وحساس ومصيري لإنقاذ فكرنا وثقافتنا الإسلامية، ولا سيما شعوبنا العربية خاصة، فنتوكل على الله الرحيم الكريم ونقول: إن أهم موانع التفكير هي:

الأول: غلبة الحس والخيال على العقل:

وهـذه مشـكلة كبـيرة في التفكـير، ترتبـط بنظريـة المعرفـة وكيفيـة التعـرف عـلى الأشـياء، ومـن أجـل التعـرف عـلى هـذه المشـكلة نحتـاج إلى مقدمـة مختـصرة حـول نظريـة المعرفـة.

أ: النظرية الماديّـة في المعرفة:

إنّ مصـدر معرفـة الأشـياء هـو الحـس، ومـا ينتـج عـن الحـس مـن تصـورات في الخيـال، وأمـا العقـل فـلا يقـوم إلاّ بالتركيـب والتجريـد لهـذه الصـور الحسيّـة، وإنتـاج معقـولات مـن الصـور الحسـيّة المنطبعـة في العقـل، فـلا يوجـد تصـورات غـير مـا ينتـج مـن الحـس، كذلـك لا يوجـد تصديقـات غـير مـا نـراه بالحـواس، فـما نـراه مـن مجـيء بعـض الأشـياء بعـد الأخـرى مـا هـو إلاّ ترتيـب بـين الأشـياء، وليـس هنـاك علاقـة واقعيـة بـين الأشـياء، أسـمها العليّـة والسببيّـة، هـذا مـا قالـه أصحـاب نظريـة الحـس والتجربـة، وعـلى رأسـهم (جـون لـوك) و(دافيـد هيـوم).

ومـن الواضـح أن مثـل هـذه النظريـة لا يمكـن أن تنتـج علـماً ومعرفـة، لأن المعرفـة إذا اقتـصرت عـلى الصـور الحسيّـة، والعقـل إذا لم يكـن إلاّ محـلاً لانطبـاع الصـور المحسوسـة، فهـذه الصـور مبعثـرة ومفككـة ولا يمكـن أن تنتـج لنـا علـماً واسـعاً وثابتـاً.

ولذلـك انتبـه (إيمانوئيـل كانـت) إلى أن هـذه النظريـة تقـضي عـلى العلـم، لذلـك قـال بـأنّ العقـل ينظـم الأحاسـيس المبعثـرة، وينتـج منهـا علـماً، فالمحسوسـات في حالـة مـن الفـوضى والكثـرة والازدحـام، وإنّ العقـل مثـل الرافعـة التـي ترفـع المعرفـة الإدراكيّـة للأشـياء إلى معرفـة فكريّـة ذات علاقـات وسـياق وقوانـين، وسـمى هـذه الرافعـات بالمقـولات التـي هـي أدوات العقـل التـي تحـول التجربـة إلى علـم، فالعلـم هـو المعرفـة المنظمـة التـي تتبلـور في قوالـب المقـولات، فالمقولات

هـي أداة الفكـر وهـي التـي تنظـم العـالم، أنظـر قصـة الفلسـفة[١].

ومـا قـام بـه (كانـت) هـو أنـه رفـع العقـل مـن مجـرد قطعـة جامـدة تشـكلها التجربـة الحسيّـة، إلى عقـل ينتـج العلـم بنفسـه، مـن تنظيـم المحسوسـات في قوالبـه وتحويلهـا إلى علـم، ويقـول كانـت بـأنّ المحسوسـات بـدون المقـولات عميـاء، والمقـولات بـدون المحسوسـات قوالـب فارغـة، وإنّ تعاونهـما معـاً هـو الـذي يبنـي عـالم معرفتنـا، وهـذه المعرفـة خاصـة بالظواهـر التـي تدخـل القوالـب وتتحـول إلى علـم، أمـا الجواهـر والحقائـق ومـا وراء الظواهـر، فـلا طريـق لنـا إلى معرفتهـا، فالمعرفـة تتبـع الـذات وهـي نسـبيه غـير مطلقـة، فـلا توجـد حقيقـة مطلقـة، والذي يتجـاوز عـالم الظواهـر فلـن يتوصـل إلى نتائـج يقينيّـة[٢].

هـذه أهـم النظريـات الماديـة في المعرفـة، وهـي أمـا أن تحـصر المعرفة بالمحسوسـات والتجريبيـات التـي تبقـى مفككـة غـير مترابطـة، فـلا تنتـج علـماً ومعرفـة، أو هـي ذاتيـة لا تكشـف لنـا الحقائـق الخارجيـة، إلاّ في حـدود المحسوسـات وبنحـو تابـع لـذات العالِـم لا لواقـع المعلومات.

ب: النظرية الإلهيّـة في المعرفة:

أمـا الفلسـفة الإلهيـة التـي تنظـر إلى العقـل بأنّـه وجـود مجـرد أعـلى مـن المـادة، فـترى أن الصـور التـي تنعكـس عـبر الحـس إلى الخيـال، تذهـب إلى العقـل بنحـو أوسـع، فالأشـياء نفسـها الموجـودة في عـالم الخـارج يراهـا العقـل بنفسـها بنحـو أوسـع دون إضافـة شيء إليهـا، فالمعقـول الأول الـذي يدركـه الإنسـان مـن الاتصـال المبـاشر بالأشـياء، يتحـول في الذهـن إلى معقـول ثانـوي، والمعقـولات الثانويـة أوسـع مـن المعقـولات الأوليـة، وهـي كاشـفة عـن الخـارج وهـي أسـاس

١- قصة الفلسفة ويل دورانت: ص٣٤١.
٢- أنظر كتاب في صحبة الفلاسفة، روبرت تسيمر، ترجمة ــ د. عبد الله أبو دهشة ـ دار الحكمة/ لندن: ص١٣٤.

العلــم والمعرفــة.

وحول هذا المعنى يقول المفكر الشهيد مطهري:

(والأمـر المهـم والأسـاس الـذي جعـل المعقـولات الثانيـة أدوات لمعرفـة الخـارج هــو: أن المعقــولات الثانيــة هــي حــالات وصفــات نفــس المعقــولات الأوليــة، وليســت أمــوراً مســتقلة عنهــا، فالمعقــولات الأوليــة عندمــا تــأتي إلى الذهــن لا تتبـدل ولا تتغـير، بـل وجودهـا يتسـع ويترقـى، مثـلاً هـذا الإنسـان الخارجـي لـه وجـود مـادي، ماهيـة هـذا الوجـود المـادي نفسـها تـأتي إلى الذهـن بوجـود حسّي، أي بوجـود أوسـع، وبعـد ذلـك نفـس هـذه الماهيـة تـأتي إلى الخيـال بنحـو أوسـع، ثـم تذهـب إلى العقـل بسـعة أكـبر، وهـذه الماهيّــة الموجـودة بوجـود أوسـع، نطلـق عليهـا الـكلي، وكليّــتها بسـعة وجودهـا، فهـذه الكليّــة في الحقيقـة إنـما وسّـعت دائــرة نظرنــا للإنســان نفســه، ولم تــأت بعنــصر آخــر مســتقل غــير الإنســان الخارجـي، فعندمـا نقـول: كلّي الإنسـان في العقـل، هـذا الـكلّي ليـس آمـراً آخـر غـير الإنسـان الخـارج، ويختلـط مـع الإنسـان الخارجـي أو الحـسي وينتـج معرفـة مختلطـة مكونـة مـن عنصريـن خارجـي وذهنـي، كـما يقـول (كانـت)، إنـما الـكلي هـو نفـس الوجـود الخارجـي يحصـل في الذهـن بوجـود أوسـع وبدرجـة أرقـى، إذ إن مقـام النفـس ومقـام الـروح أعـلى مـن مقـام المـادة، فـما نـراه في مقـام العقـل ليـس شـيئين إنـما هـو شيء واحـد، وهـو الخـارج بزاويـة نظـر أوسـع[1].

ويقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر في جواب (كانت):

وحســب نظريــة كانــت فالعليّــة هــي مجــرد رابــط وقالــب ينظــم المعلومــات الحسـية ويربطهـا في الذهـن، وليسـت العليـة كاشـف عـن الارتبـاط الواقعـي لمـا وراء الذهــن، بــل هــي إطــار ذهنــي لتنظيــم الأشــياء.

١- مجموعة آثار للشهيد مطهري: ج١٠: ص٢٧٣.

ويترتب على نظرية (كانت) أن المعارف والحقائق في العلوم الطبيعية نسبية دائماً، لأنها تابعة للروابط الذاتية التي تصورها طبقاً لإطاراتها، فيختلف الشيء في ذاته عن الشيء في ذاتنا.

أما الفلسفة الإسلامية فتقول عن مبدأ العليّة أنه ضرورة عقلية، تكشف عن روابط واقعية في الخارج وما وراء الذهن، أي أنّ العليّة ليست روابط ذهنية فقط، بل هي كاشفة عن علاقة واقعية بين العلة والمعلول، وإنّ كل معلول يحتاج إلى علة، ولذلك فإنّ مبدأ العليّة سوف يدلّنا على وجود العلّة الأولى وهو الله سبحانه وتعالى[1].

مشكلة فصل الفكر الديني عن نظرية المعرفة:

وبعد هذه المقدمة عن نظرية المعرفة، نعود إلى بحثنا لنقول بأنّ تفكيرنا مبتلى بتجميد العقل، أو قولبته بغلبة الحس أو الذاتية، صحيح إننا نؤدي العبادات والشعائر، ونقرأ القرآن والسنّة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، ولكننا في التفكير تابعون لـ (جون لوك) و (دافيد هيوم) أو (ايمانوئيل كانت).

تفكيرنا أما أن يكون ظاهرياً يجمد على الظواهر، ولا يربط بينها ليصل إلى ما وراءها، ويكشف نتائجها وأهدافها، أو هو تفكير انتقائي ذاتي، يحدد المعلومات التي يقرأها في مصادر الشريعة بقوالب العادات والتقاليد والآراء المألوفة، أو المصالح الفئوية أو الفردية.

الظاهرية والاخبارية نموذجاً:

وأصحاب الفقه الظاهري، وكذلك المذهب الإخباري مثال على هذا النحو من التفكّر، وحول هذا المعنى يقول المفكر الشهيد مرتضى مطهري:

---

١ - أنظر فلسفتنا للمفكر الشهيد محمد باقر الصدر، ص١٥٠ ـ ١٥٣.

لقـد ظهـر الفكـر الإخبـاري تقريبـاً مـع ظهـور الفلسـفة الحسـية في أوربـا، وإنهـم أنكـروا العقـل في العلـوم الماديـة، ولكـن الأمـين الاسـتر آبـادي (مؤسـس المذهـب الإخبـاري) أنكـر العقـل في معرفـة الديـن، وليـس واضحـاً مـن أيـن جـاء هـذا الرجـل بهـذا الفكـر! هـل كان ابداعـاً مـن نفسـه؟ أم اقتبسـه مـن شـخص آخـر؟

وإني أتذكـر في صيـف عـام ١٩٤٢م، ذهبـت إلى مدينـة بروجـرد، حيـث كان المرجـع آيـة الله البروجـردي هنـاك، ولم يـأت بعـد إلى قـم، وهنـاك جـرى ذكـر الإخباريـين، فانتقـد هـذا الفكـر وقـال بـأنّ ظهـور هـذا الفكـر بـين الإخباريـين قـد كان بتأثـير موجـة الفلسـفة الحسيّـة التـي ظهـرت في أوربـا[1].

وهـذا النحـو مـن التفكـير في معرفـة الديـن والشريعـة ينتـج لنـا دينـاً مفـككاً ومبعثـرا وبـلا أهـداف، أو ديـن تابـع لـلآراء والأهـواء والمصالـح، وآلـةً وفخّـاً لصيـد الأهـداف الدنيويـة وشرعنـة الأحـزاب والطوائـف والحكومـات، وهـذا النحـو مـن التفكـر هـو الـذي فـرّق الأمـة وحولهـا أيـدي سـبا.

وقـد شـكا أمـير المؤمنـين ﷺ مـن هـؤلاء الذيـن لا ينظـرون إلى الديـن نظـرة منهج متكامـل مترابـط، ولا يعقلونـه عقـل رعايـة و وعايـة، ولا ينظـرون إلى مـا وراءه مـن مقاصـد وأهـداف، ولا يتلـون الكتـاب حق تلاوتـه ويرجعون بعضـه إلى بعض، حتى يصلـوا إلى أهدافـه العاليـة، ويَضعـوا كل شيء في موضعـه، فقـال ﷺ في الخطبة (١٧):

(...إِلَى اللهَّ أَشْـكُو مِـنْ مَعْـشَرٍ يَعِيشُـونَ جُهَّـالًا وَيَمُوتُـونَ ضُـلَّالًا لَيْـسَ فِيهِـمْ سِـلْعَةٌ أَبْـوَرُ مِـنَ الْكِتَـابِ إِذَا تُـلِيَ حَـقَّ تِلَاوَتِـهِ وَ لَا سِـلْعَةٌ أَنْفَـقُ بَيْعـاً وَ لَا أَغْـلَى ثَمَنـاً مِـنَ الْكِتَـابِ إِذَا حُـرِّفَ عَـنْ مَوَاضِعِـهِ وَ لَا عِنْدَهُـمْ أَنْكَـرُ مِـنَ الْمَعْـرُوفِ وَ لَا أَعْـرَفُ مِـنَ الْمُنْكَـرِ).

١- مرجعيت وروحانيت: ص٨٩.

وقال في ذم الاختلاف في الفتيا في الخطبة (١٨):

(تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ).

إنها المعادلة العلوية الخطيرة، من يعيش جاهلاً يموت ضالاً، لماذا؟ لأنّه لا يتلو الكتاب حق تلاوته ويحرّفه عن مواضعه، وكيف يحصل هذا؟ عندما يكتفي ببعض الآيات ولا يربطها بغيرها، وعندما يقطعها عن سياقها القرآني الكلي، وسياقها الأهدافي، وعندما لا يعقل الروايات برعاية ووعي ودراية، ويتعامل مع الروايات كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نفس هذه الخطبة (١٧): (...جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهالات، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يُذْرِو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الهَشِيمَ، لاَ مَلِيٌّ ـ وَاللهِ ـ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلاَ أَهْلٌ لِمَا قُرِظَ بِهِ ...).

تلاوة الكتاب هي أن تربط بين آياته وتتدبّرها لتصل بك إلى الهدف المطلوب، ولا تقطع القرآن عضين (أي قطع متناثرة)، والروايات يجب أن تعقل، ويتم رعايتها حتى تصل إلى فهم الإسلام الحقيقي، لا أن نذروها كما تذرو الريح النبات اليابس، وهذا الدور الكبير والمصيري، يقوم به العقل إذا تخلص من غلبة الحس والخيال والذاتية، وارتفع إلى المرتبة العالية من العقل، مرتبة ادراك الأشياء بوجودها الواسع الأعلى، الذي يكشفها مرتبطة بغيرها، ويكشف أهدافها العالية، وهذا هو عقل المعقولات الثانية، وهو العقل في مقامه المجرد العالي، الذي يعقل الأشياء بوجودها الواسع الكلي المترابط، لكن عندما نبقى في حدود الحس والخيال والماهيات المحدودة، فإنّ العقل سوف يكون كقطعة شمع تتشكل عليها المعلومات، وهذا ينتج الجمود

والتحجّــر، وإذا أســقطنا قناعاتنــا عــلى النصــوص وأدخلناهــا في قوالــب ذاتنــا، فالنتيجــة هــي أنّ الكتــاب لا يُــتلى حــق تلاوتــه، وسـيحرّف عــن مواضعــه، ولا يتــم رعايــة الروايــات حتــى تصــل إلى مقصودهــا، وهــذا هــو الجهــل الــذي يشــكو منــه أمــير المؤمنــين إلى الله، لأنّــه يصنــع أمــة ضالّــة، والضــلال هــو التيــه والضيــاع.

لقد ضيعت الأمّـة معالم دينها، بل ضيعت حتى صلاح دنياها.

أنظــر إلى الأمــة بعــد أكثــر مــن ألــف وأربعمائــة ســنة مــن قــراءة القــرآن والروايــات، مــاذا تفهــم عــن معرفــة الله وصفاتــه وأسـمائه وكلماتــه؟ ومــاذا تعــرف عــن الخلافــة الإلهيّــة والعبــادة، مــاذا تفهــم عــن قولــه تعــالى في الآيــات ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[١] ﴿...ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾[٢] ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[٣] ﴿...وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[٤] ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ...﴾[٥] ﴿...وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ...﴾[٦]، ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ...﴾[٧].

ماذا تفهم وهي تقرأ هذه الأدعية العظيمة منذ مئات السنين:

(يــا مَــن دلّ عــلى ذاتــه بذاتــه) (بــك عرفتــك وأنــت دللتنــي عليــك) (وإنّ الراحــل إليــك قريــب المســافة، وإنّــك لا تحتجــب عــن خلقــك إلاّ أن تحجبهــم الأعــمال دونــك) (ليــس في الأشــياء بوالــج ولا منهــا بخــارج) (مــع كل شيء لا بمقارنــة، وغــير كل شيء لا بمزايلــة) (مَــن عــرف نفســه فقــد عــرف ربــه)، هــذه النصــوص

١- الحديد: ٣.
٢- الاخلاص: ٢-٣.
٣- فصلت: ٥٣.
٤- الذاريات: ١٦.
٥- النور: ٣٥.
٦- البقرة: ٢٥٥.
٧- الأعراف: ١٧٢.

العظيمة وأمثالها، عندما تعطى إلى عقل محكوم بأصالة الحس والخيال، أو الذاتية المتمثلة بالقناعات المألوفة التقليدية والعقل الجمعي، فإنّه يحملها على معاني مجازية هابطة، لا تقدم ولا تؤخّر، لكن عندما نتعامل معها بالتدبّر والعقلنة الواعية العالية، فإنّها تنتج معرفة الله سبحانه التي تنتج الإنسان الذي يرى الله في كل شيء، ويتعامل مع كل شيء لأجل الله، فتتحقق الخلافة الإلهية وهدف الله في الأرض، وتصبح الأرض عامرة بصفات الله بواسطة عبادة الله التي يقوم بها عبد الله الإنسان العارف بالله.

والطريق إلى تحقيق هذا الهدف هو العقل، ولهذا السبب نرى تأكيد القرآن الكريم على الآيات الكونية والتعقل والتفكر والتدبر بها، والتأكيد من العترة الطاهرة على التعقل والدراية، لأنهما الطريق إلى الهدفية في الكون والحياة.

ثقافة اللاّ هدفيّة:

ولقد ضيّعنا العقل فضيّعنا الهدفية! يصلّي مَن يصلّي من أجل الصلاة! ويصوم مَن يصوم من أجل الصيام! ونقرأ القرآن والدعاء والزيارات من أجل القراءة! وندرس في الجامعات والحوزات من أجل الدراسة!

كم هم نسبة المتدينين الذين يبحثون في تدينهم وعبادتهم عن تحقيق هدف الله في الأرض؟ بل حتى الذين يدرسون الدين كم منهم الذين يريدون أن يصلوا إلى معرفة الله ويصبحوا خلفاء لله، ومظهراً لصفاته ثم يعلّمونها لغيرهم؟

إنّ اللاهدفية لم تقتصر على عدم معرفة ديننا والتمسك به، بل سرت حتى إلى أمور دنيانا، إنّ المجتمع الغربي المادي وإن كان يعيش اللاهدفية والتفاهة بالنسبة إلى الأهداف العليا للإنسان والحياة، ولكنه يعيش الهدفية في مجال حياته الدنيوية والمادية، فهو يمتلك فكرا للإنتاج والتوزيع والتعليم المبرمج، لتخريج الإنسان المنتج، الذي يخدم الأغراض الاقتصادية والاجتماعية

والسياسـية لشـعوبهم ودولهـم.

ولكننـا في بلداننـا العربيـة، يدخـل التلميـذ في المدرسـة ويـدرس مـدة اثنتـي عشرة سـنة، وهـو لا يعلـم لمـاذا يـدرس؟ ومـا هـو الهـدف مـن دراسـة كل هـذه الـدروس والاختصاصـات المتباينـة المتخالفـة، ولذلـك لا يفكـر الطالـب عندنـا كيـف يفهـم، وإنّـما يفكـر أن يمتحـن وينجح!!

وإذا أنهـى الامتحانـات، قـال لدروسـه: هـذا فـراق بينـي وبينـك، ويتمنـى أن لا يراهـا ولا تـراه...

ولأجـل الخـروج مـن هـذا الواقـع المـزري في الفهـم والتعلـم لديننـا ولحياتنـا، علينـا أن نعـود إلى العقـل ونفهـم العقـل، ونعـود إلى التفكـير ونصلـح التفكـير، كـي نفهـم الأشـياء كـما هـي عـلى حقيقتهـا، وتكـون ذاتنـا مطابقـة لحقائـق الأشـياء، حتـى نضـع كل شيء في محلـه وموضعـه، وهـذا هـو الشـكر، والشـكر هـو العبـادة الحقيقيـة.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1].

﴿...يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[2].

١- النحل: ٧٨.
٢- البقرة: ١٧٢.

الثاني: التفكير الأفقي:

حيث إن حصر العلم بالصور الحسيّة والخياليّة وعدم رفعه إلى مرتبة العقل الذي ينتج الكليات والمعادلات العالية، يجعل التفكير منحصراً بمعرفة العلاقات الأفقية للأشياء، وهذا ما ابتلى به التفكر المادي والرؤية الكونية العلمية المادية، ولكنه وللأسف هو الحاكم على مناهجنا الدراسيّة أيضاً، وحتى على دراستنا للدين، بل وحتى في مؤسساتنا الدينية وحوزاتنا العلمية، نحن ندرّس في مدارسنا وجامعاتنا المعادلات الكيميائية والظواهر الفيزيائية والبيولوجية في الكون، وسير الحياة والحركة والنمو والتكاثر، وكيفية عمل الأجهزة المختلفة في النبات والحيوان والإنسان، ولكن كل دراستنا تنحصر بالعلاقات الأفقية بين هذه الظواهر، ويبقى سؤال مهم نحتاجه بشدة، وهو مَن الذي قام بهذا؟ وما هو الهدف من كل هذا؟ هذا السؤال المهم والأساسي والمصيري مفقود في تفكيرنا العلمي، فلو نظرنا إلى المنهج التفكيري الذي يتبعه القرآن وأهل البيت لرأيناه يركز على التفكير العمودي إلى جانب التفكير الأفقي، فيأمر بالنظر إلى الآيات ويصف لك علاقاتها الأفقية، كالارتباط بين الريح والسحاب والمطر والأرض وإعمار الأرض وإنبات النبات، ثم يربطها بالمصدر والهدف، أو قبل أن يذكر العلاقات الأفقية، يذكر المصدر وهو الله.

وفي القرآن مئات الآيات التي تدعو إلى التعقل والتفكّر والتدبّر، وتربط النظر إلى آيات الله وما فيها من علاقات أفقية منظمة ودقيقة وعميقة، بعلاقاتها العمودية بالله سبحانه وبالتوحيد والمعاد، كالآية (١٦٤) من سورة البقرة:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، والآيــة (١٩٠) مــن سـورة آل عمــران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، والآيـات ٣-٥ من سورة الرعد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفي نهـج البلاغـة يتحـدث أمـير المؤمنـين فيذكـر عجائـب الخلقـة، فيقـول عليه السلام في الخطبـة (١٨٥):

(وَلَـوْ فَكَّـروا فِي عَظِيـمِ الْقُـدْرَةِ، وَجَسِـيمِ النِّعْمَـةِ، لَرَجَعُـوا إِلَى الطَّرِيـقِ، وَخَافُـوا عَـذَابَ الْحَرِيـقِ، وَلَكِـنَّ الْقُلُـوبَ عَلِيلَـةٌ، وَالْأَبْصَـارَ مَدْخُولَـةٌ! أَلاَ تَنْظُـرُونَ إِلَى صَغِـيرِ مَـا خَلَـقَ اللهُ، كَيْـفَ أَحْكَـمَ خَلْقَـهُ، وَأَتْقَـنَ تَرْكِيبَـهُ، وَفَلَـقَ لَـهُ السَّـمْعَ وَالْبَـصَرَ، وَسَـوَّى لَـهُ الْعَظْـمَ وَالْبَـشَرَ! انْظُـرُوا إِلَى النَّمْلَـةِ...).

ويصـف خلـق السـماء والكـون ومـا فيهـا مـن آيـات العظمـة، ثـم يقـول: (... فَالوَيْـلُ لِمَـنْ جَحَـدَ الْمُقَـدِّرَ، وَأَنْكَـرَ الْمُدَبِّـرَ! زَعَمُـوا أَنَّهُـمْ كَالنَّبَـاتِ مَـا لَهُـمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِاخْتِـلاَفِ صُوَرِهِـمْ صَانِـعٌ، وَلَمْ يَلْجَـؤُوا إِلَى حُجَّـةٍ فِيمَـا ادَّعَـوا، وَلاَ تَحْقِيـقٍ لِمَـا أَوْعَـوْا، وَهَـلْ يَكُـونُ بِنَـاءٌ مِـنْ غَـيْرِ بَـانٍ، أَوْ جِنَايَـةٌ مِـن غَـيْرِ جَـانٍ!).

وليـس غريبـاً أن نـرى في مدارسـنا الأكاديميـة التابعـة للنمـوذج المـادي الغـربي في التعليـم، أن يكـون تعليمهـم أفقيـاً، وإن كان يؤسـفنا جـداً أن نـرى ذلـك في بلادنـا الإسـلامية، ولكـن الغريـب أن نـرى في مدارسـنا الدينيـة هـذا المنهـج بعينـه، فنـرى طـلاب الديـن يتعلمـون فقهـاً وسـيرة وتاريخـاً ومفاهيـم دينيـة مختلفـة، لكنهـا

فاقـدة للعمـق المعـرفي، الـذي يجعـل المتعلـم في الحـوزة العلميـة يعتقـد بـأنّ المنظومـة العلميـة الدينيـة صـادرة مـن الله، وهـو الكـمال المطلـق، مـن أجـل بنـاء الإنسـان الكامـل خليفـة الله في الأرض.

فـلا يكفـي أن يتعلـم طالـب العلـوم الدينيـة معرفـة أحـكام الصـلاة، أو كيفيـة اسـتنباطها مـن مصادرهـا، بـل عليـه وفقـا للمنهـج العلـوي في التفكـير والعمـل، أن يعقـل المصـادر ويتدبّـر بوعـي ودراسـة ورعايـة، وأن يتدبّـر الغـرض ويفهمـه **(تَـلَوُ القـرآن فأحكمـوه، وتدبّـروا الفـرض وأقامـوه)**.

المطلـوب هـو تدبّـر العبـادات والفـروض، ومعرفـة مـاذا وراءهـا مـن أهـداف مـن أجـل إقامتهـا، لا تعلّـم أحـكام وهيـاكل العبـادات وحركاتهـا وألفاظهـا وتعليمهـا للآخريـن، والفرائـض والعبـادات والشـعائر التـي نتعلمهـا بالتفكـير العمـودي إلى جانـب الأفقـي هـي العبـادات التـي تعـرج بصاحبهـا إلى الله وتحقـق القـرب والأنـس وتُطهِّـر المجتمـع مـن الفحشـاء والمنكـر، وتعالـج الهلـع والجـزع والرذائـل الإنسـانية.

وليـس غريبـاً أن ينتـج لنـا التفكـير الأفقـي المنفصـل عـن التفكـير العمـودي، قـرّاءً قـد حفظـوا حـروف القـرآن وضيعـوا حـدوده، ويتلـون القـرآن، والقـرآن يلعنهـم، ونـرى خطبـاء ومنشـدين يجعلـون النـاس يبكـون وينوحـون ويندبـون عـلى الحسـين، ولكـن لا نـرى شـيئاً في سـلوكهم وسـيرتهم ومواقفهـم مـن الأهداف التـي أرادهـا الله وأرادهـا الإمـام الحسـين في ثورتـه وتضحيتـه العظمـى.

الثالث: التفكير التخزيني التجزيئي لا الإنتاجي المنظومي:

لم يُوهَـب العقـل لنـا لنصنـع منـه مخزنـاً للمحسوسـات والمعلومـات ونجعلـه ارشـيفاً للصـور الخياليـة فحسـب، بـل علينـا أن نجعـل العقـل معمـلاً لإنتـاج المعلومـات، ومـن مشـاكل عقـل الأمـم المتخلفـة أنهـا لا تأخـذ المعلومـات إلى عقولها لتنتـج بهـا علـماً تُدبّـر وتطـور بـه حياتهـا، وتكشـف بـه مجهولاتهـا، والسـبب في بقـاء أمتنـا مقلِّـدة وتابعـة لغيرهـا، هـو أنهـا لا تشغّـل عقولهـا لإنتـاج العلـم، وغايـة مـا تقـوم بـه جامعاتنـا في الأعـم الأغلـب، هـو أن تنقـل المعلومـات مـن الغـرب والـشرق وتترجمهـا وتلقّـنها لطلابنـا.

وهـذا النحـو مـن التعامـل مـع النصـوص والمعلومـات، إذا حصـل مـع النصـوص الدينيّـة فنتيجتـه أسـوأ بكثـير مـن نتائجـه في العلـوم الأخـرى، لأن معرفـة الديـن إذا اقتـصرت عـلى النصـوص الجاهـزة، وأصبـح فهـم الديـن عبـارة عـن طبـع واستنسـاخ الآيـات والروايـات عـلى الأذهـان، فهـذا يـؤدي إلى ظهـور نتائـج خطـيرة عـلى معرفـة الديـن الحقيقـي، وتظهـر لنـا المئـات مـن الملـل والنحـل والتيـارات والمذاهـب، كل تحسـب نفسـها أنهـا هـي التـي تمثـل ديـن الله، ويكفّـر ويفسـق بعضهـا بعضـاً، والسـبب هـو أن كلا منهـا تتمسـك بظاهـر آيـة أو روايـة، وتصنـع منهـا مذهبـاً تعتـبره هـو الديـن، فـإذا راجعـت جميـع هـذه المذاهـب والمشـارب المختلفـة، والأفهـام المختلفـة للديـن، تجـد أن كل واحـد منهـا يجيبُـك بظاهـر آيـة أو روايـة قـد تمسـك بهـا، فتضيـع أهـداف الديـن وحـدوده، ولا يُعـرف قائـده وإمامـه الحقيقـي، ولا يُعـرف مَـن تـرك الديـن؟ ومَـن تمسـك بـه؟

وهـذا ينشـأ مـن الناحيـة النظريـة مـن عـدم التعامـل المنظومـي الإنتاجـي مـع النصـوص، وهـذا هـو الـذي دعـا إليـه القـرآن عندمـا أراد أن يتـم التدبـر بالآيـات، مـع بيـان الرسـول إلى جانـب التفكـر والتعقـل.

﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

وأمر الإمام عليّ وأهل البيت بأنّ نعقل الروايات بوعاية ودراية بعد أن نتدبر القرآن، ونرجع بعضه إلى بعض ونغوص في أعماقه، لأنه فيه تبيان لكل شيء ويصدق بعضه بعضا، وظاهره أنيق وباطنه عميق، ولا تكشف الظلمات إلاّ به.

فالمعلومات يجب أن يتعامل معها كمنظومة ومركب يرسل إلى العقل أو الفؤاد ليتم تفئيدها أي طبخها وصناعتها، لتنتج الدين الصحيح، وتشخيص معالم الدين وحدوده وأهدافه وقيادته الحقيقية، وهنا يحصل الشكر (لعلكم تشكرون) والشكر وضع النعم في مواضعها، وبدونه سوف يضيع الدين وينبذ الكتاب ويحرف عن مواضعه، وقد حذر أمير المؤمنين من نبذ الكتاب من قبل حملته وتناسيه من قبل حفظته، ومثاله خوارج الأمس ودواعش اليوم، والكثير من المتحجرين أو الذين يأخذون من الدين ما يعجبهم، أو يطابق دنياهم وترفهم ومصالحهم، ويترك الدين باسم الدين، أي تترك الأهداف والحدود، وتقام المظاهر والحروف، بسبب التمسك بالحروف والتفكير التخزيني التجزيئي.

١- النحل: ٤٤.
٢- ص: ٢٩.
٣- النحل: ٧٨.

وقد أمرنا الإمام علي عليه السلام في الخطبة (١٤٧): فقال:

(...وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ...).

وقد أوضح الإمام الباقر عليه السلام هذا النبذ للكتاب عندما قال: (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية، وكان من نبذهم للكتاب أن ولوه الذين لا يعلمون فأوردوهم الهوى، واصدروهم إلى الردى، وغيروا عرى الدين ثم ورثوه في السفه والصبا، فالأمة يصدرون عن أمر الناس بعد أمر الله تعالى، وعليه يردون، فبئس للظالمين بدلا)[1].

ولذلك حذر الإمام في الخطبة ١٧ من المدّعين للعلم ومعرفة الدين الذين هم جُهّال خبّاط للجهالات، يذرون الروايات ذروا الريح الهشيم، وليسوا أهلاً لإصدار ما ورد عليهم، فالعالم الحقيقي هو العالم المنظومي الإنتاجي التي يعرف كيف ينضج المعلومات، ويصدرها إلى الأمّة كدين حقيقي يصنع الإنسان الكامل وأمّة الأعلون الشاهدة على الناس.

التفكير المنظومي الإنتاجي جامع مانع:

يؤكد إمام البصيرة والحكمة في قوله (...لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ...)، على حقيقة حسّاسة جداً في معرفة الدين، وأتباعه وقادته الحقيقيين، وهي جانب المانعيّة من الصفات السلبية للدين، وبدونها لا يكون الإنسان متديناً، ناهيك من أنه لن يصلح أن يكون

١- الكافي: ج٨ ص٥٣ الحديث ١٦.

قائـداً، فنـرى الإمـام عليه السلام يؤكـد عـلى الرشـد وميثـاق الكتـاب، والتمسـك بالكتـاب، ويقـول بـأنّ معرفتهـا لا تتـم إلاّ بمعرفـة مَـن تركهـا، ومصطلحـات الرشـد والميثـاق والتمسـك بالكتـاب تـدلّ عـلى حقيقـة الديـن ومصداقيتـه الكاملـة، وهـذه لا تحصل إلاّ مـن بعـد أن نشخّـص مَـن تركهـا ونتـبرأ منـه ولا نُخـدع بـه، فالديـن عبـارة عن منظومـة أفـكار وعقائـد وفضائـل وأعـمال عباديـة وشـعائرية وأحـكام ومعامـلات، وهـي تتحقـق بفعلهـا والتلبـس بهـا أمـام النـاس، وهنـاك الجوانـب السـلبية وهـي المعـاصي والرذائـل، وتحصـل بالـترك والتـبرّي منهـا ومواجهـة أصحابهـا، وهـم الطاغـوت والظلـم والفسـاد والرذائـل، وهـذه غـير ظاهـرة، وقـد يتـم التغطيـة عليهـا بالمظاهـر الإيجابيـة، فالكثـير مـن النـاس لا سـيما الملـوك والحـكام والمتاجريـن بالديـن، يخدعـون النـاس ببعـض المناسـك وبعـض التبرعـات والأعـمال الخيريـة، وكـم اختفـى الظّـلمة والطغـاة خلـف جـدران هـذه المظاهـر، وخدعوا النـاس بهذه المسـوح الكاذبـة، وحرّفـوا الديـن وفرّغـوه مـن محتـواه وأهدافـه، وحاربـوا قـادة وعلـماء الديـن الحقيقيـين الذيـن يدعـون إلى معرفـة الديـن الـذي يجعـل النـاس تقـوم وترفـع رأسـها بالقسـط والعـدل، والديـن الـذي يسـعى لتأسـيس دولـة كريمـة يُعـزّ بهـا الإسـلام وأهلـه، ويُـذل بهـا الكفـر والنفـاق وأهلـه، وينعـم أهلهـا بكرامـة الدنيـا والآخـرة.

الازدواجية في التفكير:

مــن نتائــج الذاتيــة وغلبــة الخيــال عــلى العقــل، أنّ البعــض يفكــر أفقيــاً في مواضيــع هــو محتــاج فيهــا إلى التفكــير العمــودي، ويفكــر عموديــاً في مواضيــع أخــرى هــو أحــوج فيهــا إلى التفكــير الأفقــي العلمــي، فالكثــير مــن النــاس مثــلاً عندمــا ينظــرون إلى الأشــجار والنباتــات ونموهــا وأزهارهــا وثمارهــا، لا يفكــرون بغــير مــا جــرى عليهــا مــن معــادلات أفقيــة أوصلتهــا إلى مرحلــة الثمــر والحصــاد، ولا يفكــر إلا القليــل بالعلــل الفاعليــة والعلــل الغائيــة، مَــن الــذي أشرف عــلى كل هــذه العمليــات؟ ومــا هــو الهــدف القريــب والبعيــد مــن كل هــذه الآيــات الإلهيــة؟

لكــن هــذا الإنســان الأفقــي التفكــير نفســه ينقلــب إلى عمــودي التفكــير عندمــا يُرمــى بــاب بيتــه بحجــر، أو يســمع صوتــاً معينــاً مــن حــوالي داره، هنــا لا يــدرس العلاقــات والعلــل الأفقيــة، ويبحــث بشــكل علمــي عــن الحجــر أو الصــوت ليكشــف علتــه الفاعليــة بنحــو علمــي، بــل هــو هنــا لا يســمح للعقــل بــأن يرتفــع ليبحــث عــن العليّــة بشــكل صحيــح، لأنّ الخيــال الــذي صنعــه العــرف والمجتمــع في ذهنــه ســيطر عــلى عقلــه، ورســمَ في مخيّــلته صــورة العــار والعيــب والثــأر التــي تطالبــه بكشــف الفاعــل بــأسرع وقــت، ليحكــم عليــه ولــو ظنّــاً، ويرتــب الآثــار الســيئة في أغلــب الأحيــان عــلى هــذا الحكــم المخالــف للعقــل الســليم.

وهــذا مــا حــذر منــه أمــير المؤمنــين عليه السلام في قولــه في وصــف الحــق والباطــل، ووصــف العاقــل عندمــا قــال أنّ الحــق أن تقــول رأيــت والباطــل أن تقــول ســمعت، وأن العاقــل هــو الــذي يضــع الأمــور في مواضعهــا.

الجهل وكارثة التحكيم:

في معركة صفين كاد السيف العلوي المحمول بيد البصر والصبر المتمثل بعليّ وأصحابه المخلصين والواعين كمالك الأشتر، أن يحسم الموقف لصالح حكومة العدل العلويّة، على حكومة الجور الأمويّة.

لكن عمر بن العاص وبعد أن داهمه الخطر، وأحسّ بالهزيمة، إنقدح ذهنه المكّار بحيلة رفع المصاحف المعروفة، وقد نجح في خداع أكثرية جيش العراق، وأُجبر الإمام علي عليه السلام أن يوقف الحرب، وينسحب مالك وهو في لحظات حسم المعركة، قرب فسطاط معاوية، والسبب هو أن أكثرية الجيش أخذوا يضغطون على الإمام، إمّا أن ينسحب مالك أو نقتلك!! واضطر الإمام للاستجابة لهم على مضض ومرارة، وهذا كله نتيجة الجهل وعدم معرفة الإسلام والقرآن، فعمر بن العاص استغل جهل هؤلاء ومرّر حيلته السوداء، فهؤلاء لم يفهموا من القرآن إلاّ كونه كتاب من جلد وأوراق ومداد، يقرأه القارئ ويدخل الجنّة، هذا هو كل معرفتهم بالقرآن، وبالطبع إن مثل هذا المصحف، إذا رفع فلا يمكن أن يُحارَب من يرفعه، حتى وإن كان معاوية، وهذا هو غاية الجهل وفقدان الرُشد، إنهم لو كانوا يعرفون أن القرآن كتاب لأجل إقامة القسط والعدل وإزالة الظلم والطاغوت والفساد، لعلموا أن هذه المصاحف التي رفعت، إنما كانت دروعاً لمعاوية، حتى يحفظ بها حكومته الطاغية الفاسدة، وإنّ القرآن الحقيقي هو الإمام عليّ، لأنه هو الذي يعلم ماذا يريد القرآن ويحقق أهداف القرآن، ويترجمه على الأرض، فلو كان تفكيرهم عقلياً منظوميا انتاجياً، لعرّفهم حقيقة القرآن، ولعرفوا أنّه لا قرآن بلا عليّ، لأنّ القرآن أهداف لا أوراق، وإنقاذ معاوية من الهزيمة، وتمكينه من رقاب المسلمين، يعني تمزيق القرآن، وإلغائه من الحياة، فهم بقبولهم إيقاف الحرب والتحكيم قد أهانوا القرآن، ووقعوا فيما فروا منه بسبب جهلهم،

وهكـذا يفعـل الجهـل، ويبعـد الإسـلام الحقيقـي وقادتـه الحقيقيـين عـن حيـاة المسـلمين اليـوم، بجهـل المسـلمين وتفكيرهـم التجزيئـي الـذي يجعلهـم يتمسـكون بأجـزاء مـن الديـن ويتركـون كل المنظومـة الدينيـة وأهدافهـا، فـلا يبقـى مـن الديـن إلا اسـمه ومـن القـرآن إلاّ رسـمه.

الرابع: التفكير غير المنطقي:

عمليـة التفكـير هـي عمليـة جمـع بـين معلومـات حـاضرة للوصـول إلى معلومات جديـدة، وهـو مـا يسـمى في علـم المنطـق الـذي هـو العلـم الـذي يعنـي بتعليـم طـرق التفكـير الصحيـح بالبرهـان، الـذي يتـم فيـه ترتيـب مقدمـات للوصـول إلى النتيجـة، فـإذا كانـت المقدمـات أو بعضهـا خطـأ، كانـت النتيجـة خاطئـة.

ونحـن في إيماننـا بـالله سـبحانه عندمـا سـلكنا برهـان السـببية، فقلنـا: كل أثـر لـه مؤثـر وسـبب، وهـذا العـالم والكـون آثـار وأسـباب، فهـذا الكـون لـه مسـبب وعلـه أولى. أو عندمـا قلنـا أن النظـم لـه منظّـم، وهـذا الكـون منظَّـم، إذاً لهـذا الكـون منظِّـم.

لكـن هـذه البراهـين لا تسـتطيع أن تثبـت لنـا أن العلـة الأولى أو المنظِّـم لا يمكـن أن يكـون محسوسـاً أو محـدوداً، إلاّ إذا ضممنـا إليهـا البراهـين العقليـة الفلسفيّـة العاليـة، كبراهـين ابـن سـينا وصـدر المتألهـين، والتـي تثبـت أن الله سـبحانه لا يمكـن أن يكـون محـدوداً، لأنـه إذا كان محـدوداً كان محتاجـاً وكان قائـماً بغـيره، فلـم يكـن إلهـاً، وحيـث إننـا لا نـدرك بالحـواس إلاّ المحـدود، لذلـك فإننـا لا يمكـن أن نـرى أو نـدرك الله سـبحانه بحواسـنا المحـدودة، فـلا ندركـه إلاّ بعقولنـا وقلوبنـا، فهـو المؤثـر والمنظِّـم والعلـة الأولى، وهـو القائـم بذاتـه، لا يمكـن أن نـراه بعيوننـا الماديّـة المختصّـة برؤيـة المحـدود المحسـوس، وإنـما نـراه بعيـون عقولنـا.

فـإذا غلـب الحـس عـلى العقـل، فـإن التفكـير المنطقـي سـوف يفقـد مقدماتـه

الصحيحة للوصول إلى النتيجة، وهذا ما استفاد منه أعداء الأنبياء في إضلال الناس، فالأنبياء دعوا الناس إلى الله عن طريق دعوتهم إلى النظر في آيات الله وعلامات عظمته، بل وأظهروا للناس معجزات وبينات تثبت بنحو قطعي قوة الله وعظمته، كما في قصة موسى وشق البحر لهم وجعله طريقاً يبسا، وعبور قوم موسى وانقاذهم من فرعون وجيشه، فمن الواضح أن هناك قدرة إعجازية فائقة، قامت بهذا الفعل وهو ربُّ موسى، لكن مع هذا الدليل الساطع، فإن السامري جاء إلى بني إسرائيل المبتلين بأصالة المادة وغلبة الحس على العقل، واستغل عقولهم الضعيفة التي لا تؤمن إلاّ بإله محسوس يرونه بأعينهم، فهذه مقدمة خاطئة حاكمة على أذهانهم، وهي كل شيء يجب أن يكون محسوساً، وإنّ الإله يجب أن يكون محسوساً، وعن طريق هذا الضعف العقلي، والتفكير غير المنطقي، استطاع أن يجعلهم يؤمنون بأنّ العجل الذي صنعه من الذهب، وجعل له صوتاً وخواراً هو إله موسى، فصدّقوا ذلك، وتركوا وصيّ موسى وخليفته هارون، وفقدوا دينهم الحقيقي وابتلوا بالتيه والضياع.

إن المعرفة العلوية ترشد إلى رؤية العقل ورؤية القلب، وهذه الرؤية هي الأساس في حياة الإنسان، لأن معرفة الله سبحانه، بما أنه المصدر لكل خير وكمال، لا يتم إلا بهذه الرؤية، فالإيمان بالله ليس إيماناً مفهومياً ذهنياً فحسب، وإنما هو إيمان بدرجة الرؤية، وهو الذي يظهر من جواب الإمام سلام الله عليه لذعلب اليماني عندما سأله: هل رأيت ربّك؟ فقال ﷺ لذعلب وكأنه يستنكر أو يستغرب هذا السؤال! أفأعبد ما لا أرى؟

فقال له ذعلب: وكيف تراه فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. فالإمام يرى أن الإيمان بالله لابد فيه من الرؤية القلبية.

وفي الخطبـة (١٠٣) يقـول عليه السلام: رحـم الله امـرأ تفكّـر فاعتـبر، واعتـبر فأبـصر، فهـذا البـصر يـأتي مـن التفكـر الـذي يجعـل العقـل يبـصر الـشيء الـذي توصـل إليـه ويـراه.

ولكـن غلبـة الحـس والخيـال تجعـل الإنسـان يقـع في جهـل مركـب، فـلا يـدرك أنّ هنـاك رؤيـة غـير الحسّـية والخياليـة، وهنـا تحكـم في ذهنـه هـذه المقدمـة الخاطئـة والمدمّـرة للديـن، وهـي أن الإلـه لابـد أن يكـون محسوسـاً مرئيـاً، ويسـتغل أعـداء الأنبيـاء هـذه الخـاصرة الرخـوة في تفكـير النـاس، فيصنعـون لهـم الأصنـام والآلهـة المزيفـة ويخدعونهـم ببعـض الخـوارق ويسـحرون أعينهـم ببعـض الصـور والحـركات، فيتركـون الإلـه الحقيقـي الـذي ينبغـي أن يـروه بعقولهـم ويذهبـون نحـو الآلهـة المزيّـفة.

الخطأ في المقدمات:

وسـببه عـدم اتبـاع المصـدر الصحيـح للقيـم والموازيـن، نحـن عندمـا نريـد أن نتكلـم أو نـأكل ونـشرب، أو نتعامـل فيـما بيننـا بمختلـف المعامـلات الاقتصاديـة والاجتماعيـة، فهـل نتبـع في ذلـك إيحـاء غرائزنـا وشـهوتنا وغضبنـا، أو يحـدده العـرف والعقـل الجمعـي، أو مـا يزيّـنه الإعـلام ووسـائل الاتصـال في عيوننـا وأسـماعنا؟! أم هنـاك ميـزانٌ آخـر للتشـخيص، وبعبـارة أخـرى إننـا يجـب أن نشـخص معيـار الخـير والصـلاح، ومعيـار الـشر والفسـاد، حتـى نفعـل الأول ونتجنـب الثـاني.

فهـل إن الغريـزة ومـا يثيرهـا هـو الميـزان في الحكـم إنّ هـذا الـشيء عامـل خـير وسـعادة، وأنّ مـا لا يثـير الغريـزة ولا يسـحر العيـون، فهـل هـو عامـل شـقاء وتعاسـة؟ وهـل أنّ مـا يعرضـه الإعـلام والأجهـزة الدعائيـة مـن صـور جميلـة يضفيهـا عـلى الأشـياء كافيـة في الحكـم عـلى أنهـا عوامـل سـعادة، ومـا يعرضـه مـن

صور قبيحة على أشياء أخرى يكفي في أن نكرهها ونتنفّر منها؟!

هذا طعام أو شراب جذاب، وأنا اشتهيه، وهذه امرأة جميلة متزيّنة، وهذه معاملة تدر عليّ أموالاً كثيرة، فهل هذا يكفي في أن استجيب وآكل وأشبع غريزتي وأتعامل؟ أم أن هناك قائداً محركاً آخر يجب أن أرجع إليه، هنا مصرع أكثر أفراد البشرية، عندما يكتفون بالغريزة والحس والخيال، ولا يرجعون إلى العقل الذي هو المعيار الحقيقي في تمييز ما ينفع الإنسان مما يضره، والعقل يقول للإنسان أنك مخلوق تختلف عن الحيوان بما لديك من عقل، وإنّك مسؤول عن بدنك وعقلك وروحك، وإنّك مخلوق اجتماعي، فأنت مسؤول عن المجتمع الذي تعيش فيه من أسرتك القريبة إلى أسرتك البعيدة، وهم الأرحام والعشيرة إلى أبناء المحلة والمدينة، وإلى أقصى إنسان يعيش معك على هذا الكوكب، كما إنّ لك حياة أخرى، هي حياتك الأبدية بعد أن تُكمل شوطك القصير في هذه الحياة.

ولا سعادة لك إلاّ بالإشباع الذي لا يضر بدنك، ولا روحك ولا عقلك ولا أسرتك ومجتمعك والبشر جمعاء وحياتك الأبدية الخالدة، فإذا زيّنت لك العيون ووسائل الإعلام والخداع شهوة ولذة لدقائق، وميدان قصير وضيق، فعليك أن تلتفت إلى نفسك وتعلم أنك لست ابن اللحظة والساعة والأنا الضيقة، وإنما أنت إنسان الميادين الواسعة التي هي أطول من الزمان، وأوسع من الأرض بما رحبت، والذي يشخص لك الصالح من الطالح، والخير من الشر، والسعادة من الشقاء، هو خالقُك وخالق الأشياء التي تريد أن تتعامل معها.

ولأنك أوسع من الزمان والمكان، وإنّك تريد حياة دائمة، وكمالاً أبدياً، فلابد لك أن ترجع إلى خالق الكمال والحياة، ليشخّص لك الطريق إلى ذلك، فعندما تقول: هذه لذة وسعادة، هذه حياة، هذا رزق، هذا عزّ وكرامة، هذا

علـم نافـع، هـذا حـق وعـدل، كل هـذه المقدمـات للحصـول عـلى النتيجـة التـي عـلى ضوئهـا نتحـرك ونعمـل.

الخالق هو العالم:

هـذه المقدمـات يجـب أن يشخّـصها الخالـق الـذي هـو العـالم الحقيقـي بالأشـياء، فالقيـم والموازيـن أو المعلومـات الضروريـة لتشـغيل وإصـلاح أي جهـاز يجـب أن تؤخـذ مـن صانـع الجهـاز أو العـالم بكيفيـة صنعـه وعملـه وإصـلاح عيوبـه، والله سـبحانه هـو صانـع جهـاز الإنسـان، والعـارف بـما يُـصلحه ويُـفسده، فـإذا أخذناهـا مـن الأهـواء والآراء التابعـة للمخلوقـين، كانـت نتيجتهـا الفتـن والنزاعـات والضيـاع، وقـد قـال أمـير المؤمنـين عليه السلام في الخطبـة (٥): (إِنَّـمَا بَـدْءُ وُقُـوعِ الْفِتَـنِ أَهْـوَاءٌ تُتَّبَـعُ، وَأَحْـكَامٌ تُبْتَـدَعُ، يُخَالَـفُ فِيهَـا كِتَـابُ اللهِ، وَيَتَـوَلَّى عَلَيْهَـا رِجَـالٌ رِجَـالاً، عَـلَى غَـيْرِ دِيـنِ اللهِ...).

ووصـف أمـير المؤمنـين في الخطبـة (٨٨) هـذا المجتمـع الـذي لا يرجـع إلى حكـم الله، بالرجـوع وفـق المقدمـات الصحيحـة إلى مـا يقولـه الله: (...يَعْمَلُـونَ فِي الشُّـبُهَاتِ، وَيَسِـيرُونَ فِي الشَّـهَوَاتِ، الْمَعْـرُوفُ فِيهِـمْ مَـا عَرَفُـوا، وَالْمُنْكَـرُ عِنْدَهُـمْ مَـا أَنْكَـرُوا، مَفْزَعُهُـمْ فِي الْمُعْضِـلاَتِ إِلَى أَنْفُسِـهِمْ، وَتَعْوِيلُهُـمْ فِي الْمُهِـمَّاتِ عَـلَى آرَائِهِـمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْـرِىءٍ مِنْهُـمْ إِمَـامُ نَفْسِـهِ، قَـدْ أَخَـذَ مِنْهَـا فِيَـما يَـرَى بَعُـرىً ثِقَاتٍ، وَأَسْـبَابٍ مُحْكَـمَاتٍ).

وأمـا التابـع للموازيـن الصحيحـة في التقييـم، فهـو تابـع لمصـدر العلـم الحقيقـي الـذي يصفـه أمـير المؤمنـين عليه السلام في الخطبـة (٨٧) أنـه: (...عِبَـادَ الله، إِنَّ مِـنْ أَحَـبِّ عِبَـادِ اللهِ إِلَيْـهِ عَبْـداً أَعَانَـهُ اللهُ عَـلَى نَفْسِـهِ، فَاسْتَشْـعَرَ الْحُـزْنَ، وَتَجَلْبَـبَ الْخَـوْفَ ، فَزَهَـرَ مِصْبَـاحُ الْهُـدَى فِي قَلْبِـهِ، وَأَعَـدَّ الْقِرَى لِيَوْمِـهِ النَّـازِلِ بِـهِ، فَقَـرَّبَ عَـلَى نَفْسِـهِ الْبَعِيـدَ، وَهَـوَّنَ الشَّـدِيدَ، نَظَـرَ فَأَبْـصَرَ، وَذَكَـرَ فَاسْـتَكْثَرَ، وَارْتَـوَى مِـنْ عَـذْبٍ

فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً. قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى. قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لله ـ سُبْحَانَهُ ـ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلى أَصْلِهِ. مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ (٧) ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ ...).

فالعالم الحقيقي هو الذي يرجع المعلومات التي تأتيه إلى قواعدها الصحيحة، حتى يصدر منها النتائج الصحيحة، وهذا يتم بنصب الإنسان نفسه لله في أرفع الأمور، من إصدار كل وارد عليه، أي أنّ الله سبحانه هو المقياس والميزان الأعلى في تشخيص الحق من الباطل، والصحيح من السقيم.

وعندما يسلِّم الإنسان زمام أموره إلى الله خالقه والعالم بكل أسراره وخفاياه، والأكرم والأرحم به من كل رحيم وكريم سواه، فإن النتيجة هي: (...لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا، وَلاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا...)، فهذه هي نتيجة التبعية الكاملة لكتاب الله وقرآنه الكريم (...قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ).

وفي المقابل يصف أمير المؤمنين أدعياء العلم، والسالكين طريق التفكير الذي تتحكم به الأهواء والمقاييس الخاطئة، فيقول: (...وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حبالِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلى أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ، وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ،

فَالصُّـورَةُ صُـورَةُ إِنْسَـانٍ، وَالْقَلْـبُ قَلْـبُ حَيَـوَانٍ، لاَ يَعْـرِفُ بَـابَ الْهُـدَى فَيَتَّبِعَـهُ، وَلاَ بَـابَ الْعَمَـى فَيَصُـدَّ عَنْـهُ، وَذلِـكَ مَيِّـتُ الْأَحْيَـاءِ!...).

ويحـذِّر أمـير المؤمنـين عليه السلام بشـدّة بالغـة مـن التفكـير الـذي تحكمـه العصبيـة والقبليـة في تشـخيص الموازيـن العرفيـة، للعـزة والكرامـة والاحـترام المنافيـة للموازيـن والقيـم الإلهيّـة، وذلـك عندمـا تكـون كثـرة الأمـوال والأولاد شرفـاً وحظـاً عظيـماً ومقامـاً، ويكـون الإسراف والتبذيـر جـوداً وكرمـاً، ويكـون الثـأر والتعصّـب الأعمـى أصالـة وشـجاعة، وبالنتيجـة يكـون تـرك هـذه الموبقـات المهلـكات المدمّـرات عـاراً وعيبـاً، فهنـا ينكفـئ وينقلِـب وعـاء الإسـلام عـلى وجهـه، ويفـرغ مـن محتـواه ولبـه، ولا يبقـى مـن الإسـلام إلاّ إسـمه ومـن القـرآن إلاّ رسـمه، أنظـر مـاذا يقـول معـمار الأمّـة الإلهيّـة ومهنـدس الموازيـن الإنسـانية: (...وَاعْلَمُـوا أَنَّكُـمْ صِرْتُـمْ بَعْـدَ الْهِجْـرَةِ أَعْرَابـاً، وَبَعْـدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَابـاً، مَـا تَتَعَلَّقُـونَ مِـنَ الْإِسْـلاَمِ إِلاَّ بِاسْـمِهِ، وَلاَ تَعْرِفُـونَ مِـنَ الْإِيـمَانِ إِلاَّ رَسْـمَهُ، تَقُولُـونَ: النَّـارَ وَلاَ الْعَـارَ! كَأَنَّكُـمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تُكْفِئُـوا الْإِسْـلاَمَ عَـلَى وَجْهِـهِ، انْتِهَـاكاً لِحَرِيمِـهِ، وَنَقْضـاً لِمِيثَاقِـهِ...).

وقـد حـذر أمـير المؤمنـين عليه السلام مـن التقييـم التابـع للفكـر الفرعـوني القـاروني، الـذي يـرى امتـلاك زخـارف الدنيـا كرامـة، وعدمهـا إهانـة، في الخطبـة (١٦٠) وبعـد أن يذكّـر بسـيرة بعـض الأنبيـاء، وعـدم تعلّـقهم بالرفـاه المـادي، وعـدم سـعيهم نحـو الحيـاة المترفـة، يذكّـر بالرسـول الأعظـم ويدعـوا إلى التـأسّي بـه، ويقـول: (...عُرِضَـتْ عَلَيْـهِ الدُّنْيَـا فَأَبَـى أَنْ يَقْبَلَهَـا، وَعَلِـمَ أَنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ أَبْغَـضَ شَـيْئاً فَأَبْغَضَـهُ، وَحَقَّـرَ شَـيْئاً فَحَقَّـرَهُ، وَصَغَّـرَ شَـيْئاً فَصَغَّـرَهُ. وَلَـوْ لَمْ يَكُـنْ فِينَـا إِلاَّ حُبُّنَـا مَـا أَبْغَـضَ اللهُ وَرَسُـولُهُ، وَتَعْظِيمُنَـا مَـا صَغَّـرَ اللهُ وَرَسُـولُهُ، لَكَفَـى بِـهِ شِـقَاقاً للهِ، وَمُحَادَّةً عَـنْ أَمْـرِ اللهِ...).

وبعـد أن يذكـر عليه السلام بعـض المشـاهد مـن سـيرة النبـي الأكـرم، الدالـة عـلى

أخلاقه السامية وتواضعه وزهده وتنفّره من مظاهر التسلّط والترف والزينة والزخارف المادية، فيقول عليه السلام: (...فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَاللهِ الْعَظِيمِ ـ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ...).

فهذه دعوة من أمير الدين والإيمان والولاية، للتفكّر والنظر بعقولنا إلى ما يفعل الله سبحانه بأحبِّ الخلق إليه، وأكرمهم عليه، كي نخرج بمفردة ثقافية مجتمعية مهمة في تشخيص الكرامة والإهانة...

وهي أنّ كرامة الإنسان ليست بامتلاك المظاهر الدنيوية، كما إنّ إهانته ليس بحرمانه منها، وهذه هي ثقافة المجتمع المحمدي العلوي، وأما احترام الزخارف ومظاهر الترف والزينة والاستهلاك ومتابعة الموضات وامتلاك الدور الفخمة والقصور والحراسات المشددة وإكرام أصحابها، فهذه ثقافة إذا سادت في المجتمع وحكمت على الأذهان، تسلط عليه فرعون وقارون وأمثالهم من الطغاة.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك في سورة الزخرف والقصص: ﴿...وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1].

هكذا وبهذه الطريقة استخف فرعون بعقول قومه فأطاعوه، لأنه استطاع أن يجعل الموازين التي تحكم على عقولهم هي موازين المظاهر المادية، وإنّها المقياس للشرف والعزّة والكرامة.

١- الزخرف: ٥١ - ٥٤.

وكذلك في سورة القصص: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]، حيث نرى أن أصحاب الموازين المادية قد تأثّروا بهذا الاستعراض الذي قام به قارون وانبهروا بمظاهر الزينة وبهارج الذهب والفضة، ولكن في المقابل فإنّ أصحاب الموازين الحقيقية والذين سمّاهم القرآن بأنهم الذين أوتوا العلم، لم ينخدعوا بقارون وزينته وكنوزه وقالوا: ﴿...وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[2]، وفي النتيجة النهائية كانت العاقبة لأصحاب العلم والمعرفة الحقيقية، وأمّا أصحاب الموازين الوهمية فقد كان عاقبتهم الخسف والهلاك والندم: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

الخامس: التفكير التعميمي:

وهو نحوٍ من التفكير الخاطئ الذي يؤدي إلى نتائج كارثية على المجتمع، حيث يظلم الكثير من الناس، ويحرم الناس من الكثير من الطاقات والكفاءات، بسبب الأحكام الجائرة التي تصدر عليهم نتيجة التفكير التعميمي الخاطئ، ناهيك عن العقائد الخاطئة التي ينتجها هذا النحو من التفكير...

والتعميم هو الحكم على الكل بصفة جزء من أجزائه، أو إعطاء حكم الخاص للعام، وفيه أقسام كثيرة منها:

١- القصص: ٧٩.
٢- القصص: ٨٠.
٣- القصص: ٨١،٨٢.

١- **التعميم على النفس**: بأن يحكم الإنسان على نفسه بأنّه إنسان فاشل لا يستطيع أن يعمل شيئاً، أو أنه غبي لا يستطيع أن يفهم، ولن يستطيع أن يتغلب على المشاكل بسبب فشله في حادثة أو حالة أو مسألة علمية لم ينجح فيها، فيصاب بالإحباط واليأس الذي يؤدي إلى الانطواء والقلق والكآبة التي تؤدي إلى الأمراض النفسية والعقلية والجنون والانتحار... وفي المقابل ايضاً قد يقوم الإنسان بتعميم حالة نجاح، أو عمل قام به على سائر أعماله وصفاته، ويرى نفسه كاملاً، ويصاب بالعجب والتكبر والأنانية، التي تجعله ينظر إلى الآخرين بعين الاستعلاء والاستعباد، وهذا أيضاً تعميم يؤدي إلى تدمير الشخص أو جعله عنصراً مدمّراً للمجتمع، ومصدراً للكراهية والبغضاء والعداوة.

٢- **التعميم على الآخرين**، بأن تحكم على شخص آخر بعمل خاطيء صدر منه، أنّه إنسان سيّء، وتقطع علاقتك معه، وقد تكون سبباً في قطع علاقات الآخرين معه أيضاً، أو ترى منه عملاً يعجبُك وتحكم عليه أنّه إنسان مقدّس، وتعتمد عليه في أمور تحتاج للتثبّت والاطمئنان إلى الكفاءة فيها، وهذا التعميم يؤدي إلى حرمان المجتمع من الكثير من الطاقات والكفاءات التي كان ينبغي اعطاؤها الفرصة لتفعيل قابلياتها، وتحويل الفشل والخطأ إلى نجاح وتفوّق، وكذلك يجعل الأشخاص غير المناسبين في مقامات لا تناسبهم.

٣- **التعميم على الجماعات**: كالحكم على أهل قرية أو قبيلة أو مدينة أو محلة أو بلد أو قومية، بصفات أو أعمال شخص أو مجموعة أو أشخاص تابعين لهم، وهذه من التعميمات الشائعة جداً في مجتمعنا اليوم، وقد أدّت إلى تفكك أواصر المجتمع، ونشوء حالة التعصب المناطقي والقومي والقبلي والحزبي، ومن أمثلة هذا النوع من التعميم، الحكم على كل رجال الدين بحكم سلبي أو إيجابي، أو الحكم على كل أصحاب بعض المهن كالأطباء أو سواق السيارات

أو شـيوخ العشـائر أو المسـؤولين والمتصدّيـن، بأحـكام سـلبية أو إيجابيـة، وبالنتيجـة يحـرم المجتمـع مـن البحـث عـن أصحـاب الكفـاءات الواقعيـة، ويجعـل مقيـاس حكمـه عـلى الأشـخاص حسـب انتمائهـم الجغـرافي والإداري والفئـوي أو المهنـي، كـما يحـرم المجتمـع مـن الكثـير مـن علمائـه وعقلائـه وأخيـاره و...، بسـبب إسـاءة بعـض مـن تلبّـس بلباسـهم وادعـى الانتسـاب إليهـم.

٤- **التعميـم التاريخـي**: وهـو أن نحكـم عـلى الأجيـال اللاحقـة مـن الأمـم بذنـب آبائهـا وأجدادهـا، فـإذا كان أهـل الكوفـة قـد شـاركوا في قتـل الإمـام الحسـين عليه السلام، فهـل هـذا يعنـي أنّ أهـل الكوفـة المعاصريـن يتحمّلون ذنـب آبائهـم؟ نعـم إذا كانوا راضـين بفعـل آبائهـم، فهـم مشـتركون معهـم في الجريمـة طبقـاً لقانـون (مَـنْ رضى بعمـل قـوم أشرك في عملهـم)، ولكـن ليـس كل أهـل الكوفـة كانـوا راضـين بقتـل الإمـام الحسـين سـلام الله عليـه، لا في زمـن الجريمـة ولا بعـده، وإذا كان هنـاك كلام ينتقـد أهـل الكوفـة مـن قبـل الإمـام أمـير المؤمنـين في نهـج البلاغـة، أو مـن قبـل الإمـام السـجاد، أو السـيدة زينـب سـلام الله عليهـا، فهـذا ينحـصر في المتقاعسـين عـن نـصرة الإمـام عـلي عليه السلام، والمشـاركين في واقعـة الطـف مـع يزيـد وابـن زيـاد، وكذلـك الراضـين والمتعاونـين معهـم، ولا يصـح التعميـم لغيرهـم، وأوضـح دليـل عـلى عـدم جـواز التعميـم هـو أنّ أنصـار الإمـام الحسـين أكثرهـم مـن أهـل الكوفـة والعـراق، وكذلـك الأنصـار الذيـن قامـوا بالثـورات والانتفاضـات بعـد واقعـة كربـلاء، كان أكثرهـم مـن أهـل الكوفـة والعـراق.

٥- **تعميـم درجـة الحكـم بالعـداء**: وهـو تعميـم خطـر عـلى الثقافـة المجتمعيـة، وينبغـي الاهتـمام بـه وتثقيـف الأمّـة عـلى تشـخيص درجـة الحكـم عـلى الآخريـن، وإنّهـا تختلـف مـن شـخص إلى آخـر اختـلاف السـماء عـن الأرض، والخطـأ في هـذا التشـخيص أدّى إلى تمزيـق الأمّـة، وإلى تقاتلهـا فيـما بينهـا أحيانـاً، وإلى ضعفهـا الـذي مكّـن الأعـداء منهـا، ولأجـل توضيـح هـذه المسـألة الهامّـة نقـول:

إنّ الناس الذين ترتبط بهم ينقسمون إلى أقسام:

١- الإنسان الذي يشترك معك في العقيدة والفكر، وكذلك في العمل وكذلك في النتيجة، أي إنّه عمل من أجل الهدف، وتحقق الهدف أو بعض درجاته على يديه.

٢- الإنسان الذي يشترك معك في العقيدة والفكر والعمل، وقام بما يجب عليه وسعى نحو النتيجة، ولكن لم تتحقق النتائج على يديه، رغم أنّ عمله كان صحيحا، ودعا الناس إلى الأفكار والوسائل الصحيحة، وأكثر الأنبياء أو كلهم من هذا القسم.

٣- الإنسان الذي يشترك معك في العقيدة، ولكنه أخطأ في العمل والخطوات اللازمة للوصول إلى النتيجة.

٤- إنسان لا يشترك معك في كل العقائد والأفكار، ولكنه يشترك معك في العقائد الأساسية، ويمكن أن يقف معك في مواجهة عدو العقائد والأهداف المشتركة.

٥- إنسان مخالف ولا يشترك معك في العقيدة، ولكنه لا يريد القضاء عليك، ويحترمك كإنسان في مقابل إنسان.

٦- إنسان يشترك معك ويعمل لأهدافك أو لبعض أهدافك، ولكنه مخالف لشخصك ويرى أنّك غير صالح لعملك.

٧- إنسان لا يشترك معك في شيء، ولا يحترمك ويريد القضاء عليك وعلى عقيدتك وأهدافك.

والعدو الذي نحكم عليه بوجوب المواجهة، بعد إعداد القوة اللازمة والشروط المطلوبة هو القسم السابع فقط. وأمّا بقيّة الأقسام فأمّا أخ لنا في

الديــن أو نظـير لنـا في الخلـق والإنسـانية، ومَــنْ يشـترك معنـا في العقيـدة ولكنـه مخطـئ في العمـل، فعلينـا أن نصحـح خطـأه بأحسـن الأسـاليب، وكذلـك مَـنْ يشـترك معنـا في بعـض العقائـد الأساسـية ويكـون لنـا عونـاً وحليفـاً في مواجهـة أعـداء أساسيّـات الديـن والأخـلاق والثوابت الإنسـانية والوطنيـة، وأمّـا إذا أردنا أن نحاسـب النـاس عـلى نتائـج أعمالهـم، ونحمّـلهم عـدم تحقـق النتيجـة كـما يفعـل البعـض، فـإنّ عـلى هـؤلاء أن يحاسـبوا جميـع الأنبيـاء ويعتبروهـم (العيـاذ بـالله) خاطئـين.

ولكـن مـع الأسـف فإننـا نجـد في ثقافتنـا المجتمعيـة ممَـن يعمّـم درجـة الحكـم الخاصّـة بالقسـم السـابع، عـلى سـائر الأقسـام أو أكثرهـا، ويعتبرهـم مقصّريـن أو خارجـين مـن الديـن ويتخـذ منهـم موقفـاً عدائيّـا.

والصحيـح هـو أن نـترك هـذا التعميـم الظـالم، ونشـارك جميع الأقسـام في تشـكيل جبهـة مشـتركة، في مواجهـة القسـم السـابع، وهـو العـدو اللـدود الـذي يريـد القضـاء عـلى الجميـع، وهكـذا كانـت سـيرة أمـير المؤمنـين عليه السلام مـع مخالفيـه، وكذلـك سـائر الأئمّـة الطاهريـن عليهـم السـلام، وسـيرة أمـير المؤمنـين مـع الخلفـاء تشـهد عـلى هـذا المنهـج في التعامـل، ويوضـح ذلـك ويقـول في الخطبـة (٧٤):

(لَقَـدْ عَلِمْتُـمْ أَنِّي أَحَـقُّ بِهَـا مِـنْ غَـيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْـلِمَنَّ مَـا سَـلِمَتْ أُمُـورُ الْمُسْـلِمِينَ، وَلَمْ يَكُـنْ فِيهِـا جَـوْرٌ إِلاَّ عَـلَيَّ خَاصَّـةً، اَلْتِمَاسـاً لِأَجْـرِ ذلِـكَ وَفَضْلِـهِ، وَزُهْـداً فِيَـما تَنافَسْـتُمُوهُ مِـنْ زُخْرُفِـهِ وَزِبْرِجِـهِ).

السادس: التفكير المتشابه:

وهو التفكير الذي يصنع الشبهة واللبس، ويؤدي إلى انحراف الناس عن الحق والطريق الصحيح، وافتتانهم بالباطل واتباعهم له، لتلبّسه بلباس الحق أو رفعه شعاره ومظاهره، ويمكن أن نسمّي هذا النوع من التفكير بفن صناعة الشبهة عند عوام الناس، أو تفكير الفتنة أو تفكير التلبيس والخلط بين الحق والباطل.

وقد أوضحه امير المؤمنين عليه السلام في قوله في الخطبة (٣٨): (وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ الله فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ الله فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى...).

وفي الخطبة (٥٠) أوضح طريقة صناعة الشبهة التي تؤدي إلى الفتن والنزاعات، فقال عليه السلام: (إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ الله، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَى غَيْرِ دِينِ الله، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ(١)، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ; وَلكِن يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ (٢)، وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو (الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الله الْحُسْنَى).

فالمصدر لترويج مثل هذا التفكير وإلقائه على العوام، هم أصحاب الأهواء والبدع والمراكز الثقافية والمؤسسات الإعلامية ووسائل التواصل المضَلِّلة، التي تهدف إلى حرف الناس عن الدين الصحيح ومصدره وقيادته الحقيقية، فيمزجون الحق بالباطل، والناس غالبا ما يُخدعون بكلمة وشعار الحق، ويمرّرون الباطل ويتبعونه، وينصرونه ملفوفاً ومتلبساً بشعار وشعائر الحق. وهناك أقسام عديدة لهذا التفكير منها:

١ـ استنتاج الباطل من شعار الحق:

كــما في الشــعار الــذي رفعــه الخــوارج في مقابــل أمــير المؤمنــين ﷺ، والــذي أوضحـه في الخطبـة (٤٠) بقولـه: (كَلِمَـةُ حَـقٍّ يُـرَادُ بِهَـا بَاطِـلٌ نَعَـمْ إِنَّـهُ لَا حُكْـمَ إِلَّا للهِ وَلَكِـنَّ هَـؤُلَاءِ يَقُولُـونَ لَا إِمْـرَةَ إِلَّا للهِ...).

صانعــوا هــذه الشــبهة هدفهــم هــو إبعــاد أمــير المؤمنــين عــن إمــرة المؤمنــين، وشـعارهم هـو (لا حكـم إلاّ لله)، وهـذا الشـعار في ذاتـه صحيـح، لكـن تـم توظيفه خلافـاً لمـا أريـد منـه، فشـعار (لا حكـم إلاّ لله) بنفسـه يثبـت الولايـة لعـليٍّ ﷺ، لأنّ حكـم الله يحتـاج إلى العـالم بـه، والمطبّـق لـه عـلى الأرض بكل قـوة وشـجاعة، وأعلم النـاس بحكـم الله، وأقواهـم عـلى تنفيـذه هـو عـلي أمـير المؤمنـين، ولكـن عندمـا يكـون العقـل ضعيفـاً متجمـداً، والجهـل حاكـماً، فـإنّ الشـعار الجميـل يمـر دون أن يتـم التفكـير بـه وبلوازمـه ونتائجـه، وينفِّـذ صانعـوا الشـبهة والفتنـة مراحـل مؤامرتهـم الأخـرى دون أن يشـعر أو يلتفـت المخدوعـون، وبالنتيجـة يُـقتل أعلـم النـاس بحكـم الله واتقـى وأزهـد وأعـدل وأشـجع النـاس في الله باسـم حكـم الله.

وفي زمننـا هـذا فـإنّ البعـض يطرحـون عـلى النـاس شـعار التبعيّـة لأهـل البيـت، وعـدم الحاجـة إلى المراجـع والفقهـاء، والهـدف هـو ضيـاع الأمّـة وتيههـا وركوبهـا الأهـواء والآراء في معرفـة الأحـكام الإلهيّـة، وحتـى لا يكـون للأمـة مرجـع وقائـد يشـخِّص لهـا مـا يريـد القـرآن وأهـل البيـت عليهـم السـلام، ويوحِّدهـا في مقابـل أعدائهـا، وحيـث أنّ النـاس يعجبهـا شـعار أهـل البيـت والاتصـال المبـاشر بهـم دون واسـطة، كـما يطـرح أصحـاب هـذه الشـبهة، لذلـك فـإنّ النـاس أصحـاب العقـول الضعيفـة وغـير المفكـرة يُـخدَعون بهـذا الشـعار، ويمـرر عليهـم الباطـل متلبِّـساً بلبـاس الحـق، ومَـن يفكـر في معرفـة الديـن، يعلـم أن تبعيّـة أهـل البيت تتحقـق بالتبعيّـة للعـالم والخبـير الذي يشخّـص أحاديثهـم ودلالاتهـا ومقاصدها، ويميّـز مـا هـو صحيـح النسـبة إلى أهـل البيـت مـن المكـذوب عليهـم، ممـا وضعـه

الكذابون والطغاة والظالمون، فالتبعية الحقيقية لأهل البيت لا تحصل إلا بالتبعية للمراجع والفقهاء والعلماء المجتهدين العارفين، ولهؤلاء المراجع إضافة إلى تعليمنا الدين الصحيح، الدور الكبير في توحيد كلمة الأمّة وحفظها من الاختلاف والتمزق، وبيان موقفنا تجاه الأعداء، الذين يهاجمون الإسلام وأهله وثقافته وفكره بين الحين والآخر، فمن كان صادقاً في التبعية لأهل البيت، لابد أن يبحث عن العالم والمرجع والفقيه الخبير العادل، الذي يكون طريقاً صحيحاً للارتباط بهم والتبعية لهم.

٢ـ التفكير الانتقائي:

من طرق صناعة الشبهة، أن يتم التركيز من قبل البعض على واجب معين أو مستحب أو حتى غير مستحب، ولكنه عمل للتعبير عن الحب والولاء، أو مظهر شعائري وعبادي، كمظاهر الفرح والزينة في مولد النبي، أو مظاهر الحزن في ذكريات شهادة الأئمّة عليهم السلام، والشبهة في هذا الأمر في أن نملأ أذهان العوام بفكرة مفادها أنّ الدين كله يُختزل في هذا العمل وهذا الشعار أو المظهر!!

فيكون المتديّن والملتزم والموالي لأهل البيت والمحترم في المجتمع، هو مَن يقوم بهذه المفردة ويهتم بها، وربما أضاف لها زخارف وزوائد، وبالتدريج تصير الزوائد والزخارف مقدّسة، وعندما تصبح مقدّسة فإنّ كل الطرق والوسائل التي تستخدم لأجلها، تكون مشروعة بل ومقدّسة أيضاً، وبهذا التفكير يتم نسيان الواجبات الأخرى، أو تصبح غير ذات أهمية، كذلك ترتكب المحرمات من أجل هذه المفردة المقدّسة، لأنّ المحرمات عند أصحاب هذا التفكير لا تبقى محرمات، إذا كانت طريقاً نحو ما يرونه مقدساً!

ومن أمثلة هذا النوع من التفكير، الفكر الوهابي الذي يرى كل مَن يخالفه

في آرائـه مـشركاً ويسـتحق القتـل، وكذلـك مـن أمثلتـه مـا يقـوم بـه البعـض مـن أعـمال باسـم الشـعائر الحسـينية، ويسـبب الأذى للإسـلام وأهلـه، والبعـض الـذي يكتفـي في التزامـه الدينـي بصيـام شـهر رمضـان، أو الاشـتغال بالشـعائر الحسـينية خـلال شـهري محـرم وصفـر، أو الذهـاب إلى صـلاة الجمعـة والسـفر إلى الحـج والعمـرة، ويـترك سـائر واجبـات الديـن، ويرتكـب محرماتـه ويخالـف أحكامـه وأخلاقـه وآدابـه.

٣ـ التفكير السطحي:

وهـو التفكـير الـذي يكتفـي بظاهـر الكلـمات التـي تحتـاج معرفـة المقصـود منه إلى الرجـوع إلى غيرهـا مـن الآيـات والروايـات والأدلّـة العقليـة، لكـن أصحـاب هـذا النـوع مـن التفكـير يدغدغـون أذهـان النـاس بظواهـر بعـض النصـوص، وحيـث أن النـاس لا يمتلكـون العقـل المنظومـي الإنتاجـي، الـذي تحدثنـا عنـه سـابقاً، والـذي هـو وظيفـة العلـماء الصادقـين المخلصـين، لذلـك يُخـدع النـاس ويفهمـون الديـن طبقـاً لظاهـر هـذا النـص أو الحديـث الـذي ألقـي عليهـم، فعامـة النـاس لا يعرفـون ان هنـاك مشـابها ومحكـما وعامـا وخاصـا ومطلقـا ومقيـدا ومجمـلا ومبينـا وناسـخا ومنسـوخا، وعـام وخـاص، ومطلـق ومقيّـد، ومجمـل ومبيّـن، وناسـخ ومنسـوخ، وأن هنـاك قضيـة حقيقيـة وقضيـة خارجيـة، وأنّ هنـاك جهـة صـدور وفضـاء صـدور، وأنّ هنـاك سـياقات وقوانـين وقواعـد للـكلام يجـب مراعاتهـا، وأنّ كل هـذه الأمـور يجـب أن تدخـل في عمليـة فهـم النـص حتـى يتـم الاسـتدلال عـلى المقصـود، هـذه الأمـور يعرفهـا العـالم والفقيـه، وكذلـك ينبغـي أن يعرفهـا الخطيـب الـذي يلقـي عـلى النـاس الآيـات والروايـات، مثـل روايـات ثـواب النوافـل والزيـارات والبـكاء وأمثالهـا...، وعليـه أن لا يجعـل النـاس يفهمـون منهـا معانيهـا السـطحية المبتـورة عـن أسسـها وشروطهـا وأهدافهـا، ويكـون إيمانهـم بـلا أسـاس عقائـدي صحيـح، وعملهـم العبـادي بـلا أهـداف، فالدمعـة عـلى مصـاب

سيد الشهداء الحسين عليه السلام، توجب الجنة ونفس المهموم لمصاب أهل البيت عبادة، والخطوة في طريق زيارة الحسين تعدل ثواب العمرة.

هذا بنفسه وارد في الروايات، ولكن هل أنّ المقصود هو الدمعة والحزن والزيارة بلا معرفة وأساس عقائدي، وبلا تفكير في الأهداف من هذه الشعائر؟!

هنا يجب على الخطيب الذي يريد أن يحيي أمر أهل البيت أن يربط هذه الروايات بسائر المنظومة الإسلامية الكاملة للقرآن والعترة، ويجعل الأمة تتمسك بهما كي لا تضل، وأن تبكي وتحزن وتزور على الحسين سيد الشهداء عارفة بحقه عليها، وواعية ماذا تفعل، وأنّ هذه المعرفة وهذا الوعي هو أنّ الإمام الحسين قد ثار وضحّى بكل ما لديه من أجل رفض الطاغوت الأموي الذي أراد تحريف الدين، وتفريغه من محتواه وطمس معالمه وسحق أهدافه، وإنه خرج من أجل إصلاح الأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمّا أن نلقي على الناس معاني سطحية وقشرية للإسلام، والناس يكتفون بها وتصبح هي الميزان للقدسية والاحترام، ويصبح شعور الناس منحصراً بالمسؤولية تجاه هذه القشور، ويفقدون الشعور بمسؤوليتهم تجاه لباب الإسلام وحقائقه وأهدافه التي استشهد لأجلها الإمام الحسين وأهل البيت، وعلى رأسها إقامة العدل ومواجهة الظلم والفساد، فهذا هو التسطيح للإسلام الذي قام به بنوا أمية، ونهض الإمام الحسين عليه السلام وضحى بكل ما لديه من أجل مواجهته، وإعادة بناء الإسلام من جديد بإعادة لبّه وحقيقته ومصالحه وأهدافه.

٤ـ التفكير النتائجي:

وهو التفكير الذي يجعل النتائج والثمار مقياساً على صحّة الأعمال

والمشـاريع والقائمـين عليهـا، وهـذا النـوع مـن التفكـير يسـبب أيضـاً ضيـاع الكثـير مـن الجهـود والأعـمال القيّمـة، وفقـدان الكثـير مـن أصحـاب الكفـاءات والطاقـات وظلمهـم، حيـث يحكـم أصحـاب هـذا التفكـير عـلى أي عمـل لم يحقـق النتيجـة أنّـه عمـل غـير صحيـح بالمـرّة، وأنّ صاحبـه فاشـل وأحيانـاً يحكـم عليـه بالفسـاد أو الظلـم، وهـذا تفكـير مخـادع وغـير صحيـح، لأنّ النتيجـة ليسـت تابعـة في جميـع أسـبابها ومقدماتهـا وأجـزاء علتهـا إلى العامـل، ومـا يرتبـط بـه مـن عمـل، بـل إنّ هنـاك ظروفـاً وشروطـاً موضوعيـةً ترتبـط بغـيره، فـإذا لم تتوفـر فالعمـل قـد لا يحقـق نتائجـه عـلى الأرض، نعـم عـلى ربِّ العمـل وصاحـب المـشروع أن يقـدر هـذه الظـروف قبـل الإقـدام عـلى العمـل، لكـن هـذا التقديـر حتـى وإن كان صائبـاً في بدايـة المـشروع، فليـس بالـضرورة أن يسـتمر عـلى نفـس الدرجـة مـن الصـواب، وقـد يتغـير النـاس ولا يفـوا بوعودهـم لصاحـب المـشروع، أو قـد يحصـل تغيـير مفاجـئ في الظـروف البيئيـة والاجتماعيـة والجويّـة لم تكـن بالحسـبان، فتؤثـر سـلباً عـلى تحقـق النتائـج، فهنـا لم يكـن صاحـب المـشروع مقصّـراً بـشيء، لا في تخطيطـه ولا في عملـه ولا في المقاييـس العقلائيـة لتقديـر الظـروف المحيطـة بالعمـل، والتغيير الـذي أدّى إلى الإخفـاق لم يكـن بسـبب ربِّ العمـل ولا عملـه.

وأكثـر الأنبيـاء لم يحققـوا النتائـج المطلوبـة عـلى الأرض، وانتهـى الأمـر بعصيـان أقوامهـم وتمردهـم ونـزول العـذاب عليهـم، فهـل يصـح أن نحكـم عـلى الأنبيـاء بأنهـم كانـوا فاشـلين! أو أنّ عملهـم كان خاطئـاً؟ أم أن السـبب يرجـع إلى قومهـم وعصيانهـم، عـلى الرغـم مـن أن أنبياءهـم اسـتعملوا معهـم أفضـل وسـائل الدعـوة والهدايـة والإرشـاد.

والخـوارج في زمـن أمـير المؤمنـين ﷺ كانـوا يحملـون هـذا النـوع مـن التفكـير، ولذلـك حمّلـوا أمـير المؤمنـين مسـؤولية هزيمـة صفـين ونتيجـة التحكيـم لصالـح معاويـة، وبـدلاً مـن التفكـير في الأسـباب الحقيقيـة لهـذه الهزيمـة، وهـي غباؤهـم

وجهلهم وانخداعهم برفع المصاحف، وتمرّدهم على إمامهم وقائدهم الحق، نرى أنهم في نهاية الأمر يفكرون تفكيراً نتائجياً، ويعتبرون عليّاً سلام الله عليه هو المسؤول عن ذلك، لأنّه هو القائد والخليفة، وبالتالي تنتهي الأمور إلى أن يُقتل خير أهل الأرض بعد رسول الله صل الله عليه وآله، بسبب هذا التفكير المدمِّر والمغالطة الظالمة، وقد بيّن عليه السلام هذه الحقيقة المؤلمة في كلامه معهم، وتحذيره لهم في الخطبة (٣٥) وفي الخطبة (٣٦) في قوله: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ وَ تُعْقِبُ النَّدَامَةَ وَ قَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ وَ الْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ وَ ضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ فَكُنْتُ أَنَا وَ إِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى *** فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ...).

وفي أيامنا نجد الكثير ممن يقوم بتسقيط الكثير من الرموز والقيادات العلمائية والسياسية والاجتماعية، ويقوم بشحن أذهان المجتمع ضدهم بأفكار مخادعة، ويستخدم التفكير النتائجي لتحقيق هدفه، وذلك بأن يوحي إلى الناس أن سبب جهل وضلال الناس هو عدم قيام المرجع أو العالم الفلاني بدوره، أو الحوزة العلمية بواجبها، وسبب المشاكل والأزمات الاقتصادية أو الأمنية، هو المسؤول الفلاني، أو الحزب الفلاني، أو الطائفة أو القوميّة المعيّنة.

ولا أريد هنا أن أدافع عن الرموز القيادية، لا الدينية ولا السياسية ولا الاجتماعية، ولكن هذا التفكير الذي يحمِّل النتائج السلبية دائماً على المتصدي والمسؤول والقائد، تفكير باطل وظالم! فقد يكون المسؤول قد أدّى دوره بنحو صحيح وسعى سعيه نحو تحقيق النتائج بالنحو المطلوب، لكن هناك من انبرى لمنع وعرقلة تحقق النتائج، لتسقيط هذا الرمز والحلول محله، أو تحقيق أغراض أخرى تم دفعه إليها من قبل الأعداء! واستخدم وسائل إعلامه

المضللــة لترويــج هــذا النــوع مــن التفكــير، ونجــح في تضليــل وخــداع النــاس بــما فيهــم المتدينــين، فصــاروا أدواتــا وجنــودا لــه في تحقيــق غرضــه الخبيــث، وكان المطلــوب مــن المخلصــين للديــن والأمــة والوطــن أن يشــخّصوا بدقــة وموضوعيــة سـبب الإخفـاق، فـإذا كان السـبب هـو غـير المتصـدي، فعـلى الجميـع أن يقـوي ويسـند المتصـدي كـي يسـتطيع تحقيـق الأهـداف ويتغلـب عـلى الموانـع والعقبـات، لا أن يشـاركوا في ظلـم هـذا المتصـدي والـبريء وربـما المخلـص، ويكونـوا سـبباً في اسـتبداله بمسـؤولٍ آخـر سيءٍ أو أسـوأ منـه.

السابع: التفكير التشاؤمي:

وهــو الفكــر الــذي يركــز عــلى الجوانــب الســلبية للأشــياء، ولا يحــاول فهمهــا ليكتشــف حقائقهــا الجميلــة ويظهرهــا للنــاس بصورتهــا الحقيقيــة الجذابــة النافعــة، ولا يعرضهــا إلاّ بصــورة منفّــرة وقبيحــة. فالبعــض مثــلا ينظــر الى جانــب العنــف والانتقــام في احــكام الحــدود والقصــاص والجهــاد والامــر بالمعــروف والنهــي عــن المنكــر، ولا يــرى جانــب ضرورتهــا لإصــلاح المجتمــع، ودورهــا الأســاسي لإقامــة العــدل والقســط وتحقيــق الامــن الاجتماعــي ولمنــع الفســاد والجريمــة.

وحتــى العبــادات كالصــلاة والصيــام والــزكاة والحــج لا يراهــا البعــض الا اعــمالا شــاقة ومضنيــة ناهيــك عــن المحرمــات التــي يراهــا قيــودا واقفــالا واغــلالا وعوامــل منــع وحرمــان مــن اللــذة والســعادة والتحــرر! ولربــما ذهــب أصحــاب هــذا النحــو مــن التفكــير الى ان الإســلام لا يطبــق الا بالقــوة والســيف وان الديــن عندهــم في احســن صــوره عبــارة عــن تــرك الحيــاة والســعادة الدنيويــة مــن اجــل نيــل ســعادة أخــرى بعــد المــوت.

وهــذا النحــو مــن التفكــير يبعــد النــاس ولاســيما الشــباب عــن الديــن ويجعلهــم يعتقــدون انــه نظــام يلغــي الحيــاة ويحــرم الانســان مــن الســعادة.

وهذا النحو من الفكر ناشئ عن فهم قاصر للدين وقد واجه القران الكريم ونهج البلاغة هذا التفكير التشاؤمي السلبي والتقبيحي. فالقران عبر عن الأوامر والنواهي الإلهية انها مصدر الحياة الحقيقية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[١]

وربط القران الكريم بين الالتزام الكامل بالدين وبين نزول البركات والخيرات والامن والرزق وحل جميع مشاكل البشرية، قال تعالى

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٢]

وقال تعالى﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[٣]

وقال تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[٤] أي نعمة كثيرة

وخلافا لما يتصور البعض في القصاص انه عامل موت وهلاك فقد وصفه القران انه عامل حياة للمجتمع

قال تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٥] وان إقامة الحدود هدفها رفع الظلم عن المجتمع

١- الانفال ٢٤
٢- الأعراف ٩٦
٣- الطلاق ٣
٤- الجن ١٦
٥- البقرة ١٧٩

قـال تعـالى ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] ومـن يسـبر غـور آيـات القـران وكلـمات نهـج البلاغـة فانـه سيكتشـف ان الإسـلام ديـن الحيـاة الطيبـة والدولـة الكريمـة وديـن المحبـة والامـن والسـلام وتحطيـم الاغـلال والجـدران والانطـلاق في الافـاق المفتوحـة.

وقـد عالـج نهـج البلاغـة هـذا التفكـير التشـاؤمي ككل، وأوضـح لنـا حقيقـة الإسـلام أنـه ديـن الحيـاة والمحبـة والتحـرر وتحطيـم الأغـلال والانطـلاق في الآفـاق المفتوحـة نحـو اللـذات العاليـة الحيـاة الأبديـة، وليـس ديـن القيـود والأثقـال والعنـف، نعـم هـو ديـن الشـعور بالمسـؤولية تجـاه العبـاد والبـلاد والبقاع والبهائـم، وإنّ الإنسـان إذا قـام بهـذه المسـؤولية وحقـق درجـة الفكـر والشـعور والإرادة الإنسـانية التـي يسـميها القـرآن الكريـم بالتقـوى، فـإنّ السـعادة الإنسـانية عـلى مسـتوى الفـرد والمجتمـع سـوف تتحقـق، قـال عـلي عليه السلام في الخطبـة (١٦٨) في أول خلافتـه: (إِنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ أَنْـزَلَ كِتَاباً هَادِيـاً بَـيَّنَ فِيـهِ الْخَـيْرَ وَ الـشَّرَّ فَخُـذُوا نَهْجَ الْخَـيْرِ تَهْتَـدُوا وَ اصْدِفُـوا عَـنْ سَـمْتِ الـشَّرِّ تَقْصِـدُوا الْفَرَائِـضَ الْفَرَائِـضَ أَدُّوهَـا إِلَى اللهَّ تُؤَدِّكُـمْ إِلَى الْجَنَّـةِ إِنَّ اللهَّ حَـرَّمَ حَرَامـاً غَـيْرَ مَجْهُـولٍ وَ أَحَـلَّ حَـلَالًا غَـيْرَ مَدْخُـولٍ وَ فَضَّـلَ حُرْمَـةَ الْمُسْـلِمِ عَـلَى الْحُـرَمِ كُلِّهَـا وَ شَـدَّ بِالْإِخْـلَاصِ وَ التَّوْحِيـدِ حُقُـوقَ الْمُسْـلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَـا فَالْمُسْـلِمُ مَـنْ سَـلِمَ الْمُسْـلِمُونَ مِـنْ لِسَـانِهِ وَ يَـدِهِ إِلَّا بِالْحَـقِّ وَ لَا يَحِـلُّ أَذَى الْمُسْـلِمِ إِلَّا بِـمَا يَجِـبُ بَـادِرُوا أَمْـرَ الْعَامَّـةِ وَ خَاصَّـةَ أَحَدِكُـمْ وَ هُـوَ الْمَـوْتُ فَـإِنَّ النَّـاسَ أَمَامَكُـمْ وَ إِنَّ السَّـاعَةَ تَحْدُوكُـمْ مِـنْ خَلْفِكُـمْ تَخَفَّفُـوا تَلْحَقُـوا فَإِنَّـمَا يُنْتَظَـرُ بِأَوَّلِكُـمْ آخِرُكُـمْ اتَّقُـوا اللهَّ فِي عِبَـادِهِ وَ بِـلَادِهِ فَإِنَّكُـمْ مَسْـئُولُونَ حَتَّـى عَـنِ الْبِقَـاعِ وَ الْبَهَائِـمِ أَطِيعُـوا اللهَّ وَ لَا تَعْصُـوهُ وَ إِذَا رَأَيْتُـمُ الْخَـيْرَ فَخُـذُوا بِـهِ وَ إِذَا رَأَيْتُـمُ الـشَّرَّ فَأَعْرِضُـوا عَنْـهُ).

وحـول تأثـير التقـوى عـلى الفـرد والمجتمـع، فـإنّ نهـج البلاغـة لم يؤكـد عـلى

١- البقرة ٢٢٩

مسألة بعد التوحيد ومعرفة الله كما أكّد على التقوى وضرورتها وآثارها، ولعل أكثرها تفصيلاً خطبة المتقين (١٩٣) على المستوى الفردي، والخطبة (١٩٨) على المستوى الاجتماعي، وفيها يقول عليه السلام: (...فَإِنَّ تَقْوَى اللهَّ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ وَ بَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وَ شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وَ صَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وَ طُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ وَ جِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ وَ ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهَّ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ وَ دَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ وَ لَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ وَ أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ وَ مَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ وَ شَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ وَ جُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ وَ مَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ وَ سَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ وَ نَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ فَإِنَّ طَاعَةَ اللهَّ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ وَ مَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ وَ أُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا وَ احْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا وَ انْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا وَ أَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا وَ هَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا. وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا وَ تَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا وَ وَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا فَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ وَ وَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ وَ امْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ وَ اخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ).

وهذه الآثار العظيمة للتقوى تعتمد على تحقيق التقوى بمعناها الشامل الذي أساسه معرفة الله والنفس والكون، والشعور بالمسؤولية تجاه العباد والبلاد والبقاع والبهائم، أي البيئة والحيوان النبات والبر والبحر والفضاء، وهذه المسؤولية لا تتحقق إلاّ بالبحث والتحقيق والتطوير والاستثمار والإنتاج بأعلى وأكمل وأتقن الدرجات، والاستهلاك الأمثل والتوزيع الأعدل، عندها تظهر آثار الإيمان والتقوى على الفرد والمجتمع وتتحقق السعادة بمعناها الواسع الشامل الكامل الذي يلغي كل عوالم الخوف والحزن والشقاء ويحول الموت والفناء الى خلود وبقاء.

وعندمـا تظهـر آثـار الإيـمان والتقـوى عـلى المجتمـع تتحـول الدنيـا إلى دارٍ جميلـة، ويراهـا الإنسـان بوابـة للحيـاة الحقيقيـة الأبديـة، ولذلـك لم يقبـل أمـير المؤمنـين الـذم المطلـق للدنيـا، واسـتنكر هـذا الـذم وذكـر صفاتهـا الحسـنة في الحكمـة (١٣١): (وَقَـالَ عليه السلام وَ قَـدْ سَـمِعَ رَجُـلًا يَـذُمُّ الدُّنْيَـا: أَيُّهَا الـذَّامُّ لِلدُّنْيَـا الْمُغْـتَرُّ بِغُرُورِهَا الْمَخْـدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَـا أَ تَغْـتَرُّ بِالدُّنْيَـا ثُـمَّ تَذُمُّهَـا أَنْـتَ الْمُتَجَـرِّمُ عَلَيْهَـا أَمْ هِـيَ الْمُتَجَرِّمَـةُ عَلَيْـكَ مَتَـى اسْـتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَـى غَرَّتْـكَ أَ بِمَصَـارِعِ آبَائِـكَ مِـنَ الْبِـلَى أَمْ بِمَضَاجِـعِ أُمَّهَاتِـكَ تَحْـتَ الثَّـرَى كَـمْ عَلَّلْـتَ بِكَفَّيْـكَ وَ كَـمْ مَرَّضْـتَ بِيَدَيْـكَ تَبْتَغِـي لَهُـمُ الشِّـفَاءَ وَ تَسْـتَوْصِفُ لَهُـمُ الْأَطِبَّـاءَ غَـدَاةَ لَا يُغْنِـي عَنْهُـمْ دَوَاؤُكَ وَ لَا يُجْـدِي عَلَيْهِـمْ بُـكَاؤُكَ لَمْ يَنْفَـعْ أَحَدَهُـمْ إِشْـفَاقُكَ وَ لَمْ تُسْـعَفْ فِيـهِ بِطَلِبَتِـكَ وَ لَمْ تَدْفَـعْ عَنْـهُ بِقُوَّتِـكَ وَ قَـدْ مَثَّلَـتْ لَـكَ بِـهِ الدُّنْيَـا نَفْسَـكَ وَ بِمَصْرَعِـهِ مَصْرَعَـكَ إِنَّ الدُّنْيَـا دَارُ صِـدْقٍ لِمَـنْ صَدَقَهَـا وَ دَارُ عَافِيَـةٍ لِمَـنْ فَهِـمَ عَنْهَـا وَ دَارُ غِنًـى لِمَـنْ تَـزَوَّدَ مِنْهَـا وَ دَارُ مَوْعِظَـةٍ لِمَـنِ اتَّعَـظَ بِهَـا مَسْـجِدُ أَحِبَّـاءِ اللَّهِ وَ مُصَـلَّى مَلَائِكَـةِ اللَّهِ وَ مَهْبِـطُ وَحْـيِ اللَّهِ وَ مَتْجَـرُ أَوْلِيَـاءِ اللَّهِ اكْتَسَـبُوا فِيهَـا الرَّحْمَـةَ وَ رَبِحُـوا فِيهَـا الْجَنَّـةَ فَمَـنْ ذَا يَذُمُّهَـا وَ قَـدْ آذَنَـتْ بِبَيْنِهَـا وَ نَـادَتْ بِفِرَاقِهَـا وَ نَعَـتْ نَفْسَـهَا وَ أَهْلَهَـا فَمَثَّلَـتْ لَهُـمْ بِبَلَائِهَـا الْبَـلَاءَ وَ شَـوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَـا إِلَى الـسُّرُورِ رَاحَـتْ بِعَافِيَـةٍ وَ ابْتَكَـرَتْ بِفَجِيعَـةٍ تَرْغِيبـاً وَ تَرْهِيبـاً وَ تَخْوِيفـاً وَ تَحْذِيـراً فَذَمَّهَـا رِجَـالٌ غَـدَاةَ النَّدَامَـةِ وَ حَمِدَهَـا آخَـرُونَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ذَكَّرَتْهُـمُ الدُّنْيَـا فَتَذَكَّـرُوا وَ حَدَّثَتْهُـمْ فَصَدَّقُـوا وَ وَعَظَتْهُـمْ فَاتَّعَظُـوا.

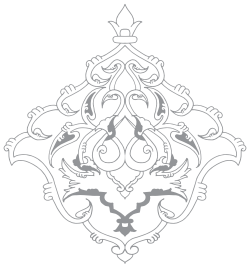

الثامن: التفكير الانهزامي:

وهو التفكير الذي يزرع بالنفس الشعور بالدونية والضعف والحقارة والإحباط وعدم القدرة على التغيير.

والسبب في هذا التفكير هو جهل وغفلة الانسان عن مسؤوليته عن التغيير وامتلاكه القدرة على ذلك، فهو عندما يرى هيمنة أصحاب القوة والمال يحسبهم انهم الرب الواحد القهار وعندما يرى سيطرة الظلم والفساد على مفاصل الحياة ينظر اليها كالقدر الحتمي الذي لا يمكن ان يتغير وكانه الجبال الرواسي التي لا تهتز واحيانا ينظر الى مهنة او حرفة ورثها من ابيه واجداده وكأنها قد ولدت معه تكوينيا من نطفة أبيه.

وقد اسهم هذا التفكير الكارثي في سيطرة فرد او مجموعات قليلة ودول صغيرة على شعوب وامم كبيرة واستعبادها واذلالها والتحكم بمصائرها، وقد شخص امير المؤمنين عليه السلام علة هذا الروح الانهزامية والشعور بالدونية والضعف في خطابه لأهل الكوفة في الخطبة ٢٧ حين قال (فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ).

كما في الخطبة ٦٦ (أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ)،

وفي الخطبة ٢٩ (لاَ يَمنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ! وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَ بِالْجِدِّ)!

وفي الخطبة ٣٤ (غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ)!

هذه الانوار العلوية تكشف لنا ان أسباب هزيمة المجتمعات والامم هي:

١- عـدم الشـعور بالمسـؤولية الـذي عـبر عنـه بالتـواكل، أي ان كل فـرد لا يـرى نفسـه مسـؤولا عـن تغيـير الوضـع الفاسـد ومواجهتـه ويـرى ذلـك انـه وظيفـة وتكليـف عـلى الاخريـن. وهـذه الـروح الاتكاليـة لا تجلـب الهزائـم السياسـية والعسـكرية وتسـلط الأعـداء والطغـاة فحسـب، بـل هـي تجعـل المجتمـع متخلفـا حتـى في مجـال الاقتصـاد والصحـة ونظافـة البيئـة أيضـا، فـترى البعـض يـرى الاوسـاخ في الشـارع وامـام بيتـه ولا يسـاهم او تجميعهـا في المـكان المحـدد لهـا ويقـول انهـا تكليـف الحكومـة او البلديـة او الاخريـن.

وقـد عالـج امـير المؤمنـين ﷺ هـذا المـرض الاجتماعـي الفتـاك في اول خطـب لـه في خلافتـه عندمـا قـال ﷺ في الخطبـة ١٦٧ (اتَّقُـوا اللهَ فِي عِبَـادِهِ وَبِـلاَدِهِ، فَإِنَّكُـمْ مَسْـؤُولُونَ حَتَّـى عَـنِ الْبِقَـاعِ وَالْبَهَائِـمِ،)

٢- التخـاذل وهـو شـعور الفـرد بالعجـز وعـدم القـدرة عـلى التغيـير والمواجهـة ونقـل هـذا الشـعور المثبِّـط؛ الى الاخريـن فهـو يرفـع شـعار (لا اسـتطيع) او (لا نستطيع) او (لا يمكن) او (يستحيل).

ففـي مواجهـة الطغـاة والمفسـدين والمحتلـين يقـول البعـض: لا نسـتطيع ان نفعـل شـيئا وعلينـا ان نكـون تابعـين اذا اردنـا ان نعيـش وفي مجـال الاقتصـاد يقـول لا نسـتطيع ان نصنـع وننتـج والغـرب يجـب ان يصنـع وينتـج ونحـن مَـنْ نسـتهلك، والغـرب يجـب ان يكتشـف ويخـترع ونحـن نسـتورد والغـرب يجـب ان يفكـر وينتج العلـم بـدلا عنـا ونحـن يجـب ان نكـون غلمانـا لبنـات أفكارهـم ويتفضـل علينـا الغـربي ان سـمح لنـا ان نتعلـم نظرياتـه وندرسـها كالببغـاوات وربـما درسـناها بعـد ان درسـت وبلـت وثبـت فشـلها وبهـذا الفكـر الـدوني التحقـيري التثبيطـي الـذي سـاد عـلى اذهاننـا وامـات عقولنـا اسـتطاعت جزيـرة صغـيرة في أوربـا اسـمها

(بريطانيا) ان تحكمنا قرونا من الزمن وأصبح مثلنا الأعلى وقدوتنا ورمز سعادتنا هو (لندن)، وتقر اعيننا وتطمئن قلوبنا اذا راينا على الأشياء عبارة (Made in England).

ولم نكتف بالتبعية لهم في السياسة والاقتصاد بل صرنا نقلدهم ونفتخر بتقمص اشكال ثيابهم وفساتين نسائهم وبناطيلهم واحذيتهم وتسريحات وقصات شعورهم واغانيهم ورقصاتهم وصرنا نستبق ونتفاخر باقتناء مصنوعاتهم والتشبه بهم في كل شيء حتى هيمنوا علينا وتحكموا بمصيرنا وسلبونا كل شيء.

وهل هيمنوا علينا واستعمرونا في عقر دارنا لانهم يملكون العلم والصناعة والسلاح ونحن لا نملك؟

كلا فليس هذا هو السبب الأساسي انما هو سبب فاعليتهم والفاعلية وحدها لا تكفي لاستعمارنا اذا لم تنضم اليها قابليتنا للاستعمار والاستعباد، هذه القابلية التي نشأت من شعورنا اننا لا نستطيع ان نفكر ولا نستطيع ان نكتشف ونخترع ونصنع ونزرع ولا نستطيع ان ندافع بل لسنا مسؤولين عن ذلك!

وقد تنبه المفكر الجزائري (مالك بن نبي) الى هذا المعنى الهام وقال في كتابه (شروط النهضة): (وليس ينجو شعب من الاستعمار الا اذا نجت نفسه من ان تخنع لذل مستعمر وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار.

ولا يذهب كابوس الاستعمار عن الشعب بكلمات أدبية او خطابية، وانما بتحول نفسي يصبح معه الفرد شيئا فشيئا قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعية جديرا بان تحترم كرامته وحينئذ ارتفع عن قابليته للاستعمار وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله وتمتص دمه).

وقـال في موضـع اخـر مـن الكتـاب ان القضيـة عندنـا منوطـة أولا بتخلصنـا ممـا يسـتغله الاسـتعمار في انفسـنا مـن اسـتعداد لخدمتـه مـن حيـث نشـعر او لا نشـعر، ومـا دام لـه سـلطة خفيـة عـلى توجيـه الطاقـة الاجتماعيـة عندنـا وتفتيتهـا وتبديدهـا وتشـتيتها عـلى أيدينـا فـلا رجـاء في اسـتقلال ولا امـل في حريـة مهـما كانـت الأوضـاع السياسـية، وقـد قـال احـد المصلحـين: اخرجـوا المسـتعمر مـن أنفسـكم يخرج من أرضكم)[1].

ومـن المؤسـف جـدا ان يكـون الخطـاب الدينـي الفـارغ مـن الـروح الإلهيـة المحمديـة العلويـة هـو الـذي اسـهم بدرجـة كبـيرة بتأسـيس هـذا الثقافـة التخاذليـة الانهزاميـة وهـو خطـاب اغفـل تربيـة المسـلم عـلى تفعيـل عوامـل قوتـه وعزتـه وكرامتـه، هـو الخطـاب الـذي اهمـل (انتـم الاعلـون ان كنتـم مؤمنـين) و (كلمـة الله هـي العليـا) و (لـن يجعـل الله عـلى للكافريـن عـلى المؤمنـين سـبيلا)، (ولا ينبغـي للمؤمـن ان يـذل نفسـه)، (هيهـات منـا الذلة يأبـى الله ذلك لنـا ورسـوله و المؤمنون) وهـو خطـاب لم يوجـه نفوسـنا نحـو اسـتقذار واسـتقباح الفـرار والانهـزام امـام الأعـداء واسـتهجان الـذل والهـوان الحاصـل مـن الخنـوع الى الأعـداء والنظـر اليـه بانـه عـار في الدنيـا وعـذاب في الاخـرة وهـو خطـاب امـير المؤمنـين الـذي يقـول: (فـوالله مـا غـزي قـوم في عقـر دارهـم الا ذلـوا) وهـو القائـل في الخطبـة ١٢٤. ان الفـرار امـام الأعـداء هـو (إِنَّ فِي الْفِـرَارِ مَوْجِـدَةَ الله، وَالـذُّلَّ الـلاَّزِمَ، وَالْعَـارَ الْبَاقِـيَ)، ولا يختـص هـذا الـذل والعـار في الهزيمـة العسـكرية لان الغـزو والاذلال والاسـتعباد لا ينحـصر في غـزو الأرض انـما يشـمل الاقتصـاد والثقافـة وشـؤون الحيـاة الأخـرى وهـذا مـا اكـد عليـه امـير المؤمنـين في قولـه لاحـد أصحابـه وهـو عامـر الشـعبي: (امنـن عـلى مـن شـئت تكـن اميره واحتـج الى مـن شـئت تكـن اسـيره واسـتغن عمـن شـئت تكـن نظـيره[2]) فـاذا كنـا محتاجـين الى الاخريـن في

١- شروط النهضة مالك بن نبي ص ٣٠-٣١ و ص ١٥٤-١٥٥
٢- بحار الانوار ج ٧١ صفحة ٤١١

اقتصادنا وصناعتنا وعلمنا وفي نظامنا الاداري والسياسي فنحن في المنطق العلوي اسراء وعبيد بأيدي اعداءنا يتحكمون بنا كيف ما يشاؤون.

وبدلا من الثقافة المحمدية العلوية الحسينية التي تصنع الامة العزيزة العالية والدولة الكريمة التي يعز بها الإسلام وأهله ويذل بها النفاق وأهله وتهب للامة كرامة الدنيا والاخرة فان اغلب مراكز صياغة الخطاب الديني في الامة وجهت بوصلتها نحو الثقافة الاموية والعباسية في فهم الإسلام وخرجت علماء وخطباء مترفين عديمي الإحساس والشعور ربوا الناس على دين التمائم والتعاويذ والبركة و(المراد) والجنة التي توهب وتعطى بسخاء في مقابل الترانيم والتراتيل واللقلقات والطنطنات حتى بتنا لا نعي من الإسلام الا اسمه ومن الكتاب الا رسمه وصرنا نصلي صلاة نكذب بها على الله ونخدع بها انفسنا عندما نقف امام الله ونقول له (الحمد لله رب العالمين واياك نعبد واياك نستعين) ولسان حالنا وعملنا وحركة اعضائنا وسياستنا واقتصادنا وثقافتنا تسبح بحمد أعداء الله وتسجد وتركع لهم ولا تعبد سواهم ولا تستعين الا بهم! ليت شعري ماذا ابقينا لله من نعمة نحمده عليها؟ وماذا ابقينا له من ربوبية وتدبير نديره به حياتنا؟ وكل حياتنا مرتبطة بغيره بل خاضعة لأعدائه فاين هي العبودية لله؟ وأين هي الاستعانة بالله؟ الحق اننا اذا اردنا ان نتوب الى الله فعلينا ان نستغفر الله من صلاتنا هذه التي نصليها له ونكذب بها عليه وهكذا تربت لدينا امة تجهل مصادر وعوامل قوتها ولا تشعر بالعزة والكرامة ولا تخجل من التبعية والحاجة الى الاخرين ولا تستقبحها! ومن الطبيعي ان تكون هذه الامة منهزمة بسبب تخاذلها وشعورها بالدونية والحقارة.

٣- الكسل وضعف الهمة وحب الراحة وانتظار حصول النتائج دون الصبر على مقدماتها وشروطها وقد اعطانا باب العلم والحكمة عليه السلام معادلة هامة في

طريـق تحقيـق الأهـداف في قولـه في الخطبـة ٢٩ (وَلاَ يُـدْرَكُ الْحَـقُّ إِلاَ بِالْجِـدِّ!) وقوله في ٤٤٠ (مـا أَنْقَـضَ النَّـوْمَ لِعَزَائِـمِ الْيَـوْمِ) وقولـه في الحكمـة ٢٢ (لَنَـا حَـقٌّ، فَـإِنْ أُعْطِينَـاهُ، وَإِلاَّ رَكِبْنَـا أَعْجَـازَ الْإِبِـلِ، وَإِنْ طَـالَ السُّرَى.) وقوله لولده الحسـن عليه السلام: ٣١ (خض الغمرات للحق).

فالنـصر والعـز والغنـى والكرامـة لا تعطـى للنائمـين المتكاسـلين وانـما هـي موهبـة الله لمـن وفـر مقدماتهـا، فهـي لمـن اعـد القـوة بـكل مـا اسـتطاع وهـي لمـن نـصر الله وصـبر في ميـدان المواجهـة وهـي لمـن مشـى في مناكـب الأرض وهـي لمـن جـد واجتهـد وخـاض الغمـرات وركـب الاهـوال لأجـل الحـق واعتـلى ظهـور الدبابـات وحلـق بالطائـرات والمركبـات الفضائيـة وسـهر الليـالي وتحمـل الجـوع والغربـة عـن الأوطـان ورابـط وقـاوم وصمـد وان طـال الـسرى وبعـدت الشـقَة.

وهكـذا يتضـح لنـا ان المجتمـع الـذي تربيـه الولايـة العلويـة هـو المجتمـع الـذي ينمـو عقلـه لينتـج فكـرا عاليـا سـاميا يجعـل افـراده يشـعرون بالمسـؤولية في مقابـل أي نقـص او ظلـم او فسـاد ويسـتقبحون التـواكل والتنصـل عـن الواجـب ويرونـه عـارا وشـنارا ويشـعرون بـان العـزة والكرامـة والسـيادة عـلى النفـوس الأرض والثـروات هـي روح الحيـاة وشرفهـا وانهـم قـادرون عـلى تحقيقهـا ان سـلكوا المنهج الصحيـح ووفـروا المقدمـات الموضوعيـة والـشروط اللازمـة وعـلى راسـها اطاعـة القيـادة الإلهيـة والتحـلي بالوعـي والمعرفـة والبصـيرة اللازمـة والصـبر والمصابـرة والمرابطـة.

وعليـه فـان المجتمـع العلـوي هـو مجتمـع الشـعور بالمسـؤولية والمرابطـة والمصابرة والمنـاصرة والهـم والهمـة والاقـدام لا مجتمـع التـواكل والتخاذل والتكاسـل.

الفكر الاحباطي:

وأمـا الفكـر الإحباطـي الـذي يبثّـه البعـض بـين النـاس ويثبـط بـه عزيمـة

المبلغين والمرشدين والقائمين على توعية الامة، بحجة أنّ الفساد قد عمّ الأرض، ولا فائدة بعملكم والناس لن يسمعوا كلامكم، فهذا الفكر مخالف لعمل جميع الأنبياء والأوصياء والأولياء الذين أرسلهم الله سبحانه ليتمّوا الحجة على الناس، وتكليف كل إنسان مبلِّغ هو إيصال رسالة الله لمن لم تصل إليه، ونجاح الإنسان وفلاحه في سعيه لأداء تكليفه وبذله أقصى الجهد لأداء التكليف، وهو مقياس الفوز والكمال في المنظار العلوي، ولذلك يقول لولده الإمام الحسن عليهما السلام في الكتاب (٣١): (...وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ وَ أَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَ لِسَانِكَ وَ بَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ وَ جَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَ لَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ وَ خُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ وَ تَفَقَّهْ فِي الدِّينِ وَ عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ...).

فوجود المنكر وكثرته في المجتمع وكذلك قلة المعروف والطاعات، لن يكونا مبرراً للتقاعس والكسل والانسحاب من ساحة الصراع، بل إن العكس هو الصحيح، حيث يتأكد النزول إلى الميدان والقيام بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد بأقصى قوة ممكنة، وخوض الغمرات للحق، وبقاء المنكر في المجتمع لا يعني فشل العاملين والدعاة والمجاهدين، ولكي تكون من أهل المعروف فعليك أن تأمر بالمعروف، ولكي لا تكون من أهل المنكر فعليك أن تنهى عن المنكر، ولكي تكون من أهل الحق عليك أن تخوض الغمرات للحق، أي أن أهل الحق هم الذين يغامرون لأجل الحق، ولا يعيرون سمعاً للوم اللائمين وتخدير المخدّرين، وتثبيط المتشائمين المحبطين، ومن المؤسف أنّ هذا التفكير الإحباطي التثبيطي قد أثر على الكثير من الناس الذين كان بالإمكان أن يكونوا عاملين مؤثرين ومغيرين بالساحة، في مقابل أهل الباطل والظلم والفساد، لكنهم انسحبوا من الميدان بسبب اليأس والإحباط والتأثّر السلبي بالعقل الجمعي الحاكم، وغلبة المنكر في المجتمع، وخوفاً من لوم اللائمين وعتب العاتبين، واكتفى البعض بالحياد وراح يبحث عن تل أبي

هريرة والمحلات الآمنة، التي يجد فيها الدعة والعافية والسلامة من النقد والاعتراض، واكتفى بخطابات وأفكار لا تنصر الحق ولا تخذل الباطل، وبالنتيجة فإنّ الميدان خلا لأهل الباطل فسيطروا على شؤون حياة الأمّة وجميع ما تملك.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في بيانه لأسباب الهزيمة في الخطبة (٦٦) حيث قال: (أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ وَ لَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَ لَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ...).

وفي الخطبة (٢٧) يقول عليه السلام: (أَلَا وَ إِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَ نَهَاراً وَ سِرّاً وَ إِعْلَاناً وَ قُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَ تَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَ مُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ...).

وما نعيشه اليوم هو نتائج التفكير التخاذلي التشاؤمي الاحباطي الذي يريد أن ينتصر الحق وينهزم الباطل؛ وبعد ذلك ينزل إلى الميدان لينصر الحق ويخذل الباطل!

التاسع: التفكير الأحادي النظر:

وهو نوع من التفكير شائع في مجتمعاتنا، وهذا التفكير يجعل مشاريعنا عقيمة ومقترنة بالسلبيات الكثيرة، وحلولنا للمشاكل غير ناجعة.

فالسبب هو أننا ننظر فقط إلى العمل الذي نريد إنجازه، أو الغرض الذي نريد تحقيقه، أو المشكلة التي نريد حلّها ولا ندرس الجوانب الأخرى المحيطة بها ولوازمها وما يرتبط بها، وما يمكن أن تتركه من نتائج وآثار جانبية، وأمير المؤمنين عليه السلام في تعريفه للعاقل قال: هو الذي يضع الأمور في مواضعها، وخلافه الأحمق.

ووضْعِ الأمور في مواضعها الذي به يتحقق العقل، يحتاج إلى دراسة عميقة وشاملة لكل عمل يراد تنفيذه، ولذلك يقول أمير المؤمنين في شروط تحقيق العدل في الحكمة (٣١): (...وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ وَغَوْرِ الْعِلْمِ وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ ورَسَاخَةِ الْحِلْمِ فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ ومَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ ومَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً...).

أي أنّ الفهم والتعمق يجعل الانسان يستقي الماء الزلال من شريعته الصافية، حتى يسقي الناس الحكم والعلم الصحيح، وهذا يحتاج إلى الحلم والصبر وإجالة الفكر حتى يخرج العمل صحيحاً ليس فيه تفريط وإهمال، وأمّا مشروع العمل الذي نحلّ به مشكلة للناس، بتسبيب مشاكل أخرى لهم، فلا يسمى حلاً، بل الأولى أن نسميه مشروع فوضى وصناعة مشكلة جديدة.

فإذا توفرت هذه الأركان، كان هذا الإنسان عادلاً في حكمه ومواقفه ومشاريعه وعاش في الناس حميداً، أي كانت لمشاريعه آثار حسنة يحمده الناس عليها.

فالدوائر القانونية يجب أن تدرس جميع جوانب الموضوع والقضية التي تريد أن تسن لها قانوناً، وتنظر إلى ارتباطها الكامل بالمواضيع الأخرى، فالقوانين المرتبطة بالصناعة والزراعة والتجارة وبناء المدن، يجب أن تراعي الصحة والبيئة والتطرق والمواصلات، وقوانين توزيع الثروات والعمل ومناهج التعليم يجب أن تراعي الأجيال القادمة، وقوانين حريّة الإعلام والتواصل، يجب أن تراعي حفظ الأسرة والأمومة والأبوّة والعلاقات الاجتماعية السليمة.

ومن المؤسف أنّ التفكير الأحادي هو الحاكم على مؤسساتنا ودوائرنا

التشريعيـة والتنفيذيـة، فعـلى مسـتوى الدوائـر التنفيذيـة إذا أرادت مؤسسـة مـا مثـلاً تبليـط الشـوارع، لم تفكـر إلاّ بعملهـا ولم تنسـق مـع المؤسسـات والدوائـر الأخـرى كالكهربـاء والمـاء والمجـاري والاتصـالات وغيرهـا.

فتعبّـد الطريـق وبعـد مـدة قليلـة نـرى أنّ دائـرة أخـرى كالمجـاري تـأتي وتخـرب وتحفـر الطريـق لأداء عملهـا وهكـذا.

وعندمـا تريـد دوائرنـا الأمنيـة أن تفـرض الأمـن وتمنـع الخروقـات، فـلا حـلّ لهـا سـوى قطـع الطـرق ومنـع حركـة النـاس.

وعندمـا يريـدون وقايـة النـاس مـن الفايـروس فـلا حـلّ لديهـم سـوى حبـس النـاس في البيـوت وتعطيـل الحيـاة بكاملهـا، والتخويـف والتهويـل، ولا نـدري هـل أنّ مـن يفـرض هـذه الأحـكام هـل درس بعمـق ودقـة وأجـال فكـره في كل اللـوازم والآثـار الجانبيـة للمسـألة؟ وتأكـد أنّ آثـار الحبـس النفسـية والاجتماعيـة وأخطـار التهويـل والرعـب لا تسـبب خسـائر أكـبر مـن الخسـائر المحتملـة للفايـروس نفسـه لـو ألغـي الحجـر العـام واسـتبدل بنظـام وقائـي آخـر؟ والحـل الصحيـح هـو الـذي ينتـج مـن اجالـة الفكـر والنظـر الى جميـع جوانـب المشـكلة والاخـذ بنظـر الاعتبـار الاثـار السـلبية النفسـية و الاجتماعيـة و الاقتصاديـة التـي يتركهـا الحجـر ومنـع النـاس مـن أعمالهـم وحبسـهم في بيوتهـم والاهـم مـن ذلـك ان التهويـل و التخويـف و الرعـب قـد يـؤدي الى ضعـف المناعـة ممـا يـؤدي الى تفعيـل اسـتعداد الانسـان للإصابـة بالفايـروس او بغـيره، او التسـبيب في هيجـان الامـراض الأخـرى و مضاعفـة خطرهـا المبتـلى بهـا الانسـان المصـاب او المحتمـل الإصابـة ومضاعفـة خطرهـا عليـه فالخـوف و الرعـب سـوف يكـون سـببا للفتـك بالإنسـان اكثـر مـن فتـك الفايـروس نفسـه! بـل ان الرعـب والتخويـف والتهويـل والحجـر والحبـس قـد يـؤدي الى مـرض الاصحـاء أيضـا؟!

وعلى كل حال فإنّ المنهج العلوي لإقامة العدل يفرض على المتنمين إليه أن يدرسوا مشاريعهم وأعمالهم ومشاكلهم دراسة متعددة الجوانب، وشاملة تعالج جميع الاحتمالات وتمنع التأثيرات الجانبية، وعندها يكون الإنسان عادلاً في القول والعمل والموقف والحكم، ولا يصلح شيئاً بفساد أشياء، أو يخرّب أكثر مما يصلح.

العاشر: التفكير الانفعالي:

وهو الفكر الذي تتحكم به ردود الأفعال والحوادث التي تفرض نفسها على الإنسان، فالكثير منّا لا يخطط ولا يفكر بتنمية وتطوير ما لديه من قابليات وقدرات وثروات، أو كيفية مواجهة حوادث متوقفة، وإنما يكتفي بما هو موجود على حاله، فلا يطور ولا يستشرف، والتفكير الصحيح هو التفكير التنموي التطويري والاستشرافي، ومن طبيعة التفكير الانفعالي أن يكون متسرعاً ارتجالياً وأحادي الأبعاد، وغير ناضج ولا يستطيع التغلب على المشكلة والتناغم مع الواقع الجديد المفروض عليه. يقول أمير المؤمنين لولده الحسن عليهما السلام في الخطبة (١١): (ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ...)، وبقوله في الخطبة (٦): (وَ اللهَّ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَ يَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا وَ لَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ وَ بِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ...).

وهو القائل لقومه في الخطبة (٢٧): (...وَ قُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللهَّ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا...).

وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام في الحث على التعقل والتفكر وعدم العمل بغير علم، كلها تدل على ضرورة التخطيط والبرمجة لكل عمل يريد الإنسان أن يعمله، وأن يفكر قبل كل شيء كي يبصر ويكتشف الطريق الصحيح، ثم

يتكلـم أو يعمـل أو يتخـذ موقفـاً أو حكـماً عـلى القضايـا والأشـخاص، يقـول عليه السلام في الحكمـة (٢٠٨): (مَـنْ حَاسَـبَ نَفْسَـهُ رَبِـحَ وَمَـنْ غَفَـلَ عَنْهَـا خَـسِرَ وَمَـنْ خَـافَ أَمِـنَ وَمَـنِ اعْتَـبَرَ أَبْـصَرَ وَمَـنْ أَبْـصَرَ فَهِـمَ وَمَـنْ فَهِـمَ عَلِـمَ).

الحادي عشر: التفكير اللّا علمي:

وهـو التفكـير القائـم عـلى غـير العلـم، مـن الروايـات الموضوعـة والأحـلام والخرافـات، أو الاشـاعات والمبالغـات الشـعرية، أو مـا يسـمّيه الخطبـاء (لسـان الحـال)، الـذي يتحـول بالتدريـج إلى روايـة وحديـث في فهـم النـاس، وقـد سـاهم هـذا النـوع مـن التفكـير في إبعـاد النـاس عـن موازيـن دينهـم الحقيقيـة وجعلهـم يتمسـكون بالقشـور أو الأهـداف الوهميـة، ومـن أهـداف هـذا التفكـير حـرف النـاس عـن مسـؤولياتهم الدينيـة الأصليـة، وجعلهـم يكتفـون بالمظاهـر والشـعائر وبـذل المـال فيهـا عـلى أن هـذا العمـل كفيـل بإدخالهـم الجنّـة، وحفظهـم مـن العـذاب وجلـب الـبركات الماديـة، ودفـع البـلاء والأمـراض، وقـد أنتـج هـذا التفكـير في مجتمعنـا فهـماً مقلوبـاً للهويـة الولائيـة والحسـينية، حتـى أصبـح تقييـم الانسـان الولائـي والشـيعي والحسـيني بـما يقـوم بـه مـن المظاهـر الصاخبـة، وبـما لديـه مـن مجالـس ومواكـب ووسـائل قـادرة عـلى جـذب عـدد أكـبر مـن النـاس إليهـا مهـما كانـت وسـائل الجـذب، فالمهـم عنـده الـذي يجلـب لشـخصه الشـهرة والاحـترام، أمّـا موازيـن الالتـزام الكامـل بالديـن ومواجهـة المنكـر والفسـاد والظلـم ومقاومـة طغـاة العـصر ومسـتكبريه، والسـعي لإقامـة العـدل والاهتـمام بالفقـراء والضعفـاء، ونـشر الوعـي والبصـيرة ومحاربـة الجهـل والجهالـة والضلالـة التـي هـي الأهـداف الحقيقيـة لأهـل البيـت وثـورة الإمـام الحسـين عليه السلام، فـلا تـكاد أن تجدهـا في هـذه الأوسـاط إلاّ قليـلاً ممـن وفى لرعايـة الحـق.

وقـد نهـى أمـير المؤمنـين عليه السلام بشـدة بالغـة عـن هـذا النـوع مـن التفكـير القائـم عـلى عـدم العلـم، فقـال في وصيتـه لولـده الحسـن عليهـما السـلام في الكتـاب

(١٣١): (...وَ لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَ إِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ...)، ومع الأسف فإنّ الكثير ممن يرتقي منابر سيد شهداء الإصلاح في هذه الأمة وسفينة نجاتها (الإمام الحسين عليه السلام)، ولقلة معلوماتهم يلقون على الناس الأحلام والأخبار التي لا أساس لها والسماعيات التي لا مصدر علميا لها، ووصل الأمر بهم أن يقولوا (جاء على ألسن الخطباء كذا)، وبهذا التعبير أدخلوا مصدراً جديداً للشريعة هو ألسن الخطباء، وصار بعضهم لبعض أئمة.

وقد ذمّ أمير المؤمنين عليه السلام من سلك هذا الطريق غير العلمي الموثق في تقسيمه الناس لكميل بن زياد في الحكمة (١٤٧) عندما أخذ بيد كميل وأخرجه إلى الصحراء، فلما أصحر تنفس الصعداء وكأنّه كان مغموماً ومهموماً من واقع الجهل وفقدان البصيرة الذي كان يعيشه الناس في ذلك الزمن الكنود، ثم قال: (يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ النَّاسُ ثَلَاثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَ هَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ...).

فالإمام يبيّن أن سبيل النجاة هو الاستضاءة بنور العلم، والاعتماد على الركن الوثيق في معرفة الدين الذي هو طريق الإنسان إلى كماله وسعادته في الدنيا والآخرة، فإذا فقد العلم والركن الوثيق المعتبر، أصبح الإنسان في عدّاد الهمج الرعاع الذين يتحركون بالطبول والدمّامات والصياح والنعيق والصور والألوان، لا بالمعاني والأهداف والقيم والموازين، وبعد ذلك يُفصح أمامنا عن مظلوميته وغربته المؤلمة جداً لصاحبه كميل، الذي أخرجه إلى الصحراء ليخلو به ويكشف له أسراره، فيقول: (...إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا وَ مُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَ بِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ أَوْ مُنْقَاداً

لِحَمَلَـةِ الْحَـقِّ لَا بَصِـيرَةَ لَـهُ فِي أَحْنَائِـهِ يَنْقَـدِحُ الشَّـكُّ فِي قَلْبِـهِ لِأَوَّلِ عَـارِضٍ مِـنْ شُـبْهَةٍ...).

أي أنّ مـن وجدتـه أمـا أن يكـون قـد جعـل مـن الديـن دكانـاً ومتجـراً لكسـب الدنيـا، أو أن لـه شـعوراً دينيـاً لكنـه يفتقـد البصـيرة والتشـخيص للموازيـن، فينقـدح الشـك في قلبـه اذا تعـرض لأي كلام فيـه شـبهة وتشـكيك، (ألا لا ذا ولا ذاك)، أي إنّ هذيـن الصنفـين لا يتقبـلان العلـم والمعرفـة العلويـة، وهنـاك صنفـان آخـران أيضـاً وهمـا (أمـا منهومـاً باللـذة سـلس القيـادة لشـهوة، أو مغرمـاً بالجمـع والادخـار، ليسـا مـن رعـاة الديـن في شيء، أقـرب شـبهاً بهـما الأنعـام السـائمة، كذلـك يمـوت العلـم بمـوت حامليـه، ثـم يصـف الإمـام لكميـل حملـة العلـم الحقيقيـين ويقـول: (...اللَّهُـمَّ بَـلَى لَا تَخْلُـو الْأَرْضُ مِـنْ قَائِـمٍ للهَّ بِحُجَّـةٍ إِمَّـا ظَاهِـراً مَشْـهُوراً وَ إِمَّـا خَائِفـاً مَغْمُـوراً لِئَـلَّا تَبْطُـلَ حُجَـجُ اللهَّ وَ بَيِّنَاتُـهُ وَ كَـمْ ذَا وَ أَيْـنَ أُولَئِـكَ، أُولَئِـكَ وَ اللهَّ الْأَقَلُّـونَ عَـدَداً وَ الْأَعْظَمُـونَ عِنْـدَ اللهَّ قَـدْراً يَحْفَـظُ اللهُّ بِهِـمْ حُجَجَـهُ وَ بَيِّنَاتِـهِ حَتَّـى يُودِعُوهَـا نُظَرَاءَهُـمْ وَ يَزْرَعُوهَـا فِي قُلُـوبِ أَشْـبَاهِهِمْ هَجَـمَ بِهِـمُ الْعِلْـمُ عَـلَى حَقِيقَـةِ الْبَصِـيرَةِ وَ بَـاشَرُوا رُوحَ الْيَقِـينِ وَ اسْـتَلَانُوا مَـا اسْـتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُـونَ وَ أَنِسُـوا بِـمَا اسْـتَوْحَشَ مِنْـهُ الْجَاهِلُـونَ وَ صَحِبُـوا الدُّنْيَـا بِأَبْـدَانٍ أَرْوَاحُهَـا مُعَلَّقَـةٌ بِالْمَحَـلِّ الْأَعْـلَى أُولَئِـكَ خُلَفَـاءُ اللهَّ فِي أَرْضِـهِ وَ الدُّعَـاةُ إِلَى دِينِـهِ آهِ آهِ شَـوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِـمْ انْـصَرِفْ يَـا كُمَيْـلُ إِذَا شِـئْتَ).

هـؤلاء هـم أتبـاع عـلي الحقيقيـون، وهـم الدعـاة إلى الديـن الذيـن يربّـون أحباب عـلي وشـيعته حملـة الديـن الحقيقـي، وهـم الذيـن هجـم بهـم العلـم عـلى حقيقـة البصـيرة، هـؤلاء إذا تصـدوا لقيـادة وهدايـة المجتمـع، وصـارت المواكـب والمنابـر ووسـائل الإعـلام والتواصـل بأيديهـم، فسـوف يربّـون مجتمعـاً يخـرّج مـن دائـرة الهمـج الرعـاع، ويدخـل في سـبيل علـم النجـاة.

وتبعـاً لتعليـمات أمـير المؤمنـين والأئمـة الأطهـار عليهـم السـلام عـلى التأكيـد

على العلم والمصادر الموثوقة في تبليغ الدين إلى الناس، فقد أكّد علماؤنا الواعون المخلصون على هذا الأمر، وقد أصدر الإمام السيستاني دام ظله توجيهات قيمة إلى الخطباء والمنشدين (الرواديد)، يدعوهم فيها إلى تجنب الاعتماد على الأحلام والأخبار الضعيفة والمعاني الهزيلة في خطاباتهم وقصائدهم.

الثاني عشر: التفكير العاطفي:

وهو تفكير قائم على التلاعب بعواطف الناس ودغدغتها، حيث يتم إشغال عقول الناس بأمور عاطفية لا قيمة لها، ولكن لها ارتباط بنحو ما بالدين، ويجري تضخيمها واضفاء قدسية عليها، بحيث ينسى الناس الموازين الحقيقية للتقييم والتبعية، وقد حصل صناعة هذا النوع من التفكير والعقل الجمعي في قضية السقيفة، عندما تم التركيز على الصحابة وكبر السن، وتم تضخيم هذا الأمر إلى حد إلغاء كل الموازين الحقيقية للخلافة، كالعلم والشجاعة والزهد والعبادة والقرابة والصحابة نفسها، لكن بفارق عمري أقل من الصحابة الآخرين، فانظر إلى التلاعب بالعواطف كيف ركّز على مسألة صحبة النبي، بحيث أصبحت درجة الصحبة لمن عمره أكبر، تكون أعلى من الصحابي الآخر الذي عمره أقل، وإن كان هذا الأقل عمراً أفضل بكثير من الصحابة الآخرين في كل ملاكات ومقاييس الخلافة والقيادة والأمرة، بما في ذلك قرابته من الرسول صل الله عليه وآله، وكذلك يتعجب أمير المؤمنين في الحكمة (١٩٠) ويقول: (وَاعَجَبَاهْ أَتَكُونُ الْخِلَافَةُ بِالصَّحَابَةِ وَلا تَكُونُ بِالصَّحَابَةِ والْقَرَابَةِ).

وكذلك تم التلاعب بالعواطف بصرف الناس عن الخليفة الشرعي، وتعبئه الناس لحرب أمير المؤمنين في واقعة الجمل، بالتركيز على زوج رسول الله عائشة، حيث تم تقديس لقب أم المؤمنين واعطائه أكثر من حجمه بكثير، بحيث أصبح بعض أهل البصرة في وقتها مستعدين للتضحية لا من أجل

عائشــة فقــط؛ بــل مــن أجــل جملهــا!! يقــول أمــير المؤمنــين عليه السلام في الخطبــة (١٣) و (١٤) في ذم أصحــاب الجمــل: (كُنْتُــمْ جُنْــدَ الْمَــرْأَةِ وَ أَتْبَــاعَ الْبَهِيمَــةِ رَغَــا فَأَجَبْتُــمْ وَ عُقِــرَ فَهَرَبْتُــمْ...)(١٣)، (خَفَّــتْ عُقُولُكُــمْ وَ سَــفِهَتْ حُلُومُكُــمْ فَأَنْتُــمْ غَــرَضٌ لِنَابِــلٍ وَ أُكْلَــةٌ لِآكِلٍ وَ فَرِيسَــةٌ لِصَائِــلٍ)(١٤).

هــذا هــو حــال المجتمــع الــذي يهبــط مســتواه العقــلي، ويبتــلى بضحالــة التفكــير والتحجّــر، حيــث يســتطيع الاعــلام وجهــاز الدعايــات والاشــاعات أن يوجهــه بالاتجــاه الــذي يريــد، فيحولــه إلى أكلــة أو فريســة ويحقــق بــه أغراضــه، ومــن أخطــر وأســوأ هــذا الاســتخدام أن يعبّــأ المجتمــع بالإعــلام المضلــل، وبشــبهة عاطفيــة دنيئــة لبُــغض وحــرب أفضــل وأعظــم إمــام وقائــد إلهــي وأكمــل قــدوة ونمــوذج للإنســانية، وهــو عــلي أمــير المؤمنــين عليه السلام.

ومــن أمثلــة التفكــير العاطفــي الــذي يخــدع بــه عــوام النــاس، وينحرفــوا عــن دورهــم الأســاسي، ويتحركــوا بعيــداً عــن أهــداف دينهــم وصــلاح دنياهــم، هــو اقتطــاع صــور مفجعــة وحزينــة ومؤلمــة مــن حيــاة الأئمــة الطاهريــن، والتركيــز عليهــا وإثــارة العواطــف تجاههــا، ومــن ثــم الهيمنــة عــلى العقــل المحب لأهــل البيت ليختــزل تفكــيره في هــذا الجانــب العاطفــي، ولا يعــرف عــن أئمتــه وقادتــه ســوى المــرض والجــرح والمظلوميــة والحــزن الــذي يوجــب عــلى المحــب والمــوالي أن يبكــي أو يــضرب رأســه، أو يصنــع طعامــاً لإمامــه بحجــة أنّــه لم يجــد في وقــت مظلوميتــه وقتلــه أو مرضــه أو جرحــه مَــن يبكــي عليــه أو يصنــع لــه الطعــام غافــلاً عــن حقيقة أنّ هــذه المظلوميّــة قــد تحملهــا الإمــام لأنّــه لم يستســلم للظلــم والطغيــان والفســاد، وأصرّ عــلى مواجهــة مَــن يمنــع تحقيــق العــدل والقســط والقيــم الإلهيــة الإنســانية، وإنــه مــن المصيبــة العظمــى أن نجــد أكثــر محبــي أهــل البيــت ســلام الله عليهــم، لا يعرفــون عــن أئمتهــم أكثــر مــن هــذه الصــور العاطفيــة، ولا يــرون لأئمتهــم حقّــا عليهــم ســوى القيــام بهــذه المظاهــر، وبهــذا الخطــاب الــذي يصنــع هــذا التفكــير

المتحجّـر الـذي يفـرّغ سـيرة أهـل البيـت مـن محتواهـا ولبّـها، ويقطعها عن أسسـها وأهدافهـا، فتتحـول العاطفـة التـي أريـد لهـا أن تكـون وسـيلة للارتبـاط بالإمـام كمبـادئ وسـيرة وسـلوك وأهـداف، إلى عاطفـة بحتـة يكـون التعبـير عنهـا بـكل الوسـائل والأسـاليب الصحيحـة وغـير الصحيحـة، فتكـون هـي المبـادئ وهـي الأهـداف وهـي كل شيء، ولا يحتـاج المحـب والمـوالي حتـى إلى الأخـلاق والآداب ومراعـاة ومـداراة النـاس.

الثالث عشر: التفكير الاستبدادي:

وهـو مـرض عضـال في التفكـير العـربي، حيـث أن نرجسـية الـرأي الشـخصي والأنسـاب والعائلـة أو القبيلـة أو الحـزب، تهيمـن عـلى البحـث والتحقيـق والتفكُّـر وتقـوده لصالحهـا، فنحـن إذا جلسـنا للتشـاور في مسـألة معينـة، لا نجلـس لأجـل أن ننتـج فكـرة متكاملـة مـن جمـع وتركيـب وتلاقـح أفـكار يطرحهـا المشـاركون في الاجتـماع، وإنـما نجلـس في الاجتـماع وكل واحد منّـا قد حسـم أمره من قَبْـل وجاء بحكـم مسـبق، وحـضر إلى الجلسـة يبحـث عـن آراء مؤيـدة لحكمـه، أو يفـرض رأيه عـلى الجالسـين ليسـلِّموا الأمـر لـه، أو تنتهـي الجلسـة دون اتفـاق، ويـؤول الأمـر أمّـا إلى الـرأي الاسـتبدادي غـير السـديد، أو إلى الاختـلاف والتمـزق.

وهـذا خـلاف مـا يدعـوا إليـه المنهـج العلـوي في التفكـير، حيـث قـال عليه السلام في الحكمـة (١٦١): (مَـنِ اسْـتَبَدَّ بِرَأْيِـهِ هَلَـكَ، وَمَـنْ شَـاوَرَ الرِّجَـالَ شَـارَكَهَا فِي عُقُولِهَـا).

ويقـول عليه السلام في الحكمـة (٥٤): (لَا غِنَـى كَالْعَقْـلِ وَلَا فَقْـرَ كَالْجَهْـلِ وَلَا مِـيرَاثَ كَالْأَدَبِ وَلَا ظَهِـيرَ كَالْمُشَـاوَرَةِ).

ويقـول في وصيتـه لولـده الحسـن عليه السلام في الكتـاب (٣١): (...وَاعْلَـمْ أَنَّ الْإِعْجَـابَ ضِـدُّ الصَّـوَابِ وَآفَـةُ الْأَلْبَـابِ...).

ومـن هـذه الكلـمات النوريّــة نفهـم أن العقـول قـد خُلقـت ليُــضم بعضهـا إلى بعـض، لأجـل الوصـول إلى الحقيقـة، وإذا ترك الإنسـان التشـاور الحقيقـي وأعجب بـما يصـدر مـن نفسـه واسـتبدّ برأيـه، فـإن ذلـك يـؤدي إلى عـدم الوصـول إلى الحقيقـة وهـو الهـلاك، لأنّـك إذا لم تصـل إلى الحقيقـة لم تصـل إلى الطريـق الصحيـح لتحقيـق الكـمال في الحيـاة، ونتيجتـه هـي الحرمـان والخيبـة والهـلاك، أو كل واحـد يتخـذ طريقـاً لنفسـه وهـذا يفـضي إلى الاختـلاف والنـزاع والهـلاك.

ومـن وصايـاه ﷺ لمالـك الأشـتر في عهـده المعـروف، وهـو الكتـاب (٥٣)، حيـث يأمـره باتخـاذ المشـاورين مـن غـير الأثمـة والظلمـة والمتملقـين والمدّاحـين، ويقـول: (...فَاتَّخِـذْ أُولَئِـكَ خَاصَّـةً لِخَلَوَاتِـكَ وَ حَفَلَاتِـكَ ثُـمَّ لْيَكُـنْ آثَرُهُـمْ عِنْـدَكَ أَقْوَلَهُـمْ بِمُـرِّ الْحَـقِّ لَـكَ وَ أَقَلَّهُـمْ مُسَـاعَدَةً فِيـمَا يَكُـونُ مِنْـكَ مِمَّـا كَـرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِـهِ وَاقِعـاً ذَلِـكَ مِـنْ هَـوَاكَ حَيْـثُ وَقَـعَ وَ الْصَـقْ بِأَهْـلِ الْـوَرَعِ وَ الصِّـدْقِ ثُـمَّ رُضْهُـمْ عَـلَى أَلَّا يُطْـرُوكَ وَلَا يَبْجَحُـوكَ بِبَاطِـلٍ لَمْ تَفْعَلْـهُ فَـإِنَّ كَثْـرَةَ الْإِطْـرَاءِ تُحْـدِثُ الزَّهْـوَ وَ تُـدْنِي مِـنَ الْعِـزَّةِ...).

ويؤكـد ذلـك مـرة أخـرى في نفـس العهـد ويقـول ﷺ: (...وَإِيَّـاكَ وَالْإِعْجَـابَ بِنَفْسِـكَ وَالثِّقَـةَ بِـمَا يُعْجِبُـكَ مِنْهَـا وَحُـبَّ الْإِطْـرَاءِ فَـإِنَّ ذَلِـكَ مِـنْ أَوْثَـقِ فُـرَصِ الشَّـيْطَانِ فِي نَفْسِـهِ لِيَمْحَـقَ مَـا يَكُـونُ مِـنْ إِحْسَـانِ الْمُحْسِـنِينَ...).

ومـن أهـم عوامـل التفكـير الصحيـح وتـرك التعنـت والاسـتبداد هـو تقبـل النقـد، وعـرض الإنسـان آرائـه عـلى الآخريـن لكـي يعينـوه عـلى كشـف مـا خفـي عليـه مـن مواطـن ضعـف وأخطـاء، وهنـا نـرى أمـير الحـق والحقيقـة ينهـى بشـدة عـن هـذه الصفـة السـيئة ويُــحذّر منهـا ويقـول في الخطبـة (١١٣): (...وَإِنَّـمَا أَنْتُـمْ إِخْـوَانٌ عَـلَى دِيـنِ اللهِ مَـا فَـرَّقَ بَيْنَكُـمْ إِلَّا خُبْـثُ السَّرَائِـرِ وَسُـوءُ الضَّمَائِـرِ فَـلَا تَـوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُـونَ وَلَا تَبَاذَلُـونَ وَلَا تَـوَادُّونَ مَـا بَالُكُـمْ تَفْرَحُـونَ بِالْيَسِـيرِ مِـنَ الدُّنْيَـا تُدْرِكُونَـهُ وَلَا يَحْزُنُكُـمُ الْكَثِـيرُ مِـنَ الْآخِـرَةِ تُحْرَمُونَـهُ وَيُقْلِقُكُـمُ الْيَسِـيرُ

مِـنَ الدُّنْيَـا يَفُوتُكُـمْ حَتَّـى يَتَبَـيَّنَ ذَلِـكَ فِي وُجُوهِكُـمْ وَقِلَّـةِ صَبْرِكُـمْ عَـمَّا زُوِيَ مِنْهَـا عَنْكُـمْ كَأَنَّهَـا دَارُ مُقَامِكُـمْ وَكَأَنَّ مَتَاعَهَـا بَـاقٍ عَلَيْكُـمْ وَمَـا يَمْنَـعُ أَحَدَكُـمْ أَنْ يَسْـتَقْبِلَ أَخَـاهُ بِـمَا يَخَـافُ مِـنْ عَيْبِـهِ إِلَّا مَخَافَـةُ أَنْ يَسْـتَقْبِلَهُ بِمِثْلِـهِ قَـدْ تَصَافَيْتُـمْ عَـلَى رَفْـضِ الْآجِـلِ وَحُـبِّ الْعَاجِـلِ وَصَـارَ دِيـنُ أَحَدِكُـمْ لُعْقَـةً عَـلَى لِسَـانِهِ...).

ومـن أروع مـا ورد عنـه في تعاملـه مـع أصحابـه (وكل مـا ورد منـه رائـع)، هـو أنّـه بعـد مـا تكلـم عـن حـق الـوالي عـلى الرعيـة وحقّـهم عليـه، قـام رجـل فأثنـى عليـه كثـيراً وأظهـر لـه سـمعه وطاعتـه، فقـال عليه السلام: (...إِنَّ مِـنْ حَقِّ مَـنْ عَظُـمَ جَلَالُ اللَّهِ سُـبْحَانَهُ فِي نَفْسِـهِ وَجَـلَّ مَوْضِعُـهُ مِـنْ قَلْبِـهِ أَنْ يَصْغُـرَ عِنْـدَهُ لِعِظَـمِ ذَلِـكَ كُلُّ مَـا سِـوَاهُ وَإِنَّ أَحَـقَّ مَـنْ كَانَ كَذَلِـكَ لَمَـنْ عَظُمَـتْ نِعْمَـةُ اللَّهِ عَلَيْـهِ وَلَطُـفَ إِحْسَـانُهُ إِلَيْـهِ فَإِنَّـهُ لَمْ تَعْظُـمْ نِعْمَـةُ اللَّهِ عَـلَى أَحَـدٍ إِلَّا ازْدَادَ حَـقُّ اللَّهِ عَلَيْـهِ عِظَـماً وَإِنَّ مِـنْ أَسْـخَفِ حَـالَاتِ الْـوُلَاةِ عِنْـدَ صَالِـحِ النَّـاسِ أَنْ يُظَـنَّ بِهِـمْ حُـبُّ الْفَخْـرِ وَيُوضَـعَ أَمْرُهُـمْ عَـلَى الْكِـبْرِ وَقَـدْ كَرِهْـتُ أَنْ يَكُـونَ جَـالَ فِي ظَنِّكُـمْ أَنِّي أُحِـبُّ الْإِطْـرَاءَ وَاسْـتِمَاعَ الثَّنَـاءِ وَلَسْـتُ بِحَمْـدِ اللَّهِ كَذَلِـكَ وَلَـوْ كُنْـتُ أُحِـبُّ أَنْ يُقَـالَ لَتَرَكْتُـهُ انْحِطَاطـاً للَّهِ سُـبْحَانَهُ عَـنْ تَنَـاوُلِ مَـا هُـوَ أَحَـقُّ بِـهِ مِـنَ الْعَظَمَـةِ وَالْكِبْرِيَـاءِ وَرُبَّـمَا اسْـتَحْلَى النَّـاسُ الثَّنَـاءَ بَعْـدَ الْبَـلَاءِ فَـلَا تُثْنُـوا عَـلَيَّ بِجَمِيـلِ ثَنَـاءٍ لِإِخْرَاجِـي نَفْـسِي إِلَى اللَّهِ سُـبْحَانَهُ وَإِلَيْكُـمْ مِـنَ التَّقِيَّـةِ فِي حُقُـوقٍ لَمْ أَفْـرُغْ مِـنْ أَدَائِهَـا وَفَرَائِـضَ لَا بُـدَّ مِـنْ إِمْضَائِهَـا فَـلَا تُكَلِّمُـونِي بِـمَا تُكَلَّـمُ بِـهِ الْجَبَابِـرَةُ وَلَا تَتَحَفَّظُـوا مِنِّـي بِـمَا يُتَحَفَّـظُ بِـهِ عِنْـدَ أَهْـلِ الْبَـادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُـونِي بِالْمُصَانَعَـةِ وَلَا تَظُنُّـوا بِي اسْـتِثْقَالًا فِي حَـقٍّ قِيـلَ لِي وَلَا الْتِـمَاسَ إِعْظَـامٍ لِنَفْـسِي فَإِنَّـهُ مَـنِ اسْـتَثْقَلَ الْحَـقَّ أَنْ يُقَـالَ لَـهُ أَوِ الْعَـدْلَ أَنْ يُعْـرَضَ عَلَيْـهِ كَانَ الْعَمَـلُ بِهِـمَا أَثْقَـلَ عَلَيْـهِ فَـلَا تَكُفُّـوا عَـنْ مَقَالَـةٍ بِحَـقٍّ أَوْ مَشُـورَةٍ بِعَـدْلٍ فَـإِنِّي لَسْـتُ فِي نَفْـسِي بِفَـوْقِ أَنْ أُخْطِـئَ وَلَا آمَـنُ ذَلِـكَ مِـنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِـنْ نَفْـسِي مَـا هُـوَ أَمْلَـكُ بِـهِ مِنِّـي فَإِنَّـمَا أَنَـا وَأَنْتُـمْ عَبِيـدٌ مَمْلُوكُـونَ لِـرَبٍّ لَا رَبَّ غَـيْرُهُ يَمْلِـكُ مِنَّـا مَـا لَا نَمْلِـكُ مِـنْ أَنْفُسِـنَا وَأَخْرَجَنَـا مِمَّـا كُنَّـا فِيـهِ إِلَى مَـا صَلَحْنَـا عَلَيْـهِ فَأَبْدَلَنَـا بَعْـدَ الضَّلَالَـةِ بِالْهُـدَى وَ أَعْطَانَـا الْبَصِـيرَةَ بَعْـدَ الْعَمَـى.

الثاني عشر: تفكير شخصنة الحق:

وهـو مـن التفكـير الخطـير الـذي حـذّر منـه أمـير المؤمنـين عليه السلام، حيـث أن البعـض ينظـر إلى مظاهـر مقدسـة عنـد بعـض النـاس، فينخـدع بهـم ويتصـور أنهـم يمثلـون الحـق، ويتطـور هـذا التصـور إلى اعتقـاد بـأن الحـق يتجسـد فيهـم، حتـى إذا مـا تمرد الأشـخاص أصحـاب المظاهـر عـلى الموازيـن اليقينيـة للحـق والإمـام الحـق المنصّب للإمامـة طبقـاً للموازيـن العقليـة والشرعيـة الحقّـة، يتركـوا الموازيـن اليقينيـة للحق والإمـام الحـق ويتمسـكوا بالأشـخاص، فقـد جـاء في الحكمـة (٢٦٢) أن شـخصاً اسـمه الحـارث بـن حـوط جـاء إلى الإمـام عليه السلام في معركـة الجمـل فقالـه لـه: أتـراني أظـن أصحـاب الجمـل كانـوا عـلى ضلالـه؟

فقـال عليه السلام: يـا حـارث إنـك نظـرت تحتـك ولم تنظـر فوقـك فحـرت، إنـك لم تعرف الحـق فتعـرف مَـن أتـاه، ولم تعـرف الباطـل فتعـرف مَـن أتـاه، فقـال الحـارث: فـإني أعتـزل مـع سـعيد بـن مالـك وعبـد الله بـن عمـر.

فقال عليه السلام: إن سعيدا وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق؛ ولم يخذلا الباطل!

أي أنّ المقيـاس النهائـي في تقييـم الأشـخاص هـو الحـق اليقـين، الـذي قـام عليـه الدليـلان العقـلي والنقـلي القطعيـان، فمـن التـزم بالحـق ونـصره وتـرك الباطـل وخذلـه، فهـو المؤمـن الحقيقـي، أمـا مَـن خالـف الحـق اليقـين فهـو تـارك للإيـمان وضـال مهـما كانـت مظاهـره ومناسـكه وسـوابقه، فـشروط الإيـمان الحقيقـي هـو نـصرة الحـق وخـذلان الباطـل، فـلا يكفـي أن تنـصر الحـق ولا تخـذل الباطـل، فالمؤمـن الحقيقـي هـو الـذي يخـذل الباطـل ويقـف في وجهـه إضافـة إلى نـصرة الحـق، فمـن نـصر الحـق ولم يخـذل الباطـل فهـو في المقيـاس العلـوي لم يحقـق شروط الهدايـة، ولا يسـتحق أن يكـون مثـالاً يهتـدى بـه.

وعـلى الإنسـان الـذي يريـد أن يشـخّص الـصراط المسـتقيم في تقييـم الأشـخاص،

أن يخطـو ثـلاث خطـوات:

- **الأولى:** أن ينظـر إلى الأعـلى، أي يعـرف الموازيـن العليـا للحـق اليقينـي، الـذي يؤيـده العقـل اليقينـي والنقـل القطعـي الموافـق لأهـداف القـرآن، فـإذا كان الشـخص معهـا فهـو مـع الحـق نظريـاً.
- **الثانية:** أن ينصر الحق الذي تم تشخيصه ويكون تابعاً لإمام الحق.
- **الثالثـة:** أن يخـذل الباطـل المخالـف للحـق المذكـور، ويواجـه أئمـة هـذا الباطـل الذيـن يمنعـون تطبيـق الحـق، ويعـادون أئمّـته وقادتـه.

أمـا أن ننظـر إلى أشـخاص يقومـون ببعـض المظاهـر والشـعائر، أو كانـت لهـم في السـابق مواقـف لنـصرة الحـق، ونعتبرهـم ميزانـاً للحـق، دون النظـر إلى أفكارهـم ومواقفهـم الحـاضرة، فهـذه شـخصنة تـؤدي إلى طمـس الديـن، وظلـم رجالـه وقادتـه الحقيقيـين، وغلبـة الباطـل وأهلـه.

الثالث عشر: التفكير الفردي:

وهــو التفكــير الــذي يتمحــور حــول الفــرد وينســى المجتمــع، وهــذا التفكــير يســلب مــن الإســلام روحــه وحقيقتــه، لأن روح الإســلام قائمــة عــلى تحقيــق التقــوى الاجتماعيــة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1].

الفــلاح والنجــاح يحصــل بعــد تحقيــق الصــبر والمصابــرة والمرابطــة، والتقــوى التــي هــي تقــوى الصــبر الفــردي والصــبر الاجتماعــي وهــو المصابــرة، ثــم المرابطــة وهــي أن يأخــذ الانســان موضعــه المناســب في مواجهــة الأعــداء في الداخــل والخــارج، أي في الجهــاد الأكــبر وهــو جهــاد النفــس، والجهــاد الأصغــر وهــو جهــاد العــدو الخارجــي، ومــن الواضــح أن هــذه المرابطــة لا تتحقــق إذا لم يقــف الانســان في ميــدان الأخــلاق والعلاقــات الاجتماعيــة متســلحاً بســلاح التقــوى الاجتماعيــة، وكذلــك في ميــدان الاقتصــاد والسياســة والإدارة والعلــم.

وســورة العــصر تؤكــد هــذا المعنــى بوضــوح عندمــا يقســم الله ســبحانه بعظمتــه بــأنّ الانســان لا يخــرج مــن الخســارة إلاّ إذا ســلك منهــج ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[2].

وكان مقتــضى الآيــة الأولى المناســب للقَســم ﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ﴾[3]، أن يقــول (إِلَّا الَّــذِي آمَــنَ وَعَمِــلَ الصَّالِحَــاتِ)، لكنــه انتقــل إلى الجمــع وذكــر الإيمان والعمــل الصالــح بصيغــة الجمــع، لأنّــه هــو المطلــوب للخــروج مــن الخســارة، وكذلــك الشرطــان المهــمان الآخــران للخــروج مــن الخســارة وهمــا التــواصي بالحــق والتــواصي بالصــبر، لا يتحققــان بــدون التقــوى الاجتماعيــة، والتقــوى الاجتماعية لا

١- آل عمران: ٢٠٠.
٢- العصر: ٣.
٣- العصر: ١-٢.

تتحقق بدون التفكير الاجتماعي، وهذا ما أكد عليه أمير المؤمنين في خطاباته، وربّى أحبابه وأتباعه الصادقين على روح المسؤولية، والشعور الاجتماعي بأعلى درجاته، أنظر ماذا يقول لولده الحسن عليه السلام في الكتاب (٣١): (...يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَ اسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ...).

وفي الخطبة (١٦٧) يقول عليه السلام: (...اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ، أَطِيعُوا اللهَ وَلاَ تَعْصُوهُ...)، وقال فيها أيضاً: (... الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلاَلاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلاَصِ وَالتَّوحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلاَ يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلاَّ بَمَا يَجِبُ...).

هذه الخطبة ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام في أول خلافته، وفيها وضع أساس المجتمع الذي يريد بناءه، وهو المجتمع الولائي القائم على التقوى الاجتماعية، فيقول: إنّ الفرائض والواجبات التي تؤدي بصاحبها إلى الجنّة هي في روحها الشعور بحقوق الإنسان الآخر، والإخلاص والتوحيد يشدّ ويربط حقوق المسلمين في معاقدها، أي مواضعها من الذمم، وهو شعور كل مسلم أنّ ذمته مشتغلة بحفظ حقوق أخيه المسلم الآخر، وإنّ التقوى التي يريدها الله سبحانه من عبده هي تقوى الله، لا في الأمور والعبادات الفردية والشعور الفردي، بل هي تقوى الله في عباده وفي بلاده، ثم يوضح بنحو أجلى ويقول إنّ هذه التقوى هي المسؤولية لا عن العباد فحسب، وإنّما هي

مسـؤولية عـن البقـاع والبهائـم أيضـاً.

وفي آخـر لحظـات حياتـه وقبـل أن يـودع الأمّـة يؤكـد في وصيتـه، والوصيـة عـادة تكـون معـبرة عـن الأهـداف المهمّـة التـي يريـد المـوصي تحقيقهـا بعـد حياتـه فيقـول عليه السلام: (أُوصِيكُـمَا، وَجَمِيـعَ وَلَـدِي وَأَهْـلِي وَمَـنْ بَلَغَـهُ كِتَـابِي، بِتَقْـوَى الله، وَنَظْـمِ أَمْرِكُـمْ، وَصَـلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُـمْ،..... وَعَلَيْكُـمْ بِالتَّوَاصُـلِ وَالتَّبَـاذُلِ، وَإِيَّاكُـمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُـعَ...)، وكل فقـرات هـذه الوصيـة الخالـدة تدعـو إلى التقـوى الاجتماعيـة، (وَاللهَ اللهَ فِي الصَّـلاَةِ، فَإِنَّهَـا عَمُـودُ دِينِكُـمْ)، أي إنهـا مصـدر الطاقـة الروحيـة التـي تجعـل ديـن الانسـان لا يسـقط في صراعـات الحيـاة، الله الله في الجـيران كذلـك في الأيتـام، كذلـك في العمـل بالقـرآن - لا بقراءتـه وتجويـده فقـط - الله الله بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، الله الله في الجهـاد بـكل أنواعـه، هـذا هـو عـلي وهـو القـرآن الناطـق المتحـرك عـلى الأرض، في وصيتـه لولـده والإمـام مـن بعـده، وفي خطابـه لأمتـه وفي تعليماتـه في آخـر لحظـات حياتـه لمـن يريـد أن يتبـع نهجـه، فهـو يضـع منهجـاً تعليميـاً وتربويـاً يصنـع فيـه إنسـاناً يفكّـر بالآخريـن ويشـعر بهـم، ومـن هـذا الفكـر والشـعور ينطلـق ليـؤدي فرائضـه التـي بهـا يدخـل الجنّـة، وليسـت الفرائـض مشـهدا مسرحيـاً مركبـاً مـن كلـمات وحـركات وأفعـال يحـب الله أن يتمتـع بمشـاهدتها، ثـم يكافـئ صاحبهـا بإدخالـه الجنّـة بعـد المـوت، وإنـما هـي محطـات تفعيـل وتشـغيل لقـوى الإنسـان الروحيـة والعقليـة والفطريـة، كـي يشـعر بالآخريـن ويـؤدي إليهـم حقوقهـم، ويطيـع الله عـن هـذا الطريق، فالوسـيلة إلى الجنّـة هـي عبـادة الله وتقـوى الله في عبـاده وبـلاده، وبالشـعور بالمسـؤولية تجـاه البيئـة والأرض والسـماء والفضـاء والحيـوان والنبـات.

عبـادة الله والتبعيّـة لأمـير المؤمنـين تصنـع الشـعور الـذي يجعـل الإنسـان يحـب للآخريـن مـا يحـب لنفسـه ويكـره أن يصـدر منـه للآخريـن مـا يكـره أن يصـدر منهـم لـه، وألا يقـول للآخريـن مـا لا يحـب أن يقـال لـه.

هذا هو منهج أمير المؤمنين المترجم لمنهج القرآن الذي تكاد أن تكون كل أوامره وخطاباته جماعية، فهو منهج قائم على التفكير الاجتماعي الذي ينتج الشعور الاجتماعي، ومنه تنتج التقوى الاجتماعية وتتمحور الأمّة جميعا على حبل الله ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ...﴾[1].

الاعتصام جميعاً بحبل الله وعدم التفرق عنه، والدخول جميعا في حصن ولاية وليّ الله لتشكيل حزب الله ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2]، هذا هو منهج القرآن وعليّ، ولكن إذا جئنا إلى ثقافتنا الدينية نجد أن الفردية حاكمة على الأذهان، وبسبب هذه الرؤية الفردية للعبادات وفقدان التفكير الاجتماعي فقدت عباداتنا أهدافها، ولربما تجاوزت ذلك وتحولت العبادات إلى معاصي وخطايا، مثال ذلك ما يقوم به البعض عندما يؤدي الصلاة والتلاوة ومراسم الدعاء والشعائر والمسيرات، بنحو يعتدي به على حريم الآخرين وأملاكهم وعملهم وصحتهم وراحتهم، وهو يعتقد أنه يؤدي العبادة المطلوبة منه، وما على الآخرين إلاّ احترامه والرضا بكل ما يفعل.

وإذا صام البعض فإنّ على أهلهم وزملائهم أن يعلنوا حالة الإنذار والطوارئ، ويتجنّبوا إثارته بأي شيء، والبعض يسمح لنفسه في طواف البيت أو رمي الجمرات أو سائر المناسك، وكذلك في زيارة مراقد الأئمة الأطهار أن يدفع الناس ويؤذيهم من أجل أن يصل إلى الحجر (الأسود) أو يطوف أو يقبّل الضريح.

وبسبب التفكير الفردي فقدنا نظمنا وأخلاقنا الاجتماعية، وصار البعض منّا يتصرف وكأنّه يعيش وحده في هذا العالم، فتراه يضرب الطابور ونظم

١- آل عمران: ١٠٣.
٢- المائدة: ٥٦.

المراجعين ويريد من المسؤول أن يستثنيه ويقدمه على الآخرين، ويخالف قوانين السير وإشارات المرور ويمر بالحدائق العامة فيقطع الأزهار، ويشرب العصائر ويأكل الفاكهة ويرمي بالعلب الفارغة والقشور والنفايات في الشارع، وهو في كل ذلك يعتقد أنّ مخالفة شخص واحد لا قيمة لها ولا تضر، فهو يفعل ذلك وهو يفكر أنّه الوحيد في هذه الدنيا الذي يفعل ذلك، ولا يفكر أنّ الآلاف يمكن أن يفعلوا مثل ما فعل، وأنّ الآلاف الذين هم مثله لو قاموا بنفس فعله لحلّت الفوضى في شوارع البلد وأصحرت وأقفرت حدائقه، وامتلأت الأرض بالنفايات والفضاء بالروائح الكريهة، نعم هو قد يفكر بذلك ويكره للآخرين أن يفعلوا ذلك، ولكنه يسمح لنفسه به ولا يسمح للآخرين، وهذا نتائج التفكير الفردي الذي عالجه أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال بأنّ الإنسان يجب أن يجعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره، فما تحب أن تحققه لنفسك فأحبّه لغيرك، وما تكره أن يصدر من غيرك فاكرهه لنفسك ولا تسمح لها أن تعمله، ولو كان يفكر كما أمر أمير المؤمنين بتقوى الله في العباد والبلاد، وأنّه مسؤول عن البقاع والبهائم، أي عن سلامة البيئة ونظافتها والمحافظة على الأرض والهواء والأحياء من التلوث، لو كان يشعر بأنّ هذه مسؤولية دينيّة بها نحقق التقوى، وبدونها نفقد (التقوى) ولا يكون للدين تأثيره المطلوب على الفرد والمجتمع.

فهذا التفكير والشعور الاجتماعي هو الذي يصنع التقوى الاجتماعية والمجتمع الولائي المنظم المرابط، الذي يأخذ كل فرد فيه موضعه ليلتزم بالحق والعدل، ويحقق الحكمة والسعادة والكمال له ولغيره.

التفكير الاناني والانطوائي

ومـن اسـوء أنـواع التفكـير الفـردي هـو التفكـير الـذي يجعـل الفـرد ينطـوي عـلى نفسـه ولا يفكـر الا بالـرأي الـذي يناسـب ذوقـه ومنفعتـه ومصلحتـه، فهـذا الشـخص المبتـلى بهـذا التفكـير لا يمتلـك غـير العوينـات الفرديـة، وهـذا يختلـف عـن الفكـر الاسـتبدادي الـذي يرفـض الـرأي الآخـر، ولا يتقبـل النقـد والنصيحة، فهنـا المحـور هـو الأنانيـة والانطـواء عـلى المصلحـة الفرديـة، فيمكـن أن يتقبـل الآخريـن ويقدسـهم مـا دامـوا مطابقـين لمصلحتـه، فهـو ينظـر الى العـالم ومـا فيـه بعـين لا تـرى سـوى مصلحتـه و ميولـه، فـاذا كان هنـاك قانـون او قائـد او مسـؤول او حتـى مرجـع او عـالم دينـي او صاحـب مقـام اجتماعـي فانـه يقيـس كل هـؤلاء بـما يحققونـه لـه مـن مصالـح و منافـع، فـاذا كان القائـد او المتصـدي او المرجـع يحقـق مصلحـة المجتمـع و الامـة و الديـن و المذهـب، ولكنـه يتقاطـع مـع بعـض مصالـح هـذا الفـرد واراءه وأفـكاره الشـخصية، فانـه يخالـف هـذا القائـد والمرجـع ويبحـث عـن زلاتـه ان وجـدت وينشرهـا بـين النـاس، واذا لم توجـد يتمسـك بـما يقولـه أعداء هـذا القائـد او المرجـع ويقـوم بتسـقيطه بهـا، فالميـزان عنـده هـو نفسـه ومـا رات ومـا اشـتهت.

وقـد وصـف امـير المؤمنـين عليه السلام هـذا وامثالـه في الخطبـة ٨٨ واعتبرهـم سـبب تمزيـق هـذه الامـة فقـال: (فَيَـا عَجَبـاً! وَمَـا لِيَ لاَ أَعْجَـبُ مِـنْ خَطَـإِ هـذِهِ الْفِـرَقِ عَـلَى اختِـلاَفِ حُجَجِهَـا فِي دِينِهَـا! لاَ يَقْتَصُّـونَ أَثَـرَ نَبِـيٍّ، وَلاَيَقْتَـدُونَ بَعَمَـلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُـونَ بَغَيْـبٍ، وَلاَ يَعِفُّونَ عَـنْ عَيْـبٍ، يَعْمَلُـونَ فِي الشُّـبُهَاتِ، وَيَسِـيرُونَ فِي الشَّـهَوَاتِ، الْمَعْـرُوفُ فِيهِـمْ مَـا عَرَفُـوا، وَالْمُنْكَـرُ عِنْدَهُـمْ مَـا أَنْكَـرُوا، مَفْزَعُهُـمْ فِي الْمُعْضِـلاَتِ إِلَى أَنْفُسِـهِمْ، وَتَعْوِيلُهُـمْ فِي الْمُهِـمَّاتِ عَـلَى آرَائِهِـمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْـرِىءٍ مِنْهُـمْ إِمَـامُ نَفْسِـهِ، قَـدْ أَخَـذَ مِنْهَـا فِيـما يَـرَى بِعُـرىً ثِقَـاتٍ، وأَسْـبَابٍ مُحْكَـماتٍ.)

التشريعات الفردية

ومـن اثـار التفكـير الفـردي المدمـرة الاحـكام والقوانـين التـي تصدرهـا بعـض الجهـات والمحاكـم المدنيـة المسـتندة الى مـا يسـمى بالحريـة الشـخصية او حقـوق الانسـان مثـل احـكام الطـلاق وحـل الاختلافـات الماليـة والمعامـلات التـي لا ينظـر فيهـا الى مصالـح الاسرة والمجتمـع وينظـر الى مصلحـة الفـرد فقـط ورغبتـه ومنهـا القوانـين المدنيـة التـي تعطـي الحـق للشـاب والشـابة ان يفعلـوا مـا يشـاؤون بأنفسـهم ويظهـروا بـما يحبـون مـن المظاهـر وقـد غفـل او تغافـل ونسـى او تناسـى هـؤلاء المتحمسـون لمثـل هـذه القوانـين ان هـذه الحريـة التـي يدعـون اليهـا لا تعـود عـلى الاسرة والمجتمـع ومسـتقبل هـؤلاء الشـباب انفسـهم الا بالهـلاك والويـل والوبـال.

ان السـماح للشـباب مـن الانـاث والذكـور بالظهـور بـين النـاس بمظاهـر اثـارة الغريـزة باسـم الحريـة الفرديـة خدعـة مررتهـا علينـا الثقافـة الغربيـة، وهـي ناتجـة عـن اهمـال النظـر الى الاسرة والمجتمـع وتماسـكه، وتحطيـم أسـس العلاقـات الاجتماعيـة الصحيحـة القائمـة عـلى أسـاس الـزواج المقـدس الـذي تحكمـه الأهـداف واللـذات العاليـة والاشـباع النقـي الطاهـر لا فـوضى الاثـارة الخادعـة والنـزوات العابـرة.

الفقه الفردي

ومـن نتائـج التفكـير الفـردي هـو عـدم التفكـير بالمجتمـع عنـد صياغـة الخطـاب الدينـي وكذلـك عنـد اسـتنباط بعـض الاحـكام فيتـم التركيـز فيهـا عـلى الفـرد دون النظـر الى المجتمـع الـذي يـؤدي فيـه الفـرد عملـه الدينـي مثـل بعـض الحيـل الشرعيـة التـي يوجـه اليهـا البعـض لحـل مشـكلة بعـض الاحـكام كمسـائل الربـا مثـلا او المصالحـات التـي تلغـي الديـات وتظلـم حقـوق القاصريـن والضعفـاء

ويمكن ان نضيف مسالة هامة أخرى في هذا المجال و هي تشخيص درجة العدالة المطلوبة لعلماء الشريعة وحملة الرسالة والخطاب الديني والقائمين بالعمل الثقافي بشكل عام؛ فهل العدالة المطلوبة لهؤلاء هي بنفس درجة عدالة الناس الاخرين التي تتحقق بترك المحرمات و فعل الواجبات؟ اذا ما نظرنا الى هؤلاء كأفراد عاديين فلا فرق بينهم وبين غيرهم في ذلك لكن اذا نظرنا اليهم بما انهم يواجهون جميع افراد المجتمع لأجل هدايتهم و إيصال رسالات الله اليهم و تحقيق اهداف الله في الأرض و على راسها إقامة القسط والعدل وإظهار الرحمة الالهية في الأرض؛ فهنا لا يمكن ان تنجح هذه المهمة و الناس ترى القائد الديني و المبلغ و الخطيب يتمتع بالحياة المترفة المنعمة؛ ويسكن القصور ويملك الضياع و أولاده يتمرغون في النعيم، وأن عدم الاهتمام بهذا الامر يؤدي الى فشل مهمة القيادة الدينية المؤثرة والتبليغ الناجح؛ او أنه قد يحقق نتائج عكسية؛ فهنا لابد ان نشترط على أصحاب هذه المسؤوليات الحساسة ان تكون لهم درجات عالية من العدالة تختلف عن عامة الناس وكما يشترط على العالم و امام الجماعة ان يحافظ على المروءة؛ وهو ان لا يأكل ماشيا و ان لا تصدر منه حركات غير عرفية و غير لائقة بالفضلاء والعقلاء والاخيار؛ كذلك ينبغي ان نشترط عليه أن لا يخالف مواساة الناس الفقراء و الضعفاء في مستواهم المعيشي؛ اليس هذا اهم من الأول؟

ولست ادري هل ان الاكل ماشيا او ممارسة الرياضة مع الشباب تعد مخالفة للمروءة وتسبب عدم احترام الناس لعالم الدين، ولكن ظهور رجل الدين ومبلغ الشريعة بمظاهر الترف والبذخ في الاكل والنقل والسكن والتشريفات المكتبية لا يخالف المروءة ولا يؤثر على نظرة الناس اليه وقبولها له؟! (ما لكم كيف تحكمون).

ثم ان الارتكاز العقلائي الذي هو اهم الأدلة في وجوب رجوع عوام

النـاس الى الخبـير بأحـكام الديـن، وهـو الحـق لا ريـب فيـه، لكـن اليـس هـذا الارتـكاز أيضـا يكـون دليـلا عـلى ضرورة ان يكـون الخبـير بالديـن متصفـا بالعدالـة المناسـبة لمهمتـه الكبـيرة؟ وهـي ان يكـون قـدوة واسـوة للنـاس في عـدم التعلـق في مظاهـر الـترف والبـذخ، والبعـد عـن ثقافـة الاسـتهلاك والموضـات، وان يكـون كـما قـال امـير المؤمنـين عليه السلام في الخطبـة ٢٠٩: (إِنَّ اللهَ تَعَـالَى فَـرَضَ عَـلى أَئِمَّـةِ الْعَـدْلِ أَنْ يُقَـدِّرُوا أَنْفُسَـهُمْ بِضَعَفَةِ النَّـاسِ، كَيْـلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِـيرِ فَقْـرُهُ!)

الفصل الثاني
موانع العقل العملي (الإرادة)

موانع العقل العملي (الإرادة):

بعد أن تحدثنا عن موانع التفكير التي تؤدي إلى إنتاج المعلومة غير الصحيحة، أما على مستوى الخواص أو على مستوى العوام، وهناك كان البحث عن العقل النظري أو الحكمة النظرية وما ينبغي أن يعلم.

والآن سوف نتحدث عن العقل العملي وما ينبغي أن يعمل، وهو حديث تنفيذ وتطبيق العلم الصحيح، فالإنسان تارة لا يسلك المقدمات الصحيحة للوصول إلى الحق فهو مقصر ومحاسب على ذلك، لأنه لم يستثمر نعمة العقل للوصول إلى العلم الصحيح النافع، ولم يشخص الحق فصار من الضالين التائهين، وتارة يشخص الحق والباطل، ولكنه لا يملك الإرادة للالتزام بالحق ونصرته، أو ترك وخذلان الباطل ومواجهته، من هنا احتاج الإنسان إلى البرهان والدليل والحكمة لأجل تقوية عقله النظري، وإلى ارشاده إلى المقدمات الصحيحة، التي توصله إلى تشخيص الحق والباطل، وتحذيره من موانع التفكير الصحيح، كي لا يقع فيها فتمنعه عن بلوغ الوعي والفهم والبصيرة والفكر الصحيح، والبصيرة والوعي من شأنه أن يصنع الإرادة لو ترسّخ وتم تقويته وتحول من العقل المفهومي البحت؛ إلى الادراك واليقين القلبي، لكن هناك موانع وعقبات تمنع حصول اليقين القلبي الفعّال، والإرادة الجديّة التي تُحرّك الإنسان نحو العمل، فلابد من أن يلتفت الإنسان إلى هذه الموانع كي يزيلها، وهذا هو دور الموعظة والنصائح الأخلاقية، وتعليم برامج التزكية والتربية والخطوات العملية، لتقوية الإرادة والتأسّي بالقدوة والأسوة الحسنة.

ويمكن أن نقول أنّ نهج البلاغة قسمان:

أحدهما: للعقل النظري والإرشاد إلى صناعة التفكير المتبع للعلم الصحيح، وبيان موانع التفكير والوعي والبصيرة.

والآخـر: لتعليـم منهـج تقويـة الإرادة والعقـل العمـلي، وبيـان الموانـع والعقبـات التـي تحـول بـين الإنسـان وإرادتـه.

فالقسـم الأول: حكمـة وبراهـين وحقائـق تقـوّي العقـل النظـري وتعالـج موانعـه.

والقسـم الثـاني: مواعـظ حسـنة وأوامـر وارشـادات وبيـان حقائـق تقـوي العقـل العمـلي والإرادة، وتبـين موانـع الإرادة وتعالجهـا.

وهنـا نبيّـن مـا توصـل إليـه فهمنـا القـاصر مـن موانـع الإرادة التـي ذكرهـا أمـير الحـق وبطـل الإرادة الحقـة فنقـول:

المانع الأول: حب الدنيا واتباع الهوى:

وهـذا مـا أكـد عليـه وحـذر منـه بنحـو واسـع جـداً في الكثـير مـن خطبـه وحكمـه وكتبـه إلى ولاتـه، فقـد أشـار عليه السلام بنحـوٍ واضـح إلى أن مشـكلة السـقيفة – لـدى الـرؤوس الكبـيرة طبعـاً - مشـكلة نـزوة عملية، وليسـت شـبهة نظريـة، وأنهم عارفـون بالحـق لكـن منعهـم مـن الالتـزام بالحـق وتسـليمه لأهلـه أنهـم لا يملكون الإرادة التـي تجعلهـم يتنازلـون عـن الدنيـا لأجـل الحـق والآخـرة، يقـول عليه السلام في الخطبة (٣) المعروفة بالشقشقية:

(أَمَـا واللهِ لَقَـدْ تَقَمَّصَهَـا فُـلَانٌ وإِنَّـهُ لَيَعْلَـمُ أَنَّ مَحَـلِّي مِنْهَـا مَحَـلُّ الْقُطْـبِ مِـنَ الرَّحَـى يَنْحَـدِرُ عَنِّـي السَّـيْلُ ولَا يَرْقَـى إِلَيَّ الطَّـيْرُ...).

ويقـول بعـد بيـان مظلوميتـه مـن خـلال تصـدي مَـنْ قبلـه وصـبره عـلى هـذه المظلوميـة، ثـم تصديـه إلى الخلافـة بعـد اجتـماع النـاس عليـه (...فَلَـمَّا نَهَضْـتُ بِالْأَمْـرِ نَكَثَـتْ طَائِفَـةٌ وَ مَرَقَـتْ أُخْـرَى وَ قَسَـطَ آخَـرُونَ كَأَنَّهُـمْ لَمْ يَسْـمَعُوا اللهَّ سُـبْحَانَهُ يَقُـولُ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[١] بَـلَى وَاللهِ لَقَـدْ سَـمِعُوهَا وَوَعَوْهَـا وَلَكِنَّهُـمْ حَلِيَـتِ الدُّنْيَـا فِي أَعْيُنِهِـمْ وَرَاقَهُـمْ زِبْرِجُهَـا...).

وفي الخطبـة (٤٢) يقـول عليه السلام: (أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّ أَخْـوَفَ مَـا أَخَـافُ عَلَيْكُـمُ اثْنَـانِ اتِّبَـاعُ الْهَـوَى وَطُـولُ الأَمَـلِ فَأَمَّـا اتِّبَـاعُ الْهَوَى فَيَصُـدُّ عَـنِ الْحَـقِّ وَأَمَّـا طُـولُ الأَمَـلِ فَيُنْسِي الآخِـرَةَ...).

وفي الخطبـة (١٠٩) يقـول عليه السلام: (سُـبْحَانَكَ خَالِقـاً وَمَعْبُـوداً بِحُسْـنِ بَلَائِـكَ عِنْـدَ خَلْقِـكَ خَلَقْـتَ دَاراً وَجَعَلْـتَ فِيهَـا مَأْدُبَـةً مَشْرَبـاً وَمَطْعَـماً وَأَزْوَاجـاً وَخَدَمـاً وَقُصُـوراً وَأَنْهَـاراً وَزُرُوعـاً وَثِـمَاراً ثُـمَّ أَرْسَـلْتَ دَاعِيـاً يَدْعُـو إِلَيْهَـا فَـلَا الدَّاعِـيَ أَجَابُـوا وَلَا فِيـمَا رَغَّبْـتَ رَغِبُـوا وَلَا إِلَى مَـا شَـوَّقْتَ إِلَيْـهِ اشْـتَاقُوا...).

إلى أن يقـول عليه السلام: (...أَقْبَلُـوا عَـلَى جِيفَـةٍ قَـدِ افْتَضَحُـوا بِأَكْلِهَـا وَاصْطَلَحُـوا عَـلَى حُبِّهَـا وَمَـنْ عَشِـقَ شَـيْئاً أَعْشَـى بَـصَرَهُ وَأَمْـرَضَ قَلْبَـهُ فَهُـوَ يَنْظُـرُ بِعَـيْنٍ غَـيْرِ صَحِيحَـةٍ وَيَسْـمَعُ بِـأُذُنٍ غَـيْرِ سَـمِيعَةٍ قَـدْ خَرَقَـتِ الشَّـهَوَاتُ عَقْلَـهُ وَأَمَاتَـتِ الدُّنْيَـا قَلْبَـهُ...). (وَوَلِهَـتْ عَلَيْهَـا نَفْسُـهُ فَهُـوَ عَبْـدٌ لَهَـا وَلِمَـنْ فِي يَدَيْـهِ شَيْءٌ مِنْهَـا حَيْثُـمَا زَالَـتْ زَالَ إِلَيْهَـا وَحَيْثُـمَا أَقْبَلَـتْ أَقْبَـلَ عَلَيْهَـا لَا يَنْزَجِـرُ مِـنَ اللهِ بِزَاجِـرٍ وَلَا يَتَّعِـظُ مِنْـهُ بِوَاعِـظٍ...).

ما هي الدنيا؟

هـذه الأنـوار العلويـة تكشـف لنـا المقصـود مـن الدنيـا التـي تمنـع الإنسـان مـن الحركـة نحـو الحـق، وتشـلّ إرادتـه وعزمـه، فهـي التعلقـات التـي ينشـدّ إليهـا الإنسـان، فـإذا مـا ابتـلي يومـا بتقاطعهـا مـع الحـق لم يسـتطع أن يتركهـا لصالـح الحـق، بـل يـترك الحـق لصالحهـا، فـكل المتعلقـات التـي يـترك الحـق والديـن لصالحهـا فهـي الدنيـا، وليـس المقصـود مـن الدنيـا هـو حـب المخلوقـات الإلهيـة،

١ - القصص: ٨٣

ولا التعلـق بالأهـل والمـال والولـد والعلـم والعمـل، وحتـى الشـهادة العلميـة والمقـام الاجتماعـي، فهـذه كلهـا إذا كانـت في طريـق الحـق وهـو مـا يـرضي الله سـبحانه ويحقـق التكامـل المـادي والمعنـوي للفـرد والمجتمـع، فهـي حـق بـل هـي الديـن بعينـه، بـل لا يقـوم الديـن بغـير ذلـك، ولكـن المشـكلة إذا أصبحـت هـذه المتعلقـات هدفـاً أصليـاً وأساسـياً، فتعلـق الإنسـان بهـا كهـدف، وتحـرك الإنسـان لتحقيقهـا وبلوغهـا بـكل الوسـائل، فهنـا تكـون دنيـا مذمومـة وتصـد الإنسـان عـن الحـق وأهلـه.

الدنيا المحمودة والدنيا المذمومة:

ميّـز أمـير المؤمنـين عليه السلام بـين قسـمين مـن الدنيـا، أحدهمـا محمـود والآخـر مذموم، وهـذا معنـى شريـف جـداً ينبغـي الالتفـات إليـه، ولكنـه مفقـود عنـد أكثـر الناس، حيـث أنّ الأكثريـة يفهمـون مـن ذم الدنيـا والدعـوة إلى تركهـا وهـو معنـى متكـرر في نهـج البلاغـة، أنّ المقصـود منـه تـرك السـعادة واللـذة والحيـاة، وهـذا خطـأ شـائع في ثقافتنـا، والحـق أنّ مـا يدعـوا القـرآن والعـترة ونهـج البلاغـة إلى تركـه مـن الدنيـا هـو الدنيـا المذمومـة، وهـو مـا يعنـي الـذي ذكرنـاه مـن جعـل مفـردات الدنيـا هدفـاً والتعلـق بهـا ونسـيان الهـدف الحقيقـي للإنسـان في هـذه الحيـاة، أمّـا إذا جعلنـا مفـردات الدنيـا وسـائل لبلـوغ هـدف الإنسـان الحقيقـي، وهـو صيرورتـه خليفـة لله ومظهـر لصفـات الكـمال الإلهـي فهنـا سـتكون دنيـا محمـودة، وسـوف يحصـل عـلى لذاتهـا الطيبـة وسـعادتها النظيفـة الطاهـرة النقيّـة، فالديـن اذن ليـس تـرك الدنيـا مطلقـاً، وإنـما تـرك الدنيـا المذمومـة، والأخـذ بالدنيـا المحمـودة، فـإذا أخـذ بالدنيـا المحمـودة حصـل عليهـا وعـلى الآخـرة أيضـاً، وإذا أصرّ عـلى الدنيـا المذمومـة فسـوف يخسر الدنيـا المحمـودة والحيـاة الطيبـة الشريفـة العزيـزة الكريمة، مـع خـسران الحيـاة الآخـرة وهـي الحيـاة الطيبـة السـعيدة الأبديـة، أنظـر إلى هـذا المعنـى كيـف رسـمته الكلـمات العلويـة بأجمـل وأبـدع بيـان في الحكمـة (١٣١):

(...إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ...).

ويقول ﷺ في كتابه لمحمد بن أبي بكر وهو الكتاب ٢٧: (...وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَ آجِلِ الْآخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَ لَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَ أَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَ أَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَ الْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَ تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَ لَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ...).

وهذا الكلام يكشف لنا أن المؤمن عندما يلتزم بمنهج الايمان، ويؤدي أوامر الله، ويترك معاصيه لا يفقد الدنيا، بل إنّه يكسب الدنيا بأحسن مواصفاتها إضافة إلى الآخرة.

وما يقوم به ضعفاء الايمان من ترك الطاعة، أو ارتكاب المعاصي خوفا على دنياهم، فهو ناتج عن جهل بحقيقة المعاصي والمحرمات، وتوهم أن الدنيا ستذهب من أيديهم، ويحرمون منها إذا التزموا الطاعات، أو إذا لم يرتكبوا المعاصي، ولو فكروا بعقل سليم وغذوا عقولهم بالنصائح والمواعظ العلوية، لعرفوا أنّ المؤمن وصاحب التقوى يشارك أهل الدنيا بأحسن ما فيها من طعام ولباس وطيبات، إضافة إلى الآخرة التي ستكون له سعادة ولغير المؤمن حساب وعقاب، وللمؤمن المتقي في الدنيا لذات أخرى إضافة إلى لذة الطيبات المادية وهي لذة الزهد (أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ)، وهي لذة التحرر وعدم التعلق بالماديات والوقوع في أسرها وأغلالها، واليقين بأنه سوف ينتقل غداً إلى جوار الله، أي إلى الكمال المطلق الأبدي، حيث يصل

إلى مقـام لـه فيـه مـا يشـاء ويريـد مـن اللـذات الكاملـة والسـعادة المطلقـة.

المعادلة العلوية في نيل الدنيا:

يـرى أمـير المؤمنـين عليه السلام (وهـو لا يـرى إلاّ الحـق والحقيقـة بعينهـا) أن الدنيـا يحصـل عليهـا الإنسـان إذا جعلهـا وسـيلة للآخـرة فيربحهـا مـع الآخـرة، وأمـا إذا جعلهـا هدفـاً فسـيخسرها مـع الآخـرة.

يقـول عليه السلام في الخطبـة (٨٢): (مَـا أَصِـفُ مِـنْ دَارٍ أَوَّلُهَـا عَنَـاءٌ! وَآخِرُهَـا فَنَـاءٌ! فِي حَلاَلِهَـا حِسَـابٌ، وَفِي حَرَامِهَـا عِقَـابٌ. مَـنِ اسْـتَغْنَى فِيهَـا فُتِـنَ، وَمَـنِ افْتَقَـرَ فِيهَـا حَـزِنَ، وَمَـنْ سَـاعَاهَا فَاتَتْـهُ، وَمَـنْ قَعَـدَ عَنْهَـا وَاتَتْـهُ، وَمَـنْ أَبْـصَرَ بِهَـا بَصَّرَتْـهُ، وَمَـنْ أَبْـصَرَ إِلَيْهَـا أَعْمَتْـهُ).

أنظـر إلى الصـورة الرائعـة التـي ترسـمها هـذه الكلـمات العلويـة التـي هـي حكمـة وموعظـة في نفـس الوقـت، فهـي تحـرك العقـل لفهـم مـا يوجـد، وتشـحن الفـؤاد ليشـتاق لمـا ينبغـي أن يعمـل، إنّـه يقـول إنّ مَـن يهـرول خلـف الدنيـا فلـن يبلغهـا، ومَـن يجعلهـا مـرآة وعوينـة ينظـر بهـا إلى الآخـرة، وإلى أهـداف الإنسـانية العاليـة فسـوف يـرى الوجـود بآفاقـه المفتوحـة المطلقـة، ومَـن يبـصر إليهـا ولا يعـرف غيرهـا فسـوف يحبـس نفسـه في دائـرة ضيقـة ومعيشـة ضنكـة، وسـوف يكـون أعمـى عـن رؤيـة الوجـود الواسـع المطلـق والآفـاق المفتوحـة، ولذلـك فـإنّ صـلاح الدنيـا بـأن تكـون وسـيلة للآخـرة، وخرابهـا بنسـيان الآخـرة، ويقـول عليه السلام حـول هـذا المعنـى في الخطبـة (٢٢٣) في وصـف الدنيـا: (...وَلَنِعْـمَ دَارُ مَـنْ لَمْ يَـرْضَ بِهَـا دَاراً وَمَحَـلُّ مَـنْ لَمْ يُوَطِّنْهَـا مَحَـلًّا وَإِنَّ السُّـعَدَاءَ بِالدُّنْيَـا غَـداً هُـمُ الْهَارِبُـونَ مِنْهَـا الْيَـوْمَ...).

في الخطبـة (١٣٣) يقـول عليه السلام: (وَإِنَّـمَا الدُّنْيَـا مُنْتَهَـى بَـصَرِ الْأَعْمَـى، لاَ يُبْـصِرُ مِمَّـا وَرَاءَهَـا شَـيئاً، وَالْبَصِـيرُ يَنْفُذُهَـا بَـصَرُهُ، وَيَعْلَـمُ أَنَّ الـدَّارَ وَرَاءَهَـا، فَالْبَصِـيرُ

مِنْهَـا شَـاخِصٌ، وَالْأَعْمَـى إِلَيْهَـا شَـاخِصٌ، وَالْبَصِـيرُ مِنْهَـا مُتَـزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَـى لَهَـا مُتَـزَوِّدٌ.).

فعندمـا لا يـرى الإنسـان غـير المـال والشـهوات والمقـام شـيئاً، فهـذه هـي الدنيـا وهـذا الإنسـان أعمـى عـن هدفـه الحقيقـي، ومنشـغل عنـه بهـدف وهمـي زائـل لا قيمـة لـه، كمـن دُعـيَ إلى ضيافـة كريمـة طويلـة الأمـد فيهـا أعـلى درجات السـعادة والكرامـة، وقيـل لـه هـذا البـاب فافتحـه وادخـل، ولكنـه رأى في البـاب بعـض اللهـو واللعـب فانشـغل بـه، وبقـي متعلقـاً بالبـاب حتـى انتهـى وقتـه المحـدود لـه للدخـول إلى الضيافـة الكريمـة، فهـذا البـاب قـد أعـماه وأنسـاه مـا وراء البـاب وهـي كرامتـه وحياتـه الحقيقيـة التـي جـاء مـن أجلهـا.

وأعتقـد أنّ هـذه الكلـمات تحمـل أعظـم المعـاني التـي تفعّـل وتنمـي العقـل العمـلي وتشـحن العـزم، وتشـحذ الهمـم وتصنـع الإرادة، فهـي تقـول للإنسـان الـذي لا يـرى سـوى الدنيـا، ويـترك الطاعـة ويفعـل المعصيـة لأجـل أن لا تفوتـه الدنيـا، افتـح عينيـك فانظـر الحقيقـة ولا تظلـم نفسـك أيهـا المسـكين، إنـك تريـد أن تربـح القليـل الخبيـث الفـاني الزائـل، ببيـع الكثـير الطيـب الباقـي، لكنـك تقـدم عـلى هـذه المعاملـة الخـاسرة لأنـك لا تـرى الطيـب الدائـم الباقـي، فأنـت أعمـى ولا تـرى غـير القليـل الفـاني، فافتـح عينيـك وأمـط اللثـام عـن بـصرك، لـترى أنـك إذا تركـت الحـق وإمـام الحـق لأجـل الدنيـا، فإنّـك تخسر الحيـاة الطيبة واللـذات العاليـة والـشرف السـامي والعـزّة الباقيـة والدولـة الكريمـة والسـعادة الأبديـة في مقابـل لحظـات نـزوة قـذرة فانيـة، وسـورة غضـب وعصبيـة خـاسرة، وخيـال غَلَبَـة وتسـلط تافـه، وسراب تكاثـر وتفاخـر وغـرور بائـر وهالـك، فانظـر مـاذا تفعـل بنفسـك؟ ولـو أراد أن يخدعـك أعـدى أعدائـك فهـل يسـتطيع أن يفعـل بـك أسـوأ ممـا فعلـت بنفسـك؟! وهـل هنـاك تجـارة أشـدّ وأعظـم خسـارة مـن تجارتـك؟!

وأمـا الرابـح الحقيقـي فهـو الـذي يتـأوّه أمـير المؤمنـين ويبكـي شـوقاً إلى رؤيتـه، وحزنـاً عـلى فراقـه أمثـال عـمار وذي الشـهادتين وابـن التيهـان، وهـم من الذيـن قال فيهـم: (...وَبَاعُـوا قَلِيـلاً مِـنَ الدُّنْيَـا لاَ يَبْقَـى، بِكَثِـيرٍ مِـنَ الْآخِـرَةِ لاَيَفْنَـى...)[1]، وهـم الذيـن عاشـوا أعـزّاء كرمـاء مرفوعـي الـرؤوس والقامـات، يحلِّقـون فـوق الـذرى والقمـم، ورحلـوا شـهداء (...قَـدْ ـ وَاللهِ ـ لَقُـوا اللهَ فَوَفَّاهُـمْ أُجُورَهُـمْ، وَأَحَلَّهُـمْ دَارَ الْأَمْـنِ بَعْـدَ خَوْفِهِـمْ...)، وهـم الذيـن وصفهـم لصاحبـه همـام فلـم يتحمـل حتـى خرجـت نفسـه مـن بدنـه ليلتحق بهـم، وهـم المتقـون الذيـن وصفهم إمامهـم في الخطبـة (١٩٣) فقـال: (...صَـبَرُوا أَيَّامـاً قَصِـيرَةً أَعْقَبَتْهُـمْ رَاحَـةً طَوِيلَـةً، تِجَـارَةٌ مَرْبِحَـةٌ، يَسَّرَهَـا لَهُـمْ رَبُّهُـم. أَرَادَتْهُـمُ الْدُّنْيَـا فَلَـمْ يُرِيدُوهَـا، وَأَسَرَتْهُـمْ فَفَـدَوْا أَنْفُسَـهُمْ مِنْهَـا...)، (...قُـرَّةُ عَيْنِـهِ فِيَـما لاَ يَـزُولُ، وَزَهَادَتُـهُ فِيَـما لاَ يَبْقَـى، يَمْـزُجُ الْحِلْـمَ بِالْعِلْـمَ، وَالْقَـوْلَ بِالْعَمَـلِ. تَـرَاهُ قَرِيباً أَمَلُـهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِـعاً قَلْبُـهُ، قَانِعَـةً نَفْسُـهُ، مَنْزُوراً أَكْلُـهُ، سَـهْلاً أَمْـرُهُ، حَرِيـزاً دِينُـهُ، مَيِّتَـةً شَـهْوَتُهُ، مَكْظُومـاً غَيْظُـهُ. الْخَـيْرُ مِنْـهُ مَأْمُـولٌ، وَالـشَّرُّ مِنْـهُ مَأْمُـونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِـينَ كُتِـبَ فِي الذَّاكِرِيـنَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِيـنَ لَمْ يُكْتَـبْ مِـنَ الْغَافِلِـينَ. يَعْفُـو عَمَّـنْ ظَلَمَـهُ، وَيُعْطِـي مَـنْ حَرَمَـهُ، وَيَصِـلُ مَـنْ قَطَعَـهُ. بَعِيـداً فُحشُـهُ، لَيِّنـاً قَوْلُـهُ، غَائِبـاً مُنْكَـرُهُ، حَـاضِراً مَعْرُوفُـهُ، مُقْبِـلاً خَـيْرُهُ، مُدْبِـراً شَرُّهُ...).

أمّـا مـا هـي قيمـة الدنيـا الحقيقيـة، وهل تسـاوي شـيئاً يسـتحق أن يفقد الإنسـان التقـوى مـن أجلـه؟ ويـترك الطاعـة ويرتكـب المعصيـة كـي يحصـل عليه؟

يعلّـمنا ميـزان الحـق والحقيقـة عـليٌّ سـلام الله عليـه ويقـول في الخطبـة (٢٢٤): (...وَاللهِ لَـوْ أُعْطِيـتُ الْأَقَالِيـمَ السَّـبْعَةَ بِـمَا تَحْـتَ أَفْلاَكِهَـا، عَـلَى أَنْ أَعْـصِيَ اللهَ فِي نَمْلَـةٍ أَسْـلُبُهَا جِلْبَ شَـعِيرَةٍ مَـا فَعَلْتُـهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُـمْ عِنْـدِي لَأَهْـوَنُ مِـنْ وَرَقَـةٍ فِي فَـمِ جَـرَادَةٍ تَقْضَمُهَـا، مَـا لِعَـلِيّ وَلِنَعِيـمٍ يَفْنَـى، وَلَـذَّةٍ لاَ تَبْقَـى! نَعُـوذُ بِـاللهِ مِـنْ

١ - في الخطبة ١٨٢.

سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ).

هذا تقييم أعظم عارف وخبير بقيمة الأشياء، هذا تقييم العالم بحقائق الأشياء وبواطنها وجواهرها، يقول لو طلب مني أن أعصي الله في معصية ومخالفة صغيرة تافهة لا قيمة لها، ولا تعدّ معصية لا شرعاً ولا عرفاً، بل هي مجرد ظلم يسير لنملة بمقدار سلب قشر حبة شعير منها، وفي مقابل هذه المخالفة اليسيرة التي لا تذكر، قالوا لي نعطيك لا الآلاف ولا الملايين ولا المليارات ولا آلاف المليارات، بل نعطيك السموات السبع والأرضين السبع بما فيها لم أقبل بتلك المعاملة، لأنها معاملة خاسرة في نظر عليّ، وهي لو حصلت فهي معاملة مَن أُصيب بسُبات ونوم وتحجُّر العقل وقبح الزلل.

هذه الكلمات العلوية تدلّ على أن الدنيا مهما عظمت وعظمت حتى صارت تساوي الكون كله، لا تستحق أن يشتريها الإنسان بارتكاب معصية، ولو صغرت وصغرت وكانت بمقدار سلب حشرة قشرة حبة شعير، ومَن يفعل ذلك فلا عقل له، ومَن يفعل ذلك فقد فعل زلّة قبيحة.

ولو تأمّل المرء بعمق في هذه المعادلات العلوية، لاتضحت له حقيقتها، فهي قائمة على إبصار حقائق هذا الوجود، وكشف القيم الواقعية للأشياء، ومَن بلغ هذا المقام المعرفي فإنه سوف يدرك أن الآخرة والحق شيء باق، وإنّ الدنيا والباطل شيء فان، ولا يمكن لعاقل أن يستبدل شيئاً باقياً دائماً مهما صغر بشيء فان زائل مهما كبر وعظم، فلا أحد يستبدل ديناراً صحيحاً بألف دينار مزور ومزيف. فما رأيك بمن يستبدل مليارات ال دنانير الصحيحة بدينار مزيف ومزور وممزق؟! انه الذي يبيع آخرته بدنياه!

الفكر العلوي وصناعة اللذات العالية:

كـما إن معـادلات الفكـر العلـوي تصنـع الشـعور بلـذات عاليـة سـامية هـي لـذات الفضائـل الإنسـانية والباقيـات الصالحـات، فتصنـع إرادة حديديـة تجعـل الإنسـان يرتفـع إلى درجـة لا يكتفـي فيهـا بـأن يـترك لـذات دنيـا المعـاصي والباطـل لأجـل لـذات الآخـرة والحـق، بـل يتحمـل آلام الدنيـا وأتعابهـا مـن أجـل التمسـك بالحـق والعـدل ونيـل تلـك اللـذات، أنظـر مـاذا يقـول في بدايـة هـذه الخطبـة: (وَاللهِ لَأَنْ أَبِيـتَ عَـلَى حَسَـكِ السَّـعْدَانِ مُسَـهَّداً، أَوْ أُجَـرَّ فِي الْأَغْـلاَلِ مُصَفَّـداً، أَحَـبُّ إِلَيَّ مِـنْ أَنْ أَلْقَـى اللهَ وَرَسُـولَهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ظَالِمـاً لِبَعْـضِ الْعِبَـادِ، وَغَاصِبـاً لِـشَيْءٍ مِـنَ الْحُطَـامِ، وَكَيْـفَ أَظْلِـمُ أَحَـداً لِنَفْـسٍ يُـسْرِعُ إِلَى الْبِـلَى قُفُولُهَـا، وَيَطُـولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَـا؟!...).

ثـم يبيّـن لنـا تجسـيد وتطبيـق هـذا الاعتقـاد والتفـاني مـن أجـل العـدل والقيـم الإنسـانية العاليـة واللـذات الباقيـة، ومـع مَـنْ؟ مـع أقـرب النـاس إليـه وهـو أخـوه عقيـل!! وقـد لجـأ إليـه وهـو يشـتكي مـن الفقـر الشـديد، ومـاذا أراد مـن عـليّ؟ هـل أراد ذهبـا؟ هـل أراد أن يبنـي لـه قـصراً؟ هـل أراد منـه آلافـاً وملايـين؟ هـل طلـب منـه القناطـير المقنطـرة والمقاطعـات والضِّيـاع والعرصـات؟

كلا إنـما أراد منـه صاعـاً مـن الحنطـة (٣كغـم)، وليـس لـه بـل لأطفالـه الصغـار الذيـن دكنـت واسـودت وجوههـم، وغُـبّرت الوانهـم مـن آثـار الفقـر والجـوع، ولكـن عليّـاً أبـى أن يعطيـه ويسـتجيب لـه بالطريقـة التـي تخالـف العـدل، وتجعلـه متميـزاً عـلى سـائر النـاس، وعندمـا يـصرّ عقيـل عـلى أخيـه أمـير المؤمنـين ويكـرر القـول والطلـب عليـه، يـرى عـلي أن لا يكتفـي بجـواب الرفـض القاطـع، بـل يجيبـه جوابـاً تأديبيـاً شـديدا وملفتـاً للغايـة، ليكـون درسـاً لـه ولجميـع الأجيـال، لا سـيما للحاكمـين والمتصديـن لإدارة شـؤون النـاس، ومَـن تصـل يـده إلى مـال

الأمّة، أنظر ماذا يقول بطل العدالة الإنسانية في حكاية هذا الدرس الخالد: (...وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمَعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظىً...).

وبعد قصة عقيل، يعلّمنا (الإمام عليّ عليه السلام) درساً آخر عن شخص متزلّف، ظن أنّه يستطيع أن يستميل عليّاً بالهدايا والرشا، فجاءه بوعاء حلوى معجونة وملفوفة بعنوان هدية، فلننظر هنا كيف يتعامل عليّ مع هدايا المتزلفين المتملقين، ورشاوى المرتشين، وكيف يراها بعين بصيرته!

نرى عليّا هنا يزمجر في وجه هذا المخادع، ويزأر كالأسد الهائج، وكما فعل في بدر وخيبر والأحزاب، في وجه الوليد وعتبة ومرحب وابن عبد ود، كذلك فعل هنا فالمعركة هي المعركة، بل لعلها هنا أعظم، لأن معلّمه رسول الله صلى الله عليه وآله علّمه أنّ هنا الجهاد الأكبر، وهناك الجهاد الأصغر، فيصرخ بوجهه قائلاً: (...هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟...)، أي جئتني لتخدعني وتخرجني عن دين الله بهذه الرشوة (أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُوجِنَّة، أَمْ تَهْجُرُ)، أي إن مَن يفعل ذلك أمّا مختل في عقله ونظامه الادراكي، أو أصابه مس من الجن والشيطان، أو إنّه مريض يهذي بما لا معنى له، هذا هو تقييم إمام الحق والحقيقة لمن يضحّي بقيمة العدل من أجل نزوات مادية تافهة زائلة.

وفي الكتـاب (٤٥) نـرى معلـم الإنسـانية الخالـد يوبّـخ ممثلـه ووكيلـه وعاملـه عـلى البـصرة، لأنـه اسـتجاب إلى وليمـة لم يـدعَ إليهـا إلاّ الأغنيـاء، ومـا ينبغـي لمـن يمثـل عليّـاً أن يخـدش شـعور الفقـراء والضعفـاء، ويتناغـم مـع الحفـلات والولائـم الاجتماعيـة التـي تكـرّس الطبقيـة وتخالـف الموازيـن الإلهيـة في الاكـرام والاحـترام، فيقـول عليه السلام لعثـمان بـن حنيـف الأنصـاري: (أَمَّـا بَعْـدُ، يَابْـنَ حُنَيْـف، فَقَـدْ بَلَغَنِـي أَنَّ رَجُـلاً مِـنْ فِتْيَـةِ أَهْـلِ الْبَـصْرَةِ دَعَـاكَ إلى مَأْدُبَـة، فَأَسْرَعْـتَ إِلَيْهَـا، تُسْـتَطَابُ لَكَ الْأَلْـوَانُ، وَتُنْقَـلُ إِلَيْـكَ الْجِفَـانُ، وَمَـا ظَنَنْـتُ أَنَّـكَ تُجِيـبُ إلى طَعَـامِ قَـوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُـوٌّ، وَغَنِيُّهُـمْ مَدْعُـوٌّ. فَانْظُـرْ إِلَى مَـا تَقْضَمُهُ مِـنْ هـذَا الْمَقْضَـمِ، فَـمَا اشْـتَبَهَ عَلَيْـكَ عِلْمُـهُ فَالْفِظْـهُ، وَمَـا أَيْقَنْـتَ بِطِيـبِ وُجُوهِـهِ فَنَـلْ مِنْـهُ...)، فـإذا كان المشـتبه علمـه يجـب أن يُـلفظ ويُـرمى مـن الفـم، فكيـف بمعلـوم الحرمـة؟ وكيف يلفـظ الإنسـان طعامـاً إذا لم يشـعر بقبحـه وقذارتـه.

الشعور العالي ميزان العلويّة:

مـا هـو الميـزان في الانتسـاب إلى عـلي؟ ومـا الطريـق إلى أن أكـون علويّـاً؟ إنّ مـا نفهـم مـن تعاليـم ووصايـا عـلي لأصحابـه وأتباعـه ومحبّـيه، أنّ التشـيّع والـولاء والمحبـة هـو تفاعـل ومشـاركة في الفكـر والشـعور والإرادة، هـو ليـس عمليـة ربـط ميكانيكـي ظاهـري، لأجـل تحقيـق أغـراض مسـتقبلية قريبـة أو بعيـدة، كـما يرتبـط الجنـدي بالضابـط والمحكـوم بالحاكـم، إذا أردت أن تكـون علويـاً فلابـد أن تكـون عاليـاً في شـعورك، فحقيقـة المنهـج العلـوي ليـس أوامـر ونواهـي تنفـذ طمعـاً بوعـد أو خوفـاً مـن وعيـد، وإنـما هـو لـذات وآلام نقديـة حـاضرة، ناتجـة عـن كشـف وبصـيرة وشـعور، والديـن إذا لم يصـل إلى هـذا المسـتوى مـن المعرفـة والادراك، فسـيبقى ضعيفـاً مهـزوزاً ومتزلـزلاً وتابعـاً لظـروف وحسـابات الربـح والخسـارة.

ولذلـك يقـول عـليّ لابـن حنيـف: (...أَلاَ وَإِنَّ لِـكُلِّ مَأْمُـومٍ إِمَامـاً، يَقْتَـدِي

بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ...).

أي أنّ ميزان التبعية لعلي هو الاقتداء والاستضاءة بنور العلم، وأقل ما في نور علم الإمام هو أنّه يكشف جمال الطاعات ولذّتها العالية، وقبح المعاصي ودناءتها وقذارتها، وأقل آثار هذا العلم على مَن يستضيء بنوره هو أنّه يظهر على صاحبه على شكل ورع واجتهاد وعفّة وسداد، ومَن حقّق في نفسه هذه الصفات الأربع، فقد أصبح عونا وناصراً ومواليا لإمامه، والصفات الأربع لا تتحقق دون الاستضاءة بنور علم الإمام الذي يجعل الإنسان الموالي والتابع يشارك الإمام في لذاته وآلامه،، وإذا كان الإمام يقول: (...وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ❖ ❖ ❖ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

فهو يقول بأنّي قادر على أن أختار لنفسي حياة المترفين الغارقين في النعم الماديّة، ولكن هذا الترف المادي على حساب البطون الطاوية والأكباد الساخنة والأجساد الخاوية، في الشعور العلوي من أشدّ الآلام وأسوأ الأدواء.

وعندما يخيّر عليّ بين مواساة الفقراء والجياع بجشوبة العيش وتحمّل مكاره الدهر، وبين ترف المنعمين الشابعين الغافلين يقول: إنّ لذة المواساة ليس كمثلها لذة، وداء الترف على حساب الفقراء ليس كمثله داء، وإنّ ترك المواساة نزول من قمة الإنسانية إلى مستنقع البهيمية (...فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي

أَكْلُ الطَّيِّبَــاتِ، كَالْبَهِيمَــةِ الْمَرْبُوطَــةِ هَمُّهَــا عَلَفُهَــا، أَوِ الْمُرْسَــلَةِ شُــغْلُهَا تَقَمُّمُهَــا، تَكْتَرِشُ مِــنْ أَعْلاَفِهَــا، وَتَلْهُــو عَــمَّا يُــرَادُ بِهَــا،...).

أَتَمْتَــلِىءُ السَّــائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَــبْرُكَ؟ وَتَشْــبَعُ الرَّبِيضَةُ مِــنْ عُشْــبِهَا فَتَرْبِــضَ؟ وَيَــأْكُلُ عَــلِيٌّ مِــنْ زَادِهِ فَيَهْجَــعَ؟ قَــرَّتْ إِذاً عَيْنُــهُ إِذَا اقْتَــدَى بَعْــدَ السِّــنِينَ الْمُتَطَاوِلَــةِ بِالْبَهِيمَــةِ الْهَامِلَــةِ، وَالسَّــائِمَةِ الْمَرْعِيَّــةِ!

فالهويــة العلويــة تقــوم عــلى أســاس التنميــة العقليــة، والادراك الــذي يجعــل الإنســان المــوالي والمحــب، يقــدم عــلى الطاعــة والتضحيــة والعطــاء والمواســاة والإيثــار، ويــترك المعــاصي والجشــع والحــرص والرذائــل والــترف والبــذخ، لا يفعل ذلــك بعنــوان دَيــن يهبــه لله كــي يســتوفيه بعــد المــوت، وإنّــما يفعــل ذلك وهو يشــعر بالسّــمو والعلــو والعــزّة والــشرف والعنفــوان والَلــذات العاليــة، ويحلّــق في فضــاء الكــمال المطلــق الأبــدي، ويــرى أنّ خــلاف ذلــك تســافل نحــو حضيــض البهيميــة والحيــاة الضنكــة القــذرة ومســتنقع الرذيلــة والنصــب والحرمــان.

وهــل هنــاك أحــد بعــد هــذه المعرفــة وهــذا الادراك والشــعور، يــترك الحــق ويقدم عــلى الباطل؟!

المانع الثاني: التعصّب والتكبّر:

في الكثــير مــن الأحيــان يتبــين الحــق للإنســان ويعرفــه ولكنــه لا يتحــرك نحــو العمــل بــه، بســبب التعصــب لرأيــه الســابق، أو لأنّ الحــق خــلاف مــا يريــده لنفســه أو عُصبتــه أو قبيلتــه أو حزبــه، وهــذا التفكــير يختلــف عــن التفكــير الفــردي الأنــاني الانطوائــي الــذي ذكرنــاه في أن ذاك التفكــير يجعــل صاحبــه لا يــرى الحــق والقانــون الصحيــح والقائــد الكفــوء إلاّ مــا حقــق مصلحتــه وطابــق رأيــه، لكــن هنــا يُعــرف أنــه حــق ولكــن لا يملــك الإرادة للعمــل وفقــاً للحــق، ومنشــأ هــذه العصبيــة أمــراض التكــبّر والغــرور والإعجــاب بالنفــس، وقــد حــذر أمــير المؤمنــين عليه السلام مــن

العصبية ومناشئها، والخطبة (١٩٢) المسماة بخطبة القاصعة مخصّصة لعلاج هذا المرض العضال، الذي دمّر الأمم وأهلك الأجيال المتعاقبة، وحقاً إن هذه الخطبة وصفة علاج كاملة، لو تمّت دراستها بعمق وتحليل وجعلناها منهجاً تعليمياً وتربوياً لمدارسنا وجامعاتنا ومحافلنا الثقافية، ويمكن ترتيب مراحل تنمية العقل لعلاج العصبية اقتباساً من هذه الخطبة كما يلي:

أولاً: إنّ كمال الإنسان بالتبعية للحق، والحق هو الأمر والنهي والحكم والموقف والرؤية المطابقة لواقع الكون والإنسان، ولا يشخّص هذا الحق إلاّ خالق الكون والإنسان، الذي هو خالق ومدبّر ورب ومدير في نفس الوقت، كما أنّ خلقه وربوبيته قائمة على أساس رحمته، فهو (الله رب العالمين الرحمن الرحيم) خلق الخلق ويدبّره ويهديه لأجل أن يرحمه، وكل ما في الوجود من تكوين، فهي مظاهر للرحمة، وكل ما يصل إلى الخلق من تشريع فهو مناهج للرحمة، وكل مَن ترك أحكام الله وتمرّد على أوامره ونواهيه، فقد نازع الله صفة الربوبيّة وتدبير الخلق لأجل رحمته، ومن فعل ذلك فقد نازع الله سبحانه وأراد أن يسلب منه لباس العزّ والكبرياء، ولا نتيجة لمثل هذا العمل إلاّ الخروج من منهج الرحمة، ومواجهة عقوبة الطرد واللعنة، يقول ﷺ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ).

ثانياً: من أجل تربية الإنسان على ترك التكبّر في مقابل مصدر كماله وخيره وهو الله سبحانه، فقد جعل الله له سنّة الاختبار، لأجل ترويضه وتربيته على التواضع لأوامر الله، بأن يؤمر بشيء يصطدم مع نزعة التكبّر والغرور والخيلاء، وعندما يُحكّم الإنسان عقله على خياله ووهمه ويمتثل أوامر الله، ينجح في عملية الامتحان والاختبار، ويقتلع جذور الكبر والعصبية من نفسه.

يقول ﷺ: (...ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ

مِـنَ الْمُسْـتَكْبِرِينَ، فَقَـالَ سُـبْحَانَهُ وَهُـوَ الْعَـالِمُ بِمُضْمَـرَاتِ الْقُلُـوبِ، وَمَحْجُوبَـاتِ الْغُيُـوبِ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾ [1] اعْتَرَضَتْـهُ الْحَمِيَّـةُ، فَافْتَخَـرَ عَـلَى آدَمَ بَخَلْقِـهِ، وَتَعَصَّـبَ عَلَيْـهِ لِأَصْلِـهِ...).

ثالثـاً: إنّ ابليـس هـو قائـد وإمـام المسـتكبرين، وهـم جنـوده وذريّـته (...فَعَـدُوُّ اللهِ إِمَـامُ الْمُتَعَصِّبِـينَ، وَسَـلَفُ الْمُسْـتَكْبِرِينَ، الَّـذِي وَضَـعَ أَسَـاسَ الْعَصَبِيَّـةِ، وَنَـازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّـةِ، وَادَّرَعَ لِبَـاسَ التَّعَـزُّزِ، وَخَلَـعَ قِنَـاعَ التَّذَلُّـلِ...).

رابعـاً: تدبّـر عاقبـة التكبّـر والعصبيّـة: عندمـا يتكـبر بعضنـا عـلى بعـض، فـما هـي النتيجـة؟ أنـا أتكـبر وأتعصـب لرأيـي ولا آخـذ كلمـة الحـق منـك، وأنـت في المقابـل تتعامـل بنفـس الطريقـة،

- أول نتائـج هـذا العمـل هـو أننـي حرمـت مـن كلمـة الحـق وأنـت أيضـاً إذا قابلتنـي بالتعامـل نفسـه سـوف تحـرم مـن كلمـة الحـق.
- وثانياً سوف نفقد المحبـة فيما بيننا.
- وثالثاً سوف تدب الكراهية ويسود البغضاء.
- ورابعـاً سـوف تشـب نـار الاختـلاف وبعدهـا النـزاع، هـذا عـلى المسـتوى الفـردي، أمـا عـلى المسـتوى الاجتماعـي فـإذا تعصبـت أنـا لقبيلتـي وعشـيرتي وحـزبي بالباطـل، وأنـت أيضـاً تعصبـت لفئتـك وجماعتـك بالباطـل، وتركنـا الحـق ولم نتوحـد ونجتمـع حولـه، فقـد فقدنـا الحـق والاجتـماع والوحـدة والقـوة، وسـوف يحـل محلهـا الكراهيـة والبغضـاء والشـحناء، ومـن ثـم يحصـل النـزاع والحـروب والقتـل، هـذه نتائـج التكـبر، وهـذا هـو مـشروع ابليـس وجنـده وأعوانـه، وقـد حذَّرنـا منهـا أمـير المؤمنـين عليه السلام بقولـه:

١- ص: ٧١ - ٧٤.

(...فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، وإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ. وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ،...).

ثم يقول ﷺ في وصف الكبر، بأنّه نار حميّة الجاهلية، وريح شيطانية فيقول: (...وَلاَ تَكُونُوا كالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

فالنزعة نحو التعصب الأعمى على حساب الحق هي من أعراض داء العظمة، الذي لا يجلب للإنسان والمجتمع سوى الحرمان والكراهية والدمار، فهو نار الحمية التي يضرمها عدو الإنسان ابليس لعنه الله في نفس الإنسان، ثم ينفخ عليها بريح الكبر، لتشتعل وتضطرم وتزداد أواراً لتنتهي بصاحبها إلى الندم حيث لا ينفع الندم، بعد أن مزّق نفسه ومجتمعه وتحمّل مسؤولية آثام وآثار الكبر والحميّة والعصبيّة.

الوقاية من العصبية:

يحـذر الأمـير عـلى الأرواح والقلـوب، والطبيـب الشـفيق عليهـا مـن أخطـر الأمـراض عـلى النفـس والمجتمـع، وهـو مـرض الكـبر والعصبيـة العمياء، ويبيّـن أعراضـه وهـي الشـعور بالعظمـة، وهـو شـعور فـارغ ناتـج مـن نفـخ الشـيطان ريـح الكـبر والحميـة الجاهليـة (...فَـاللهَ اللهَ فِي كِـبْرِ الْحَمِيَّـةِ، وَفَخْـرِ الْجَاهِلِيَّـةِ! فَإِنَّـهُ مَلاَقِحُ الشَّـنَآنِ، وَمَنَافِـخُ الشَّـيْطَانِ،...).

فالشـيطان قـال كيـف أخضـع لآدم وهـو مـن طـين وأنـا مـن نـار! (أنـا خـير منـه) فانتفـخ واسـتكبر، وأصيـب بـداء العظمـة المهلـك، وأحبـط عملـه الطويـل (فَاعْتَـبِروا بِـمَا كَانَ مِـنْ فِعْـلِ اللهِ بِإِبْلِيـسَ، إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَـهُ الطَّوِيـلَ، وَجَهْـدَهُ الْجَهِيـدَ، وَكَانَ قَـدْ عَبَـدَ اللهَ سِـتَّةَ آلاَفِ سَـنَةٍ، لاَ يُـدْرَى أَمِـنْ سِـنِي الدُّنْيَـا أَمْ مِـنْ سِـنِي الْآخِـرَةِ، عَـنْ كِـبْرِ سَـاعَةٍ وَاحِـدَةٍ...).

وحيـث أن هـذا الكـبر يلقـح في النفـس كراهيـة النـاس (ملاقح الشـنآن) فهـو بعد أن ابتـلى بهـذا المـرض المدمّـر، أخـذ يكـره الإنسـان ويحـاول أن ينقـل العـدوى إليه، وهنـا عـلى الإنسـان أن يحـذر هـذه العـدوى، ويقـي نفسـه منهـا (فَاحْـذَرُوا عَـدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُـمْ بِدَائِـهِ، وَأَنْ يَسْـتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِـبَ عَلَيْكُـمْ بِخَيْلِـهِ وَرَجِلِـهِ...).

في هـذا التحذيـر العلـوي إشـارة إلى ثلاثـة جيـوش شـيطانية نتعـرض لهـا، وعلينـا أن نعـد أنفسـنا لمواجهتهـا، وكمالنـا وفوزنـا في الانتصـار بهـذه المواجهـة، فهنـا جيـش بايولوجـي فايـروسي (بدائـه)، وهنـاك جيـش إعلامـي (بندائـه)، وهنـاك جيـش عسـكري (بخَيـله ورجلـه).

ويمكـن أن نقـي أنفسـنا مـن هـذه الجيـوش عندمـا نغلـق جميـع المنافـذ بوجههـا بواسـطة تحصيـل التقـوى الفرديـة والاجتماعيـة، ويتـم ذلـك بالالتـزام بطـرق الوقايـة مـن الكـبر، وقـد أوضـح لنـا إمامنـا وطبيبنـا في هـذه الخطبـة سـبيل الوقايـة

من الكبر بقوله: (...فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاَتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ،...). الطريق هو التفكر بعد النظر إلى الأمم الماضية، وماذا حلّ بها بسبب الكبر والعصبية، وما الذي جنَوه من حميّة الجاهلية، وأن يؤدي بنا هذا التفكّر إلى البصر واليقظة (رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، واعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ)، فإذا أبصرنا فعلينا أن نقي أنفسنا من لواقح الكبر، ونستعيذ بالله منها، كما نستعيذ من طوارق الدهر، فالنفس فيها أرضيّة وقابلية واستعداد لإنتاج شجرة الكبر الخبيثة، وتوليد فراخ الشيطان، وقد أشار عليه السلام إلى هذا المعنى في الخطبة (٧) بقوله في وصف هؤلاء: (اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاَكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ،...).

فعلينا أن نغلق المنافذ ونسد ثقوب نفوسنا وصدورنا كي لا يخترقها ويضع بيوضه أو ينشر لقاحه عليها.

وعلينا أن نهتم بعملية الوقاية من لواقح الكبر، كما نهتم بوقاية أبداننا من الأمراض والأوبئة والفايروسات، وكما نبني البيوت ذات الأساس المحكم والجدران الرصينة، حذرا من الزلازل والعواصف والآفات والأعداء، كذلك يجب أن نتوقى من (لواقح الكبر)، ولواقع الكبر هي أفكار ومشاعر تراود الإنسان، ولا يهتم بها ولا يلتفت إلى خطرها، ويتركها تنمو ويغذّيها أحياناً ببعض الأفعال والتصرفات التي تؤدي إلى ترسيخها في النفس وتتحول بالتدريج إلى طغيان وتسلط وظلم للآخرين، لاسيما إذا امتلك الإنسان الوسيلة والأدوات لإظهارها من المال والسلطة، ويمكن أن نذكر هنا عددا من هذه الأفكار والمفردات السلوكية التي تؤدي دور لواقح الكبر والعصبيّة:

١- أن يشـعر الإنسـان أنّــه أفضـل مـن الآخريـن، وأنّ الآخرين يجـب أن يحترموه ويبتدئوه بالســلام.

٢- أن يشـعر الإنسـان أن عائلتـه أو عشـيرته أو مدينتـه أو قوميّــته أو بلـده أفضـل مـن الآخريـن.

٣- أن يشـعر بأنّــه يجـب أن يتكلـم، وأن لـه الحـق أن يقطـع كلام الآخريـن، وهنا كلام لأمـير المؤمنـين يصـف فيـه أخـاً لـه في الله ويقـول: (كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي الله، وَكَانَ يُعْظِمُـهُ فِي عَيْنِـي صِغَـرُ الدُّنْيَـا فِي عَيْنِـهِ، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُـلْطَانِ بَطْنِـهِ فَـلاَ يَشْـتَهِي مَـا لاَ يَجِـدُ وَلاَ يُكْثِـرُ إِذَا وَجَـدَ، وَكَانَ أَكْثَـرَ دَهْـرِهِ صَامِتـاً فـإِنْ قَـالَ بَذَّ الْقَائِلِـينَ وَنَقَـعَ غَلِيلَ السَّـائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفـاً مُسْـتَضْعَفاً! فَـإِنْ جَـاءَ الْجِـدُّ فَهُـوَ لَيْـثُ غَابٍ وَصِـلُّ وَادٍ لاَ يُدْلِي بِحُجَّـةٍ حَتَّـى يَـأْتِيَ قَاضِيـاً، وَكَانَ لاَ يَلُـومُ أَحَـداً عَـلَى مَـا يَجِـدُ الْعُـذْرَ فِي مِثْلِـهِ حَتَّـى يَسْـمَعَ اعْتِـذَارَهُ، وَكَانَ لاَ يَشْـكُو وَجَعـاً إِلاَّ عِنْـدَ بُرْئِـهِ، وَكَانَ يَقُـولُ مَـا يَفْعَـلُ وَلاَ يَقُـولُ مَـا لاَ يَفْعَـلُ، وَكَانَ إِذَا غُلِـبَ عَـلَى الْـكَلاَمِ لَمْ يُغْلَـبْ عَـلَى السُّـكُوتِ، وَكَانَ عَـلَى مَـا يَسْـمَعُ أَحْـرَصَ مِنْـهُ عَـلَى أَنْ يَتَكَلَّـمَ...).

٤- أن يشـعر إذا دخـل إلى مجلـس يجـب أن يجلـس في وسـط المجلـس أو المقدمـة، لا في طرفـه أو الصفـوف المتأخـرة ويـرى ذلـك معيبـاً.

٥- أن يشعر إذا دخل إلى مجلس فعلى الجالسين أن يقوموا له.

٦- أن يشـعر أنّــه لا ينبغـي لمثلـه أن يسـأل عـن أمـر يجهله مـن الأحـكام الشرعية والمسـائل العلميـة والعمليـة المختلفـة، لأن سـؤاله يعنـي أنـه جاهـل أو أنّــه اعـتراف بـأنّ المسـؤول أفضـل منـه، ولا يريـد أن يصـدر منـه هكـذا تواضـع، ويعتـبره نحـواً مـن الذلّــة والإهانة.

٧- أن يشـعر أن يجـاوب كل سـؤال يطـرح عليـه، حتـى وإن كان الجـواب خطـأً

ولا يصح أن يقول للسائل -لا أدري-، لأنّ لا أدري تعني أنّه جاهل ولا يفهم، وهنا حكمة مهمة لأمير المؤمنين هي الحكمة (٧٩) يقول فيها: (أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذلِكَ أَهْلاً: لاَ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ، وَلاَ يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاَ يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لاَ أَعْلَمُ، وَلاَ يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ. وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ...).

٨- أن يشعر أنّ عبادته مقبولة، وأنّه يستحق الجنّة والثواب، وأنّه أزكى وأطهر وأقرب إلى الله من كثير من الناس، وإذا جاء ولم يجد مكاناً في الصف الأول من الصلاة يتأذى ويرى أنّ الصفوف المتأخرة غير مناسبة له.

٩- أن يدخل إلى مسجد أو محل عبادة فيتصدى للأذان أو قراءة الدعاء دون الاستئذان والتنسيق مع المتولين والمسؤولين عن هذه النشاطات لاعتقاده أنّه الأفضل والأكفأ، وأنّه لا يحتاج إلى اذن.

١٠- أن يقطع المحاضرة أو الدرس بالأسئلة لا لأجل التعلم وإنّما لأجل أن يفهم الحاضرون أنّه عالم وجريء.

١١- إذا طلب من الآخرين شيئاً أظهر الطلب بصيغة الأمر وبلحن يفهم منه أنّه أعلى وأفضل من المأمور.

١٢- الألفاظ واللحن ومستوى الصوت ونبرته التي يستخدمها عند الكلام مع الفقراء والضعفاء تختلف عنده إذا ما تكلم مع الأغنياء والأقوياء.

١٣- أنّ طريقة مشيه تدل على الاختيال والفخر.

١٤- أنّــه يحــب المــدح والاطــراء ويرتــاح للمدّاحــين ويتــأذى مــن النقــد والنصيحــة، وهــذا مــا حــذّر الإمــام منــه كثــيراً في وصيتــه لولاتــه: (...وَإِيَّـاكَ وَالْإِعْجَـابَ بِنَفْسِـكَ وَالثِّقَـةَ بِـمَا يُعْجِبُـكَ مِنْهَـا وَحُـبَّ الْإِطْـرَاءِ فَـإِنَّ ذَلِـكَ مِـنْ أَوْثَـقِ فُـرَصِ الشَّـيْطَانِ فِي نَفْسِـهِ لِيَمْحَـقَ مَـا يَكُـونُ مِـنْ إِحْسَـانِ الْمُحْسِـنِينَ...).

١٥- إذا دخـل في نقـاش أو مباحثـة علميـة أو جـدال حـول مسـألة معينـة، وتبيّن أن الحـق مـع مـا يقولـه الخصـم، فهنـا يواصـل المـراء والدفـاع عـن رأيـه في اللـف والـدوران والمغالطـات، ولا يسـلّم للحقيقـة، لأنّ يـرى الاستسـلام ضعفـاً وذُلاً ومهانـة، مـع أن الاستسـلام للحقيقـة هـو عـين الكـمال ودليـل عـلى الـروح العلميـة الطاهـرة الباحثـة عـن الحـق والحقيقـة.

الوقاية من لواقح الكِبْـر:

وهــي أن نمنــع هــذه الخواطــر أن تترسّــخ في نفوســنا بــأن نرســخّ في مقابلهــا إحضــار عظمــة الله، وأنّ كل الخــير والــرزق والعــزّة والكــمال والمــوت والحيــاة بيــده سـبحانه، والصـلاة التـي هـي عمـود الديـن برنامـج فكـري وعلمـي وعمـلي للوقايــة مــن الكِبْــر، يقــول أمــير المؤمنــين عليه السلام في الحكمــة (٢٥٢): (فَـرَضَ اللهُ الْإِيـمَانَ تَطْهِـيراً مِـنَ الـشِّرْكِ، وَالصَّـلاَةَ تَنْزِيهـاً عَـنِ الْكِـبْرِ،...)، فلـو أدرك المصـلّي معـاني أقوالهـا وأفعالهـا وتفاعـل معهـا وخشـع فيهـا لصنعـت منـه موحـداً حامـداً عابـداً راكعـاً سـاجداً لله وحـده، ولجَـعلت منـه مصـدر سـلام ورحمـة وبـركات لعبـاد الله الصالحـين ولخَـلْق الله جميعـاً، لأن الخلْـق عيـال الله، وأقربهـم وأعبدهـم إلى الله أفضلهــم لعيالــه.

وإذا مـا ترسـخت مشـاعر الكـبر وبـذوره الخبيثـة في النفـس، فالعـلاج لهـا هـو أن يقـوم الإنسـان باقتلاعهـا بـأن يعمـل خلافهـا، وعليـه أن يسـتعين بـالله ويطلـب منه

الشفاء من هذا المرض المهلك، وأن يستخدم الدواء والعلاج له وهو التواضع للناس بالسلام عليهم وخدمتهم وإظهار التقصير والاعتذار لهم والجلوس في آخر المجلس، والبعد عن المدح والاطراء، وتقبّل النقد والنصيحة، والحضور في مجالس الفقراء ودعوتهم وخدمتهم، مع استعمال أفضل أساليب الإكرام والاحترام لهم، وهذا ما فعله الأنبياء والأولياء مع أنهم أعلم الناس وأفضلهم وأقربهم إلى الله، فكيف بنا نحن المذنبين القاصرين المقصّرين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (...وَاسْتَعِيذوا بِالله مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ، فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنبِيَائِهِ وَأَولِيائِهِ، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَحَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ...).

ثم بيّن لنا الإمام في هذه الخطبة أنّ منهج الأنبياء في الحياة هو البعد عن مظاهر العلو والاستكبار، والزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخارفها وزبارجها، ولا يؤمن بهم إيمانا صادقاً ويتبعهم بإخلاص إلاّ مَن جاء يبحث عن الحقيقة فوجدها عندهم.

ولذلك تربّى سلمان وابوذر والمقداد وياسر وسمية وعمار وأمثالهم، ثابتين مخلصين متفانين في إيمانهم وتضحياتهم وأخلاقهم وزهدهم إلى آخر المطاف، بينما تجد آخرين آمنوا رغبة أو رهبة، لا حبّاً بالحق والحقيقة، فتراهم مذبذبين يتربصون الدوائر وينتظرون الفرصة لينقلبوا على أعقابهم ويعودوا إلى أصلهم.

ويفصّل لنا الإمام في برنامج الحج وجعْل الكعبة في أوعر بقاع الأرض وأصعبها مناخاً، وأمر الناس بأن يحجّوا إلى هذا المكان من مهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة، ويأمرهم بمجموعة أعمال ومناسك جميعها

مخالفة لما يقتضيه الجمال الظاهري والزينة والتفاخر والكبر والاختيال، ويجعل هذا العمل فرضاً عليهم: (...وَامْتِحاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ...)، ثم بين الهدف من هذا الفرض وأمثاله من سائر العبادات التي تحتاج المجاهدة وتحمّل الشدائد فيقول: (...وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الْثِمارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ...)، فيجعل الحج في أجمل منتجعات سويسرا وجزر اسبانيا ويفرض فيه سباقاً بالمظاهر الجميلة والأزياء البديعة والأطعمة الفاخرة، فلو كان الحج هكذا! فماذا سوف ينتج؟؟ (...وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلْ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ).

الكِبْر مصيدة ابليس العظمى:

ثم يعود ويحذر من سوء عاقبة الكبر، ويصفها بأنها (...وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلاَ تُشْوِي أَحَداً، لاَ عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلاَ مُقِلاً فِي طِمْرِهِ...)، أي أن هذا الفخ الذي نصبه ابليس لا يخطيء أحداً إلاّ مَن تحذر منه واتقاه، ولا يأمن منه لا العالم الذي يقول أنا عارف بالدين ولا يخدعني ابليس؛ ولا الفقير، فإن العالم بالدين يمكن أن يتكبر بعلمه الديني على الآخرين، كما إن الفقير يمكن أن يخدع بأمور تافهة، ويكون صيدا للشيطان، ثم يعود عليه السلام لذكر الصيام والصلاة والزكاة ودورها في علاج النفوس من العصبية العمياء، وإخراج الكبر من القلوب فيقول:

(...وَعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ عَنْهُمْ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَالْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ).

المانع الثالث: الطمع:

وهو من شعب حب الدنيا، ولكنه يختلف عن حب الدنيا الذي تحدثنا عنه، في أنّه لذة وهمية لا تعود على بدن الإنسان وغرائزه التكوينية بشيء من اللذة، وكما أنّ العصبية والكبر لذة وهمية، وهي تخيّل الغلبة والتسلط والامتياز على الآخرين، كذلك الطمع لذة وهمية، هي تخيّل المُلك والتكاثر، وإذا ابتلي الإنسان بهذا المرض فإنّه سيفقد إرادته باتباع الحق، لأن الطمع ويلازمه البخل والحرص رذائل تسيطر على نفس الانسان وتسلبه إرادته، بل ويمكن أن تسلبه فكره ووعيه، فينسى نفسه وحاجاته ولذاته البدنية، ومسؤولية أهله وعياله والمجتمع بأسره، فكم رأينا من هؤلاء الذين تحول الطمع والبخل والحرص فيهم إلى ملكة ثابتة راسخة، لا يأتون إلى بيوتهم ولا يرون أزواجهم وأولادهم، ولا يهنؤون بطعام ولباس، ولا ينعمون بالراحة التي اعتاد عليها الناس، فالطماع يقضي نهاره في صراع مستمر مع الجميع، لأجل زيادة الثروة وتنمية المكاسب والأرباح، ويقضي ليله يفكر كيف يرفع أرقام حساباته المالية المصرفية، ونشوته ولذته في الحياة هي أن يرى الألف قد أصبح عشرة آلاف والعشرة صارت مائة ألف والمائة ألف صارت مليون... وهكذا، فهدفه في الحياة هو زيادة الأصفار، إلى أن يهلك ويتحول إلى صفر، ويذهب من الدنيا صفر اليدين من الأعمال الصالحة والآثار الطيبة، وقد حذر أمير المؤمنين عليه السلام

مـن هـذا المـرض المهلـك بقولـه لولـده الحسـن عليه السلام في الكتـاب (٣١): (...وَإِيَّـاكَ أَنْ تُوجِـفَ بِـكَ مَطَايَا الطَّمَـعِ، فَتُـورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَـةِ...).

ويقـول عليه السلام في الحكمـة (١٢٦): (عَجِبْـتُ لِلْبَخِيـلِ يَسْـتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّـذِي مِنْـهُ هَـرَبَ، وَيَفُوتُـهُ الْغِنَـى الَّـذِى إِيَّـاهُ طَلَـبَ، فَيَعِيـشُ فِي الدُّنْيَـا عَيْـشَ الْفُقَـرَاءِ، وَيُحَاسَـبُ فِي الْآخِـرَةِ حِسَـابَ الْأَغْنِيَـاءِ...).

علاج الطمع:

هـو تقويـة العقـل بالتدبـر بعاقبـة هـذه الرذيلـة، وإنهـا تجلـب للإنسـان النصـب والحرمـان والعـذاب في الحيـاة الدنيـا، والنـدم والحسـرة في المـوت والحسـاب والعقـاب في الآخـرة، أمـا في الحيـاة الدنيـا فـإنّ الإنسـان الـذي يهيمـن عـلى فكـره الطمـع والبخـل والحـرص ويفقـد القناعـة، فإنـه سـوف يفقـد حياتـه ولذاتـه الطيبة الفرديـة والاجتماعيـة، بـل ويفقـد الإنسـان عزتـه وكرامتـه أيضـاً، يقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام في الحكمـة (٢): (أَزْرَى بِنَفْسِـهِ مَـنِ اسْتَشْـعَرَ الطَّمَعَ...)، وفي الحكمـة (٣): (الْبُخْـلُ عَـارٌ...)، وفي الحكمـة (٢٢٦): (الطَّامِـعُ فِي وِثَـاقِ الـذُّلِّ)، والسـبب هـو أنّ الطمـع خيـال ووهـم يجعـل الإنسـان يشـعر بأنّـه بحاجـة إلى إكثـار المـال، وكلـما حصـل عـلى المـال ازداد عطشـه وشـعوره بالفقـر إلى الأكثـر، وبالنتيجـة فهـو يعيـش شـعور الفقـر والنقـص والحاجـة ويسـلك كل السـبُل المشروعـة وغـير المشروعـة مـن أجـل تكثـير المـال، وربـما دخـل في نزاعـات حتـى مـع أقـرب النـاس إليـه لأجـل الحصـول عـلى الفلـس والدينـار، فيكـون ذليـلا فقـيرا مكروهـاً، عـلى الرغـم مـن امتلاكـه الثـروة التـي لـو اسـتثمرها بعقلـه لـكان أكثـر النـاس راحـة وكرامـة وعـزّة، والسـبب في ذلـك الهـلاك هـو هـلاك العقـل وسـيطرة الوهـم والخيـال بسـبب الطمـع، وكـما قـال أمـير المؤمنـين عليه السلام في الحكمـة (٢١٩): (أَكْثَـرُ مَصَـارِعِ الْعُقُـولِ تَحْـتَ بُـرُوقِ الْمَطَامِـعِ).

الطمع هو خيال الملك والثروة والفقر إلى المال الذي يصرع العقل ويميته، وهذا يؤكد ضرورة التنمية العقلية وإحياء العقل وحفظه من الموت في ظل تربية أنوار القرآن والعترة الطاهرة، وكلمات نهج البلاغة التي تجعل الإنسان يدرك أنّ الغنى هو القناعة وهي الحياة الطيبة، وما أعمق كلمة أمير المؤمنين في الحكمة (٥٧) عندما يقول: (الْقَنَاعَةُ مَالٌ لاَ يَنْفَدُ)، وفي الحكمة (١٨٠): (الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ).

إنها معادلة علوية هامة تبيّن أن الغنى والفقر لا يأتيان من خارج نفس الإنسان، وإنما ينطلقان من داخل نفسه تبعاً لفكره وعقله وشعوره، فقد يكون الإنسان مالكاً للمليارات ولكن طمعه بالأكثر يجعله يشعر أنه فقير ومحتاج لأن طمعه قد صرع عقله، فلا تفكير صحيح لديه يقوده إلى أن قيمة المال في استخدامه بتحقيق الاشباع والانتفاع به بما أمكن، وبما يحقق الاستقرار والاطمئنان النفسي -وهو الغنى-، لكن الطمع عندما يصرع العقل فإن الخيال والوهم يكون سيد الميدان، وإذا ساد الخيال جاءت صور الفقر والحاجة وقلة الثروة، رغم كثرتها الواقعية، وتسلّطت على النفس، فإذا به يصيح وافقراه واويلاه اسقوني إني عطشان؟ وهكذا يوقع نفسه في الفقر رغم غناه، بسبب فقدانه للعقل الذي ينتج الشعور بالقناعة، فالمال الحقيقي في المعادلة العلوية هو القناعة، وهو مال لا ينفد لأنّه فائدة المال في الانتفاع به، والقناعة تجعل الإنسان يتحرك بهدوء واستقرار نفسي للانتفاع بالمال بالصورة الممكنة وإن كان قليلاً، لكن الطمع يجعل الإنسان يشعر بحالة النقص والفقر وإن كان يملك المليارات، فالعقل يجعل الفقير غنياً بالقناعة، وعدم العقل يجعل الغني الثري فقيراً بالطمع والبخل، فما أعظمها من معادلة لإنتاج الحياة الطيبة والراحة والاستقرار، القناعة مال لا ينفد والطمع رقٌّ مؤبّد وفقر لا ينتهي.

وصـدق أمـير المؤمنـين عليه السلام حيـث يقـول في تأكيـد هـذا المعنـى في الحكمـة (٣٧١): (...وَلاَ كَنْـزَ أَغْنَـى مِـنَ الْقَنَاعَـةِ، وَلاَ مَـالَ أَذْهَـبُ لِلْفَاقَـةِ مَـنَ الـرِّضَى بِالْقُـوتِ، وَمَـنِ اقْتَـصَرَ عَـلَى بُلْغَـةِ الْكَفَـافِ فَقَـدِ انْتَظَم الرَّاحَـةَ وَتَبَوَّأَ خَفْـضَ الدَّعَـةِ. وَالرَّغْبَةُ مِفْتَـاحُ النَّصَـبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَـبِ...).

وصـدق عليه السلام عندمـا سـئل عـن قولـه تعـالى: ((فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً)، فَقَـالَ: هِـيَ الْقَنَاعَةُ).

وقال عليه السلام: (كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً).

هـذا مـا يجلبـه الطمـع للإنسـان في حياتـه حيـث يجعلـه محرومـاً مـن الحيـاة الطيبـة، والغنـى الحقيقـي ويجعلـه ذليـلاً فقـيرا مكروهـا في نفسـه وفي ذويـه، وأمـا في وقـت المـوت فـإنّ أمـير المؤمنـين يصـف لنـا حـال هـذا المسـكين بصـورة مفجعـة، كفـى بهـا موعظـة لمـن اتّـعظ وزاجـرا لمـن ازدجـر، وحقـاً إنّ التدبّـر فيهـا والتفاعل معهـا يغسـل النفـوس مـن جميـع أدران الطمـع وأوسـاخ الغفلـة وأقـذار الحـرص والبخـل والجشـع، يقـول عليه السلام في الخطبـة (١٠٩): (...كَيْـفَ نَـزَلَ بِهِـمْ مَـا كَانُـوا يَجْهَلُـونَ، وَجَاءَهُـمْ مِـنْ فِـرَاقِ الدُّنْيَـا مَـا كَانُـوا يَأْمَنُـونَ، وَقَدِمُـوا مِـنَ الْآخِـرَةِ عَـلَى مَـا كَانُـوا يُوعَـدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُـوفٍ مَـا نَـزَلَ بِهِـمْ: اجْتَمَعَـتْ عَلَيْهِـمْ سَـكْرَةُ الْمَـوْتِ وَحَـسْرَةُ الْفَـوْتِ، فَفَـتَرَتْ لَهَـا أَطْرَافُهُـمْ، وَتَغَـيَّرَتْ لَهَـا أَلْوَانُهُـمْ. ثُـمَّ ازْدَادَ الْمَـوْتُ فِيهِـمْ وُلُوجـاً، فَحِيـلَ بَـيْنَ أَحَدِهِـمْ وَبَـيْنَ مَنْطِقِـهِ، وَإِنَّـهُ لَبَـيْنَ أَهْلِـهِ يَنْظُـرُ بِبَـصَرِهِ، وَيَسْـمَعُ بِأُذُنِـهِ، عَـلَى صِحَّـةٍ مِـنْ عَقْلِـهِ، وَبَقَـاءٍ مِـنْ لُبِّـهِ، يُفَكِّـرُ فِيـمَ أَفْنَـى عُمْـرَهُ، وَفِيـمَ أَذْهَـبَ دَهْـرَهُ! وَيَتَذَكَّـرُ أَمْـوَالاً جَمَعَهَـا، أَغْمَـضَ فِي مَطَالِبِهَـا، وَأَخَذَهَـا مِـنْ مُصَرَّحَاتِهَـا وَمُشْـتَبِهَاتِهَا، قَـدْ لَزِمَتْـهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَـا، وَأَشْرَفَ عَـلَى فِرَاقِهَـا، تَبْقَـى لِمَـنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُـونَ فِيهَـا، وَيَتَمَتَّعُـونَ بِهَـا، فَيَكُـونُ الْمَهْنَأُ لِغَـيْرِهِ، وَالْعِبءُ عَـلَى ظَهْـرِهِ. وَالْمَـرْءُ قَـدْ غَلِقَـتْ رُهُونُهُ بِهَـا، فَهُـوَ يَعَـضُّ يَـدَهُ نَدَامَـةً عَـلَى مَـا أَصْحَرَ لَـهُ عِنْـدَ الْمَـوْتِ مِـنْ أَمْـرِهِ، وَيَزْهَـدُ فِيَـما كَانَ يَرْغَـبُ فِيـهِ أَيَّـامَ عُمُـرِهِ، وَيَتَمَنَّـى أَنَّ الَّـذِي كَانَ

يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ).

المانع الرابع: التسويف:

المبتلى بهذا المرض يؤجل تنفيذ اعماله الصالحة ومشاريعه الخيرية من اليوم الى الغد، ومن موعدها المقرر الى اشعار اخر، حتى تفوته فرصة التنفيذ او يفقد القدرة عليها والظروف المناسبة لها.

وقد حذر امير المؤمنين عليه السلام كثيرا من هذا الداء المهلك، بالتأكيد المتكرر على الاستعداد والجهوزية للانتقال من هذه الدنيا بالمبادرة الى الاعمال الصالحة وعدم تأجيلها. يقول عليه السلام في الخطبة ٢٠٤ (تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ،) وفي الخطبة ٦٤ يقول عليه السلام: (فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ الله، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا).

ويقرع امام الحق جرس الحقيقة في اذهاننا وعقولنا وهو ان ما يفصل بيننا وبين حياتنا الحقيقية والأبدية ما هو الا عدد سويعات ومجموعة لحظات سرعان ما تزول وتتصرم فيقول عليه السلام: (، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ

إِلاَّ الْمَـوْتُ أَنْ يَنْـزِلَ بِـهِ. وَإِنَّ غَايَـةً تَنْقُصُهَـا اللَّحْظَـةُ، وَتَهْدِمُهَـا السَّـاعَةُ، لَجَدِيـرَةٌ بِقِـصَرِ الْمُـدَّةِ، وَإِنَّ غَائِبـاً يَحْدُوهُ الْجَدِيـدَانِ: اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَـةِ الْأَوْبَـةِ، وَإِنَّ قَادِمـاً يَقْـدُمُ بِالفَـوْزِ أَو الشِّـقْوَةِ لَمُسْـتَحِقٌّ لِأَفْضَـلِ الْعُـدَّةِ، فَتَـزَوَّدُوا فِي الدُّنيَـا، مِـنَ الدُّنْيَـا، مَـا تَحْـرُزُونَ بِـهِ أَنْفُسَـكُمْ غَـداً.)

في الخطبـة ١٨٨ يقـول عليه السلام: (فَسَـابِقُوا رَحِمَكُـمُ اللهُ إِلَى مَنَازِلِكُـمْ الَّتِـي أُمِرْتُـمْ أَنْ تَعْمُرُوهَـا، وَالَّتِـي رُغِّبْتُـمْ فِيهَـا، وَدُعِيتُـمْ إِلَيْهَـا. وَاسْـتَتِمُّوا نِعَـمَ الله عَلَيْكُـمْ بِالصَّـبْرِ عَـلَى طَاعَتِـهِ، وَالْمُجَانَبَـةِ لِمَعْصِيَتِـهِ، فَـإِنَّ غَـداً مِـنَ الْيَـوْمِ قَرِيـبٌ. مَـا أَسْرَعَ السَّـاعَاتِ فِي الْيَـوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّـامَ فِي الشَّـهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّـهُورَ فِي السَّـنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّـنِينَ فِي الْعُمُـرِ!).

ويحذرنـا ليرسـخ في عقولنـا حقيقـة اننـا لا نملـك حياتنـا ولا صحتنـا وقوتنـا البدنيـة، كـما ان ظـروف أداء العمـل وشروطـه وعوامـل نجاحـه ليسـت بأيدينـا، فكيـف نسـمح لأنفسـنا بالتسـويف وطـول الامـل والكسـل والتقاعـس؟!

يقـول عليه السلام في الخطبـة ١٩٦ (عِبَـادَ الله، الْآنَ فَاعملـوا، والْأَلْسُـنُ مُطْلَقَـةٌ، والْأَبْـدَانُ صَحِيحَـةٌ، والْأَعْضَـاءُ لَدْنَـةٌ، وَالْمُنقَلَبُ فَسِـيحٌ، وَالْمَجَـالُ عَرِيـضٌ، قَبْـلَ إِرْهَاقِ الْفَـوْتِ، وَحُلُـولِ الْمَـوْتِ، فَحَقِّقُـوا عَلَيْكُـمْ نُزُولَـهُ، وَلاَ تَنْتَظِـرُوا قُدُومَـهُ.)

وهنـاك معنـى هـام ينبغـي ان يلتفـت اليـه الانسـان نبهنـا عليـه كشـاف الحقائـق والاسرار وقسـيم الجنـة والنـار، وهـو انـك اذا كنـت اليـوم قـادرا عـلى فعـل الطاعـات وتجنـب المعـاصي فـلا يـدرى بعـد التسـويف وتمديـد الامـل وارتـكاب المعـاصي هـل تسـتطيع ان تتـدارك نفسـك وتعيدهـا الى الطريـق الصحيـح؟ ام ان نفسـك الامـارة التـي سـولت وزينـت لـك المماطلـة والتسـويف قـد أصبحـت تمسـك بزمـام قلبـك بالكامـل وافقدتـك الفكـر والشـعور والإرادة للتوبـة والعـودة والإصـلاح. يقـول عليه السلام في الخطبـة ١٦ (أَلاَ وَإِنَّ الْخَطَايَـا خَيْـلٌ شُـمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَـا

أَهْلُهـا، وَخُلِعَـتْ لُجُمُهَـا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِـمْ فِي النَّـار.)

أي ان من ركب ظهر المعاصي فانه سوف يفقد لجام نفسه واختياره وارادته، ويصبح زمام نفسه بيد النفس الامارة والشيطان! وكيف من يستطيع من امسك الشيطان بلجامه وسيطر على فكره وشعوره وارادته ان يتخلص من قيادة الشيطان ويعود الى طريق الله؟!

ولذلك يأمرنا في الخطبة ٢٣٠ ان دائما في حالة التأهب والإنذار الكامل (فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ وَالْإِسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ. وَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ،)

هذه هي صفات شيعة علي واتباع ولايته فلننظر الى انفسنا هل نحن منهم؟

المانع الخامس: التردد والإحجام:

وهو من امراض العقل العملي المدمرة للإرادة والتي كم أدت الى فشل حياة الكثير وحولت حياتهم الى تيه دائم وماراثون دائري، وهذا المرض ناشئ من فقدان قوة الاقتحام وعدم الجرأة على القيام بالأعمال والتردد والتخوف من تنفيذها على الرغم من وضوح صوابها وصلاحها من الناحية النظرية.

فالإنسان عندما يريد ان يخطو نحو أي عمل فعليه ان يدرس الامر من جميع جوانبه ويستشير به اهل العقل والخبرة، وبعد ان تتأكد لديه مصلحة فعله او ترجح على مفسدة تركه فعليه ان يتوكل على الله وان يقدم على العمل ولا يتردد.

ولكن البعض ورغم اتمامه لجميع مراحل تنضيج القرار عندما يصل لمرحلة التنفيذ يتردد ويحجم فيقدم خطوة ويؤخر أخرى الى ان تفوت الفرصة ويخسر المشروع ولربما خسر عمره كله بسبب هذا الشك والارتياب المدمر والسبب

في ذلـك هـو ان هـذا الانسـان يسـمح للخيـال والوهـم والخـوف غـير المـبرر ان يهجـم عليـه ويبعـد العقـل والحكمـة عـن قيـادة نفسـه وتنفيـذ قراراتـه او مواقفـه الصائبـة.

فهـو بعـد ان يـدرس الموضـوع ويقطـع بعـدم او ضعـف احتـمالات الفشـل والخسـارة ويرجـح عليهـا احتـمالات الفـوز والنجـاح يـأتي الى مرحلـة التنفيـذ فيسـمح لنفسـه بعـودة احتـمالات الفشـل والخيبـة فيقـع في الشـك والارتيـاب الـذي قـد خـرج منـه ويعـود اليـه دون مـبرر وسـبب عقلائـي سـوى الخـوف وضعـف الإرادة وغيـاب صفـة الحسـم والقاطعيـة الضروريـة لتنفيـذ كل عمـل.

وقـد عالـج امـير المؤمنـين عليه السلام هـذه الحالـة المرضيـة بقولـه في الحكمـة ٢٧٤ (لاَ تَجْعَلُـوا عِلْمَكُـمْ جَهْـلاً، وَيَقِينَكُـمْ شَـكّاً، إِذَا عَلِمْتُـمْ فَاعْمَلُـوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُـمْ فَأَقْدِمُوا.)

أي ان عـلى الانسـان ان يسـعى لتحصيـل العلـم واليقـين قبـل العمل، ولكـن عليه ان يحـذر مـن التسـويف والمماطلـة وتفويـت الفرصـة بـان يقـدم عـلى العمـل بعـد حصـول العلـم واكـمال الـشروط اللازمـة ولا يـدع الوهـم يهجـم عليـه ويحـول يقينـه الى شـك وعلمـه الى جهـل.

وفي الحكمـة ٣٦٣ يقـول عليه السلام (مِـنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَـةُ قَبْـلَ الْإِمْـكَانِ، وَالْإِنـاةُ بَعْـدَ الْفُرْصَـةِ)

أي ان مـن الحماقـة ان يقـدم الانسـان عـلى عمـل قبـل اكـمال مقدماتـه ونضـوج فكرتـه، ولكـن اذا مـا قـد تمـت المقدمـات اللازمـة فمـن الحمـق والجهالـة ان يتأخـر الانسـان في التنفيـذ ويسـوف ويماطـل حتـى تفـوت عليـه الفرصـة ولا يحصد سـوى النـدم والخسران.

وفي الحكمـة ١٧٥ يقـول عليه السلام (إِذَا هِبْـتَ أَمْراً فَقَـعْ فِيـهِ، فَـإِنَّ شِـدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَـمُ مِمَّـا تَخَـافُ مِنْـهُ.)

وهـذه الحكمـة العظيمـة تعلمنـا معادلـة مهمـة جـدا في العقـل العمـلي اذا مـا طبقناهـا فإنهـا سـوف تعالـج مـرض الشـك والخـوف والإحجـام غـير المـبرر الـذي يـؤدي الى شـلل الفـرد والمجتمـع ومنـع تنميتـه وتقدمـه.

هـذه المعادلـة تقـول: بـان خسـائر الحـذر والاحـتراز والـتردد عـن القيـام بالأمـر اكـبر مـن خسـائر المخـاوف المتوقعـة عنـد تنفيـذ الامـر.

ويمكــن ان نعكــس التعبــير عــن هــذا المعادلــة الهامــة بــان نقــول: ان مصالــح الإقــدام اعظــم مــن خســائر الإحجــام

أي ان فاتورة ثمن الإقدام اقل دائما من فاتورة ثمن التخوف والإحجام

فـما احوجنـا الى هـذه المعـادلات العلويـة التـي تنمـي عقـل الانسـان بجانبيـه النظـري والعمـلي وتنتـج انسـانا عالمـا حكيـما وشـجاعا مقدامـا.

هذا هو المجتمع الذي أراد علي عليه السلام بناءه وهو المجتمع الولائي العلوي.

مجتمـع ولايـة العقـل والحكمـة والعلـم والعمـل والإقـدام مجتمـع لا محـل فيـه للجهـل والجهالـة والافـراط والتفريـط والحماقـة

المانع السادس: التسرّع والعجلة:

وهـو مـرض ناشـئ مـن ضعـف الإرادة الـذي يجعـل الانسـان يتفاعـل بسرعـة مـع المسـموعات والمرئيـات والمواقـف والمقترحـات ويسـتجيب لهـا ويرتـب عليهـا الاثـار العمليـة التـي لا يصـح ان تترتـب الا عـلى العلـم واليقـين وهـو عـلى ثلاثـة اقسـام:

١- التصديـق بالأخبـار ونشرهـا. وهـو امـر هـام جـدا بـما للأخبـار مـن تأثـير كبير عـلى امـن المجتمـع وتماسـكه، لذلـك اولاه القـران الكريـم أهميـة خاصـة حيـث لم

يسـمح بنـشر الاخبـار المتعلقـة بالأمـن السـياسي والاجتماعـي الا مـن بعـد ان تمـر بمرشـحات ولي امـر الامـة وتتـم تصفيتهـا وفلترتهـا والاذن بنـشر وإذاعـة مـا يصـح منهـا.

قال تعالى ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1] وفي سـورة النـور هاجـم القـران الكريـم العصابـة التـي تناقلـت الاخبـار في قصـة الافـك المعروفـة واعتبرهـم مـن الكاذبـين والذيـن ارتكبـوا اخطـر الاعـمال بشـاعة وخطـر عـلى تماسـك المجتمـع وامنـه قـال تعـالى ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

وحـول هـذا الامـر الحسـاس يقـول امـير المؤمنـين عليه السلام لصاحبـه حـارث الهمـداني في الكتـاب ٦٩: (ولا تحـدث بـكل مـا سـمعت بـه وكفـى بذلـك كذبـا)

ويقـول عليه السلام في الحكمـة ٣٨٢ (لاَ تَقُـلْ مَـا لاَ تَعْلَـمُ، بَـلْ لاَ تَقُـلْ كُلَّ مَـا تَعْلَـمُ، فَـإِنَّ اللهَ قَـدْ فَـرَضَ عَـلَى جَوَارِحِـكَ كُلِّهَـا فَرَائِـضَ يَحْتَـجُّ بِهَـا عَلَيْـكَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ.) وفي هـذا الحديـث الهـام يرفع الامـام عليه السلام المسـؤولية تجـاه الاخبـار والـكلام الذي نسـمعه مـن وسـائل الاعـلام المختلفـة درجـة اعـلى مـن درجـة النهـي عـن الاخبـار بـكل مـا نسـمع او نـرى الى درجـة ان الخـبر الـذي نسـمعه لا يحـق لنـا نـشره واذاعتـه عـلى الرغـم مـن تأكدنـا انـه حـق وانتقالـه مـن درجـة الشـك والظـن الى العلـم، فـلا يحـق لنـا ان ننـشره في المجتمـع الا اذا تأكدنـا مـن صلاحيتـه للنـشر وعـدم تسـببه في إيقـاع الفتـن والاختـلاف والمسـاس بوحـدة المجتمـع وقدسـية رمـوزه. وعليـه فـان

١- النساء: ٨٣.
٢-النور: ١٥، ١٦، ١٧.

طريقة التعامل مع وسائل الاعلام والتواصل التي يأمر امير المؤمنين اتباعه هي التوقف مقابل كل ما يعرض في وسائل الاعلام وعدم نشره الا بعد ان يمر بمرحلتين الأولى تحول الخبر والصورة الى معلومة مؤكدة. الثانية التأكد من صلاح هذه المعلومة للنشر والإذاعة وعدم تأثيرها السلبي على المجتمع.

هاتان المرحلتان بحاجة الى مركز فلترة وتصفية عبّر عنها القران الكريم في سورة النساء الآية ٨٣ بـ (الاستنباط) وانها من مهام ولي الامر العالم الكفوء الشجاع العارف بزمانه ومجتمعه ومصالحه والمشخص للأعداء واساليبهم.

والله العالم كم أدى غياب هذه القيادة والإدارة عن المجتمع وفقدان هذا النظام الإعلامي الإذاعي وشيوع الفوضى في المجتمع في استقبال الاخبار واذاعتها الى وقوع مجتمعنا في كوارث على كافة الصعود، فكم من دماء سفكت، وكم من اعراض هتكت، وكم من طاهرات بريئات قتلت، وكم من أموال نهبت، وكم من قادة علماء اكفاء اتقياء ظلموا!!

وما حدث أخيرا في بلدنا العزيز شاهد حي على نتائج هذا الحدث الكارثي ولم يكن امر عجيبا فهو التاريخ يعيد نفسه والقوم أبناء القوم العجيب هو اننا في كل مرة يهلكنا هذا المرض ولا نفكر بعلاج ولا نراجع الطبيب، ولربما قتلنا الطبيب! لأننا فكم من مرة نستمع لأهوائنا واعداءنا ونترك طبيبنا ولا نصدق ان سبب مرضنا هو عدم اتباع الطبيب ونصدق اعداءنا قولتهم ان سبب مرضنا هو الطبيب!!.

٢- التسرع في الحكم على الأشخاص. شخصية الانسان خط احمر في النظام القيمي الإسلامي، فلا يجوز المساس بها الا اذا تحول الى عدو لدود يريد القضاء على الإسلام وأهله. وما يحصل اليوم في اوساطنا -وللأسف-هو اننا ندمر بناء الاخوة والمحبة والوثاقة والبيت الايماني بأتفه الظنون والاحتمالات.

وهـذا مـا نهـى عنـه القـران بشـدة عندمـا حـرم الظـن الـسيء والتجسـس -أي البحـث عـن الـزلات- وحـرم التسـقيط والاسـتهزاء قـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وحـذر امـير المؤمنـين عليه السلام أصحابـه مـن ان يفقـدوا اخُوتهـم بالسـماح لمعـاول وفـؤوس الاخبـار والاشـاعات والاراجيـف والنمائـم لهدمهـا وقـال عليه السلام في الخطبـة ١٤١: (أَيُّهَـا النَّـاسُ، مَـنْ عَـرَفَ مِـنْ أَخِيـهِ وَثِيقَـةَ دِيـنٍ وَسَـدَادَ طَرِيـقٍ، فَـلاَ يَسْـمَعَنَّ فِيـهِ أَقَاوِيـلَ الرِّجَـالِ، أَمَـا إِنَّـهُ قَـدْ يَرْمِـي الرَّامِـي، وَتُخْطِـيءُ السِّـهَامُ، وَيَحِيـكُ الْـكَلاَمُ، وَبَاطِـلُ ذلِـكَ يَبُـورُ، وَاللهُ سَـمِيعٌ وَشَـهِيدٌ. أَمَـا إِنَّـهُ لَيْـسَ بَـيْنَ الْحَـقِّ وَالْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَـعُ أَصَابِـعَ. فسئل عليه السلام عـن معنـى قولـه هـذا، فجمـع أصابعـه ووضعهـا بـين أذنـه وعينـه ثـمّ قـال: الْبَاطِـلُ أَنْ تَقُـولَ سَـمِعْتُ، وَالْحَـقُّ أَنْ تَقُـولَ رَأَيْـتُ!).

واذا مـا سـمعت مـن اخيـك كلمـة تحتمـل معـاني كثـيرة فاحملهـا عـلى معناهـا الحسـن وان غلبـت احتـمالات معانيهـا السـيئة وكثـرت قـال عليه السلام في الحكمـة ٣٦٠ (لاَ تَظُنَّـنَّ بِكَلِمَـةٍ خَرَجَـتْ مِـنْ أَحَـدٍ سَـوءاً، وَأَنْـتَ تَجِـدُ لَهَـا فِي الْخَـيْرِ مُحْتَمَـلاً.) وفي الحكمـة ٢٢٠: (لَيْـسَ مِـنَ الْعَـدْلِ الْقَضَـاءُ عَـلَى الثِّقَـةِ بِالظَّـنِّ.)

٣- الاسـتعجال في تنفيـذ المقترحـات والمشـاريع. قـد تعـرض عليـك مشـاريع جميلـة وجذابـة فـلا تردهـا واقبلهـا ولكـن لا تعطـي وعـدا لنفسـك ولا لغـيرك بتنفيذهـا قبـل التنضيـج والدراسـة الكاملـة.

١- الحجرات: ١١، ١٢.

قال عليه السلام في الحكمة ٣٦٣ (وقال عليه السلام: مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ،) أي ان تنفيذ المشاريع قبل التأكد من القدرة على اكمالها وتوفر الظروف لبلوغها النتائج المطلوبة هو نحو من الحماقة لان المشروع على الورق يختلف عن المشروع على الأرض.

ويقول عليه السلام في الخطبة ٥: (وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كالزَّارعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ.) ففي هذا النور العلوي نكتشف أهمية التأني في تنفيذ مشاريع التغيير والإصلاح الى حين تكميل جميع مقدماتها وشروطها اللازمة وان الاستعجال في التنفيذ قبل اكمال الشروط والتمهيد الكامل قد يؤدي الى ان تكون ثمار المشروع لغير القائمين به ولربما كانت للأعداء.

ومن الاستعجال المهلك التفاعل السريع مع المقابل بإظهار الجواب الارتجالي او التعليق او النقد غير المدروس، وكم سبب هذا الضعف في الإرادة والعقل العملي وعدم السيطرة على اللسان من نزاعات واختلافات ممزقة للحمة المجتمع ونسيج الاخوة والمحبة وادى الى خسائر لا يمكن ان تجبر وقد حذر امير المؤمنين عليه السلام من هذا المرض واكد على السيطرة على اللسان وعدم التسرع في الكلام وقال عليه السلام في الحكمة ٣٨١ (الْكَلاَمُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً.) فالكلمة قبل ان تخرج هي تحت سيطرة الانسان ان شاء اطلقها وان شاء خزنها الى ان يحين او قتها المناسب لها لكنها اذا خرجت دون ان يحكم ظرفها او كيفيتها ويدرس اثارها فانه سوف يكون اسيرا للنتائج السيئة التي تترتب على كلمته لان الانسان مسؤول عن كلامه.

وينبهنا امامنا في وصيته لولده الحسن الى هذا الامر في معادلة هامة وهي ان جبران خسارة الصمت اسهل بكثير من جبران خسارة الكلام حيث يقول عليه السلام (وَتَلاَفِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ،

وَحِفْـظُ مَـا فِي الْوِعَـاءِ بِشَـدِّ الْـوِكَاءِ) فـاذا كانـت الكلمـة مفيـدة ولم ينطـق بهـا الانسـان فانـه يسـتطيع ان يتـلافى ذلـك بـان ينطـق بهـا ولكـن اذا كانـت الكلمـة ذات اثـار سـيئة ومثـيرة للفتـن والعـداوة والاختـلاف فكيـف يسـتطيع ان يتـلافى ذلـك وقـد خرجـت عـن سـيطرة المتكلـم وراحـت تفعـل فعلتهـا وتؤثـر اثرهـا!.

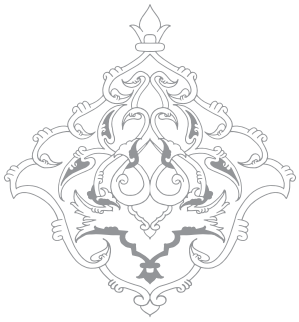

الباب الثالث
طرق تقوية العزم والإرادة

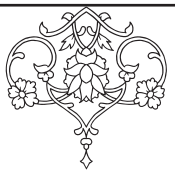

الأول: التفكّر:

كما أن التفكر مصدر للعلم وإنتاج العقل النظري وتشخيص حقائق الوجود، كذلك هو مصدر لإنتاج الشعور والإرادة، فهو من هذه الناحية ينتج العقل العملي أيضاً، وعليه فإنّ تقوية التفكر تؤدي إلى تقوية الإرادة، وقوة الجزم تنتج شدّة العزم.

ولذلك نرى تأكيد القرآن الكريم في المئات من الآيات الكريمة على النظر في الآيات والتفكّر، ويعدّ التفكر من أعظم العبادات، حيث ورد في الأحاديث الكثيرة أن: (تفكّر ساعة خير من عبادة سنة) وفي بعضا (ستين سنة وفي بعضا سبعين سنة)[١]، وقول الإمام علي عليه السلام: (مَن أكثر الفكر فيما تعلم، أتقن علمه، وفهم ما لم يكن يفهمه)[٢]، وقوله عليه السلام في الحكمة (١١٣): (لا علم كالتفكّر)، وقال عليه السلام في الكتاب (٣١) لولده الحسن: (مَن تفكّر أبصر).

وموارد التفكر هي:

١- التفكر في عظمة الخلق ليستدلّ به على عظمة الخالق وعظمة الهدف[٣]. وقد ذكرنا عبارات من نهج البلاغة يحث بها على هذا النحو من التفكر في حديثنا عن دليل السببية ودليل النظم والاتقان في الباب الأول في الفصل الأول في (ميزان معرفة الله).

٢- تفكر الإنسان في نفسه وما أودع الله سبحانه فيه من أجهزة وأعضاء واستعدادات وقابليات عظيمة لأجل أداء مسؤولية وأمانة كبيرة كقوله عليه السلام في الحكمة (٨): (أعجب لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم ويسمع بعظم،

١- كتاب أسرار الشريعة، ص٢٠٧.
٢- كتاب غرر الحكم، ص٦٥٦٤.
٣- أنظر كتاب (أربعين حديث) للإمام الخميني، الحديث الثاني عشر ص٢٢٥.

يضربهـا الهـواء فتقـرع عصـب الصـماخ فيتكـون السـماع، ويتنفـس مـن خـرم).

ومـن جهـة أخـرى يفكـر في فقـره وضعفـه وحاجتـه إلى الله في الحاضر والمسـتقبل، وأن غنـاه وقوتـه وعلمـه وحياتـه لـن يأتيـه إلاّ مـن مصـدره وهـو الله خالـق الوجـود، ومـن بدائـع مواعـظ نهـج البلاغـة قولـه عليه السلام: (...وَاعْلَمُـوا أَنَّـهُ لَيْـسَ لِهَـذَا الْجِلْـدِ الرَّقِيـقِ صَـبْرٌ عَـلَى النَّـارِ فَارْحَمُـوا نُفُوسَـكُمْ فَإِنَّكُـمْ قَـدْ جَرَّبْتُمُوهَـا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَـا أَ فَرَأَيْتُـمْ جَـزَعَ أَحَدِكُـمْ مِـنَ الشَّـوْكَةِ تُصِيبُـهُ وَالْعَثْـرَةِ تُدْمِيـهِ وَالرَّمْضَـاءِ تُحْرِقُهُ فَكَيْـفَ إِذَا كَانَ بَـيْنَ طَابَقَـيْنِ مِـنْ نَـارٍ ضَجِيـعَ حَجَـرٍ وَقَرِيـنَ شَـيْطَانٍ أَ عَلِمْتُـمْ أَنَّ مَالِـكاً إِذَا غَضِـبَ عَـلَى النَّـارِ حَطَـمَ بَعْضُهَـا بَعْضـاً لِغَضَبِـهِ وَإِذَا زَجَرَهَـا تَوَثَّبَـتْ بَـيْنَ أَبْوَابِهَـا جَزَعـاً مِـنْ زَجْرَتِـهِ أَيُّهَـا الْيَفَـنُ الْكَبِـيرُ الَّـذِي قَـدْ هَـزَهُ الْقَتِـيرُ كَيْـفَ أَنْـتَ إِذَا الْتَحَمَـتْ أَطْـوَاقُ النَّـارِ بِعِظَـامِ الْأَعْنَـاقِ وَ نَشِـبَتِ الْجَوَامِـعُ حَتَّـى أَكَلَـتْ لُحُـومَ السَّـوَاعِدِ فَـاللهَّ اللهَّ مَعْـشَرَ الْعِبَـادِ وَأَنْتُـمْ سَـالِمُونَ فِي الصِّحَّـةِ قَبْـلَ السُّـقْمِ وَ فِي الْفُسْـحَةِ قَبْـلَ الضِّيـقِ فَاسْـعَوْا فِي فَـكَاكِ رِقَابِكُـمْ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تُغْلَـقَ رَهَائِنُهَـا...).

٣- تفكـر الإنسـان في الأمـم السـابقة ومـا حـلّ بهـا بسـبب انحـراف عـن طريـق الله سـبحانه كقولـه عليه السلام في الخطبـة (١٨٢): (...وَإِنَّ لَكُـمْ فِي الْقُـرُونِ السَّـالِفَةِ لَعِـبْرَةً! أَيْـنَ الْعَمَالِقَـةُ وَأَبْنَـاءُ الْعَمَالِقَـةِ! أَيْـنَ الْفَرَاعِنَـةُ وَأَبْنَـاءُ الْفَرَاعِنَـةِ! أَيْـنَ أَصْحَـابُ مَدَائِنِ الـرَّسِّ الَّذِيـنَ قَتَلُـوا النَّبِيِّـينَ، وَأَطْفَـأُوا سُـنَنَ الْمُرْسَـلِينَ، وَأَحْيَـوْا سُـنَنَ الْجَبَّارِيـنَ! أَيْـنَ الَّذِيـنَ سَـارُوا بِالْجُيُـوشِ، وَهَزَمُـوا بِالْأُلُـوفِ، وَعَسْـكَرُوا الْعَسَـاكِرَ، وَمَدَّنُـوا الْمَدَائِـنَ!...)، وقولـه عليه السلام في خطبـة القاصعـة: (...فَاعْتَـبِرُوا بِـمَا أَصَـابَ الْأُمَـمَ الْمُسْـتَكْبِرِينَ مِـنْ قَبْلِكُـمْ مِـنْ بَـأْسِ الله وَصَوْلاَتِـهِ، وَوَقَائِعِـهِ وَمَثُلاَتِـهِ، وَاتَّعِظُـوا بِمَثَـاوِي خُدُودِهِـمْ، وَمَصَـارِعِ جُنُوبِهِـمْ، وَاسْـتَعِيذوا بِـالله مِـنْ لَوَاقِـحِ الْكِـبْرِ، كَـمَا تَسْـتَعِيذُونَهُ مِـنْ طَـوَارِقِ الدَّهْـرِ،...)، وقولـه عليه السلام: (...واحْـذَرُوا مَـا نَـزَلَ بِالْأُمَـمِ قَبْلَكُـمْ مِـنَ الْمَثُلاَتِ بِسُـوءِ الْأَفْعَـالِ، وَذَمِيـمِ الْأَعْـمَالِ، فَتَذَكَّـرُوا فِي الْخَـيْرِ وَالـشَّرِّ أَحْوَالَهُـمْ، وَاحْـذَرُوا أَنْ تَكُونُـوا أَمْثَالَهُـمْ. فَـإِذَا تَفَكَّرْتُـمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِـمْ، فَالْزَمُـوا

كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الْإِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا. وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي. وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ،...).

٤- التفكر في عواقب ونتائج المعاصي وآثار الأعمال السيئة، والثمار والنتائج الجميلة والطيبة للطاعات والأخلاق الحسنة، قال أمير عليه السلام في الحكمة (١١٨): (شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ).

وفي الحكمة (٤٣٠) قال عليه السلام: (اذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات)، أي أنّ لذّات المعاصي وتعب الطاعات ينتهي، وتبقى الآثار والنتائج الدائمية في نفس الانسان وفي المجتمع، فأما كمال ونور وانشراح وفرح دائم، أو ندمٌ وغمٌ وحزن وعذابٌ دائم، فيفكر الانسان ويقول لنفسه؛ ألا يستحق الكمال والسرور الدائم أن يبذل لأجله تعباً مؤقتاً؟ وهل تستحق اللذة المؤقتة الزائلة أن يلقى لأجلها الغم والحزن والعذاب الدائم؟ وحول تأثير المعاصي في زوال النعم يقول عليه السلام في الخطبة (١٧٨): (...وَايْمُ اللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ (اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ) وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ،...).

وكلام أمير المؤمنين هذا يوضح لنا المعادلات والسنن التاريخية التي تحكم المجتمع، ويعالج خطأً ثقافياً فكرياً كبيرا يحكم على الأذهان عند كثير من

الناس الذين يلقون باللائمة على غيرهم في تشخيص الآثار السيئة والحوادث المؤلمة التي يواجهها المجتمع، وتحكم الظالمين والمفسدين والطغاة بمصائرهم، وكأنّ الأقدار أحجار ترمى عشوائياً على الناس فتصيب قوماً وتخطأ آخرين، وأنّ على الإنسان أن يفكّر فيما يلاقيه من وقائع الزمان ويذهب إلى اكتشاف أسبابها التي يقول أمير المؤمنين في هذه الكلمات النيرة أنها تعود إلى الإنسان والمجتمع نفسه، فلا يلقي باللائمة على الأعداء والأنواء والزمان والحظ والقسمة وما شابه ذلك، بل عليه أن يذهب إلى نفسه ويكتشف دوره في تسليط هؤلاء الظالمين والطغاة أو غضب الطبيعة والأنواء عليه، وهناك ثلاثة أنواع من الآثار السيئة التي تترتب على الذنوب والتقصير في أداء الواجب الإلهي:

١- الآثار التكوينية الفردية كقساوة القلب وفقدان حب الطاعة والعبادة والحرمان من اللذات المعنوية إضافة إلى التأثيرات الصحية البدنية والنفسية، إضافة إلى الآثار على الذرية والأسرة والمحارم، وحول هذا المعنى يقول أمير المؤمنين ﷺ في الحكمة (٣٠٢): (مَا زَنَى غَيُورٌ قَطُّ).

٢- الآثار الاجتماعية للذنوب، كانعدام الأمن الاجتماعي والصحة والعلاقات الأسرية والمجتمعية الطيبة والمحبة والألفة والتعاون، وسوء المناخ وحبس البركات والقحط والغلاء.

٣- الإثم والعقوبة الأخروية.

وفي مقابل هذه الآثار السيئة المدمرة للذنوب والمعاصي، أنظر إلى أمير المؤمنين وهو يتحدث عن آثار التقوى ونتائجها في بناء المجتمع الصالح السعيد، وقد ذكر هذا المعنى في خطب كثيرة، ويمكن أن تكون الخطبة (١٩٨) أكثرها تفصيلا حيث قال ﷺ: (...فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ،

وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجِلاَءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ الله شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُم، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ، فَإِنَّ طَاعَةَ الله حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ، فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ).

٤- التفكر في تفاهة الدنيا وزوالها، وقد أولى أمير المؤمنين عليه السلام هذا الجانب الأهمية القصوى، ولا أعتقد أن أحداً من الواعظين يجاري ويباري عليّاً في هذا المضمار، وقد جمعت مواعظه فصاحة اللفظ وبلاغة التعبير وعمق المعنى وقوة التأثير، حيث تجد أن كلماته تناغم القلوب وتهز الأرواح، كقوله عليه السلام في الخطبة (١١٣): (وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، دَارُهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ،...)، فكم هي الدنيا تافهة بحيث أن الله أعطاها لأعدائه ولم يجعلها صافية لأوليائه، مع أنه يحبهم وهو أكرم الأكرمين وأقدر القادرين، ولو كان للدنيا قيمة حقيقة لكان أحباء الله أولى بها من غيرهم، وأتفه ما في الدنيا توقع زوالها في كل لحظة، هذا المعنى الذي أوضحه أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (٦٤) حين قال: (فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ الله، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ

بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا: فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالفَوْزِ أَوالشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ...).

الثاني: المحاسبة:

وهي عملية متابعة الانسان لسيرته وسلوكه لكي يكتشف أخطاءه فيقوم بإصلاحها، وينتبه إلى آثارها السيئة فيزيلها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا) (خطبة ٨٩)

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: (ليس منّا مَن لم يحاسب نفسه كل يوم)[1]

ولأجل تأثير المحاسبة لصناعة العزم والإرادة وبناء الملكات الفاضلة على الانسان أن يتبع المراحل التالية:

١- أن يفكر في أعمالها الماضية والحاضرة والمستقبلية التي ينوي فعلها، وتشخيص ما فيها من صحيح فيصمم على الاستمرار والتطوير ويشخص الأخطاء والآثار السيئة المحتملة ويصمم على اجتنابها.

٢- المشارطة: وهو أن يعاهد ربه ونفسه عهد الرجال الأحرار أن يطبق ما

١- الكافي: ج٢ ص٤٥٣.

صمم عليه، كأن يكون طعامه بهذا النحو والمقدار ونومه بهذا المقدار وكلامه بهذا النحو وأن يقسم وقته بهذا النحو والمقدار ويكتبها على ورقة ويشرط على نفسه أنه إن لم يطبق فعليه أن يقوم بمعاقبة نفسه.

٣- المراقبة: أن يراقب نفسه هل أنه أخذ يطبق المعاهدة والمشارطة أم لا؟!

٤- المعاتبة والمعاقبة: وهنا تبدأ عملية المحاسبة بأن يرى هل أنه تخلف عن بعض بنود المعاهدة فيبدأ بمعاتبة نفسه ولومها، وإذا كانت المخالفات كبيرة فيبدأ بمعاقبة نفسه بالصيام مثلاً أو ببذل المال ودفع الصدقات أو القيام ببعض الأعمال الصعبة.

الثالث: معاشرة الصالحين:

لاشك أن مرافقة أهل الخير والصلاح تؤثر كثيراً في بناء وصناعة إرادة الانسان نحو العمل الصالح، لأن الانسان كما يتأثر بالبيئة والعقل الجمعي كذلك يتأثر بالرفيق والقرين، وفي الحديث النبوي (المرء على دين خليله)[1]، والقدوة الصالحة لها تأثير أساسي على هداية الانسان وشحذ همته وعزمه على الأعمال الصالحة، وعلى العكس تماماً فإن معاشرة الأشرار تؤدي إلى التفاعل التدريجي معهم، وفقدان الانسان لا لإرادة الخير والصلاح فحسب بل يفقد حتى إيمانه، وقد حذّر أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (٨٥) بقوله: (مجالسة أهل الهوى منساة للإيمان)، وفي وصيته لابنه الحسن عليهما السلام: (قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم) أي أن مخالطة أهل الخير تجعل الانسان مثلهم ومخالطة أهل الهوى واللهو الفجور تؤدي إلى التأثر بهم وتقمّص سيرتهم وسلوكهم، مما يؤدي إلى نسيان الإيمان.

١- الكافي: ج٢ ص٣٧٥.

مسك الختام:

الهويّة العلويّة

سرعـان مـا تمـضي هـذه الحيـاة المتحركـة الزائلـة لنعـبر منهـا نحـو حياتنـا الثابتـة الأبديـة، ومـا تلـك الحيـاة إلا ظهـور أنفسـنا التـي يتـم توفيهـا ونقلهـا كاملـةً نحـو دار الحـق، والحيـاة هنـاك تابعـة لهويـة النفـس التـي صُنعـت في هـذه الحيـاة، فتلـك الحيـاة الثابتـة تابعـة لهـذه الحيـاة المتحركـة.

وحيـث أن قـوام الحركـة هـو المتحـرك والطريـق والهـدف، ومـن يجعلـك تسـير في الطريـق لتبلـغ الهـدف هـو الإمـام والقائـد، ولذلـك كانـت الهويـة الحقيقيـة متشـخصة بالإمـام (يـوم ندعـو كل أنـاس بإمامهـم).

مشـخصات النفـس ترسـمها حـركات الإنسـان في هـذه الدنيـا في جميـع مفـردات ميادين الحيـاة، فالنفـس كتـاب نؤلفـه اليـوم بحـركات ألسـنتنا وجوارحنـا وجوانحنـا ومواقفنـا وعقائدنـا وأخلاقنـا، وكل ذلـك يحـدده الإمـام.

فالنفـس تُحشـر بهويـة علويـة، إذا كان أمـير المؤمنـين عـليّ عليه السلام إمامهـا بـأن يقـود فكرهـا ويصنـع شـعورها ويحـرك جوانحهـا وجوارحهـا وحبهـا وبغضهـا ويحـدد موازينهـا وقيمهـا.

الهويـة العلويـة لا تحصـل عليهـا النفـس بتقبيـل الأضرحـة والقبـاب وترانيـم الحـزن وتراتيـل المدائـح وأهازيـج الـولاء، هـذه لا تصنـع هويـة، نعـم هـي إذا كانت صادقـة فهـي تحـرك الإنسـان نحـو صناعـة الهويـة، وإلاّ فهـذه المظاهـر يمكـن أن يقـوم بهـا محـبّ غـال أو جاهـل متنسـك، وقـد أخـبر أمـير المؤمنـين أن الأول هلـك فيـه، والثـاني قصـم ظهـره.

عـليّ عليه السلام الـذي يصنـع هويتنـا ليـس هـو الـذي نكتفـي بزيـارة مرقـده الطاهـر

في النجف الأشرف، ولا الذي نبكي لمصابه ونحتفل لمولده، وإنما هو عليٌّ الإمام، ومعنى الإمام؛ الذي يسير أمامنا ونسير خلفه ليقود حياتنا، وإذا كان عليّ بشخصه قد مضى ولا نراه أمامنا، فإن عليّاً بشخصيته وحقيقته الصانعة للهوية العلوية موجود بكامله في القرآن ونهج البلاغة ومعالم سيرته الواضحة.

وهو الذي يقول لولده الحسن عليه السلام: (أي بني إني وإن لم أكن عمّرتُ عمر مَن كان من قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم حتى عدت كأحدهم)، ويقول له أيضاً: (استدل على ما لم يكن بما قد كان، فإن الأمور أشباه).

قبل ابن خلدون بأكثر من ستة قرون يؤكد عليّ عليه السلام إن المجتمع والحياة تقودها معادلات وسنن لا تختلف ولا تتخلف، وكما رجع إمامنا إلى مَن سبقه حتى صار كأحدهم، فنحن أيضاً يمكن أن نرجع اليوم إلى زمن المعاصرين لعليّ فنكون منهم، ونكتشف هويتنا الحقيقية الفردية والاجتماعية ونكتشف مستقبلنا، لأن ما سوف يكون شبيها بما كان، ونستطيع أن نكتشف هويتنا هل هي تلك الهوية التي منحت لسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وابن التيهان والأشتر ونظرائهم؟ أم هي الهوية التي صنعها طلحة والزبير وابن العاص والأشعري ومعاوية لأنفسهم.

فهل نحن من أولئك الذين وصفهم عليّ بأنهم إخوانه؟ واشتاق لهم وبكى عليهم، وقال: {أوهِ على إخواني الذين تلو القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، ووثقوا بالقائد فاتبعوه}، وقال أيضاً: {أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق}، ووصفهم أيضاً بقوله: {باعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى}، وقال عنهم أيضاً: (هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا ما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ؛ أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، آهٍ.. آهٍ شوقاً

إلى رؤيتهــم).

أم نحــن ممــن بايــع عليّــا وقــال لــه بــخٍ بــخٍ أصبحــت مــولاي، أو صافــح اليــد الطاهــرة لعــلي وعقــد لــه حبــل الطاعــة ثــم راح ينكــث ويغــدر ويمــرق، فكــم هــم الذيــن بايعــوا عليّــا وقبّلــوا يــده وعاهــدوه بألسـنتهم وأهازيجهــم، ولكنهــم خرجــوا مــن الدنيــا بهويــة أعــداء عــليّ والمحاربــين لــه.

لنرجــع إلى المــاضي ونجعــل أنفســنا محــلّ طلحــة والزبــير والأشــعري وأمثالهــم، ثــم لنســحب المــاضي إلى الحــاضر ونــرى أنفســنا وســط الملياــرات والامتيــازات والمقامــات التــي جلبهــا لنــا المــال الحــرام، والمحابــات العثمانيــة والمقاييــس الأمويــة والموازيــن القبليــة والمحسـوبيات الفئويــة، ونهبــت مــن بيــت المــال وســهم الإمــام ويتامــى آل محمــد، ثــم يأتينــا عــليّ الموجــود بكامــل وجــوده الحقيقــي في موازينــه وقيمــه التــي أوضحهــا في نهــج بلاغتــه وسـيرته، فيقــول في الخطبــة (١٥): {والله لــو وجدتــه تُــزُوِج بــه النســاء ومُلــكَ بــه الإمــاء لرددتــه، فــإن في العــدل ســعة فمــن ضــاق عليــه العــدل فالجــور عليــه أضيــق}.

فما نحن فاعلون؟!

هــل يســتطيع حــب عــليّ أن يتغلــب عــلى بريــق الأمــوال ونشــوة الملــك وســورة التســلط ونــزوات الــترف؟

وهــل تســتطيع قــوة الــولاء العلــوي أن تقطــع علائقنــا بدنيــا الشــهوات والمــال والجــاه، وتنتشــلنا مــن عاقبــة الناكثــين والقاســطين والمارقــين؟!

نعــم إذا كنّــا قــد عرفنــا عليّــا بأنــه الطريــق والدليــل إلى الله، ووالينــاه وأحببنــاه كــي يوصلنــا إلى الله فــإن هــذا الــولاء ســوف يصنــع منّــا سـلمان وعــمار والمرقــال، وســوف يصنــع فينــا أمــة ولائيــة يــرد الله بهــا كل شــارد، ويصلــح فيهــا كل فاســد

(بولايتكم علمنا الله معالم ديننا وأصلح ما فسد من دنيانا)[1].

الازدواجية في التبعيّة والولاء:

وإذا كنا لا نريد عليّا كإماما يصنع حبه هويتنا العلوية التوحيدية الإلهية؟ بل نريد عليّاً يحقق لنا حبه هوى أنفسنا، فهذه هي المصيبة الكبرى التي واجهها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي مقتل الأمة وقد أشار الإمام لذلك في الخطبة (١٣٦) قائلا لهم: {لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ}.

وقال في الخطبة (٦٩): {وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي}.

إن هذه الكلمات العلوية السامية في بلاغتها، والعميقة في معانيها تحمل مؤشرات خطيرة، وتكشف مرضاً خطيراً في ثقافة التبيعة والولاء، وهو الازدواجية والانقسام والانتقاء.

لقد اجتمع الآلاف حول أمير المؤمنين لأجل بيعته كما وصف ذلك في الخطبة (٣): {فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وطيء والحسنان وشُقّ عطفاي، مجتمعين حول ي كربيضة الغنم}، فقبل البيعة ولم يكن راغباً فيها، وقام بالأمر بما أنه وليّ الله، ولأجل أن يصنع منهم المجتمع الولائي المتحزب على محور ولاية الله ورسوله، لكن المبايعين المتزاحمين على تقبيل الأيدي بالأمس، سرعان ما انقبلوا إلى ناكثين وقاسطين ومارقين، وملأوا قلب ولي الله ووصي رسول الله قيحا، وجرعوه نغب التهمام أنفاسا! والسبب يوضحه في هذه الكلمات: {إنهم لم يبايعوه ليوصلهم إلى الله، وفي الحقيقة لم يكونوا بايعوا عليّا الحقيقي الذي يريد أن يوصل الناس

١ - الزيارة الجامعة الكبيرة.

المبايعين لـه إلى الله، ولـو وفـوا لـه بالبيعـة لأركبهـم سـفينة النجـاة وسـار بهـم سـيراً سـجحا، لا يُكلـم خشاشـه ويتعتـع راكبـه، ولأوردهـم منهـلاً صافيـا تطفـح ضفتـاه ولا يترنـق جانبـاه، ولأكلـوا مـن فوقهـم ومـن تحـت أرجلهـم[1].

في الحقيقـة أنهـم بايعـوا عليّـا آخـر صنعـوه بأوهامهـم وأهوائهـم، وهـو عـلي الـذي يحقـق لهـم دنياهـم ويحافـظ عـلى مغانمهـم وامتيازاتهـم.

نعـم أحبـوا عليّـا لقرابتـه، وأحبـوا صلاتـه وعبادتـه، ويريـدون أن يصلـوا خلفـه ويكسـبوا منـه البركـة والتوسـل للحاجـات الماديـة وكفـى، ولكـن ليـس هـذا هـو عـليّ الحقيقـي، حقيقـة عـليّ الـذي نطق القـرآن بولايتـه ونصّبـه الرسـول الأكرم ﷺ في يـوم الغديـر تتجـلّى في إخـلاص توحيـده وشـدة عدلـه وتنمـره في ذات الله، وولايتـه هـي ولايـة مَـن يـلي أمـور رعيتـه ليرفعهـم إلى الله، وينتشـلهم مـن أوسـاخ وأدران تعظيـم الموازيـن الماديـة والدنيويـة والقبليـة وترجيحهـا وتغليبهـا عـلى الموازيـن الإلهيـة والنبويـة، فهـو القائـل في وصـف رسـول الله ﷺ في الخطبـة (١٦٠): {عرضـت عليـه الدنيـا فأبـا أن يقبلهـا، وعلـم أن الله سـبحانه أبغـض شـيئاً فأبغضـه، وحقّـر شـيئاً فحقّـره، وصغّـر شـيئاً فصغّـره، ولـو لم يكـن فيهـا إلا حُبنـا مـا أبغـض الله ورسـوله، وتعظيمنـا مـا صغّـر الله ورسـوله، لكفـى بـه شـقاقاً لله ومحـادة عـن أمـر الله.

وهـو القائـل في نفـس الخطبـة في بيـان ميـزان الإكـرام الحقيقـي: { وَ لَقَـدْ كَانَ فِي رَسُـولِ اللهَّ (صـلى الله عليـه وآلـه) مَـا يَدُلُّـكُ عَـلَى مَسَـاوِئِ الدُّنْيَـا وَ عُيُوبِهَـا إِذْ جَـاعَ فِيهَـا مَـعَ خَاصَّتِـهِ وَ زُوِيَـتْ عَنْـهُ زَخَارِفُهَـا مَـعَ عَظِيـمِ زُلْفَتِـهِ فَلْيَنْظُـرْ نَاظِـرٌ بِعَقْلِـهِ أَكْـرَمَ

اللهَّ مُحَمَّـداً بِذَلِـكَ أَمْ أَهَانَـهُ فَـإِنْ قَـالَ أَهَانَـهُ فَقَـدْ كَـذَبَ وَ اللهَّ الْعَظِيـمِ بِالْإِفْـكِ الْعَظِيـمِ وَ إِنْ قَـالَ أَكْرَمَـهُ فَلْيَعْلَـمْ أَنَّ اللهَّ قَـدْ أَهَـانَ غَـيْرَهُ حَيْـثُ بَسَـطَ الدُّنْيَـا لَـهُ وَ

١-;كلمات مقتبسة من خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار.

زَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ}.

فهذا عليّ أمير المؤمنين الحقيقي، يرى أن مَن يرى ميزان الكرامة والعزّة والغنى بالملايين والقصور والقناطير القارونية المقنطرة، ومظاهر الهيبة الفرعونية المصطنعة، فهو محادد ومشاقق لله، أي أنه يقف في الساتر المواجه لساتر أولياء الله.

ومَن بايع عليّا أو زاره أو أعلن حبه له بلسانه وشعائره ومظاهره، ولكنه يريد منه أن يحقق له دنيا معاوية وطلحة والزبير، فهو لم يرد عليّ بن ابي طالب الوليّ الحقيقي، إنما أرد وليّا وعليّا يُفسد نفسه ويترك عبادة ربه ليحقق رغبات عبيد الدنيا، وهذا عليّ وهمي صنعناه بأوهامنا كما صنع الكثير أيضاً إلها وربّا ونبيا غير الإله والنبي الحقيقيين.

أرادوا عليّا ووليّا براغماتياً وميكافيلياً يقول لأتباعه ومبايعيه ومنتخبيه أعطوني سلطة أعطكم دنيا وامتيازات ماديّة، ولكن هذه المعادلة ليست معادلة عليٌّ الحقيقي، إنما معادلة معاوية وأمثاله، معادلة عليّ بن أبي طالب الحقيقي هي انتخبوني وليّا أعطكم حقا وعدلا وأهب لكم حياة طيبة وأوصلكم إلى الله.

ولو سحبنا ذلك الزمان إلى عصرنا لوجدنا اليوم أيضا مَن قد صنعوا عليّا بأوهامهم غير ذلك الولي الوصي الذي بولايته اكتمل الدين وتمت النعمة وأصبح الإسلام مرضيا، وقوم اليوم أبناء قوم الأمس، أولئك بايعوه ثم نكثوا البيعة وحاربوه، وهؤلاء يزورونه ويشهدون له بالولاية بالحرم والمحراب، ويخالفون مبادئ وموازين ولايته في الباب والأعتاب.

عليٌّ مؤسس علم الاجتماع

مـا ذكـره ابـن خلـدون مـن أن المجتمعـات والأمـم تنشـأ بالعصبيـة، وتبقـى مـا دامـت عصبيتهـا قائمـة، فـإذا اتجهـت نحـو الـترف والنعيـم، انحـدرت نحـو الانقـراض وزوال الملـك[1]، فـإن عليّـا عليه السلام قـد شـخصه قبـل ابـن خلـدون بأكثـر مـن سـتة قـرون بمعادلـة أجـلى وأعمـق، مفادهـا أن الأمـم والملـك والحضـارة لا تقـوم عـلى العصبيـة المطلقـة، وإنـما تقـوم عـلى التعصّـب للإمـام الحـق والطاعـة والتبعيـة الواعيـة لـه بـما أنـه إمـام حـقّ.

فالهويـة العلويـة في شـقّيها الفـردي والاجتماعـي تقـوم عـلى التبعيـة لإمامـة عليّ عليه السلام بـما أنـه إمـا الحـق ولأجـل الحـق لا أن نبايـع عليّـا أو نواليـه أو نظهـر المحبـة لـه لأجـل أنفسـنا، أو نريـد عليـا لإصـلاح حالنـا وبالنـا وتحقيـق رغباتنـا، وأن يصنـع هويتنـا كـما نريـد لا كـما هـو يريـد، فهنـا يبـدأ الافـتراق والانـزلاق، فهنـا المفـترق الرئيـسي في مصنـع الحيـاة، حيـث يقـف عـليّ يدعـو أتباعـه إلى التوحيـد الخالـص وإقامـة العـدل والتعلـق بمحبـة الله والتلـذذ بالتضحيـة والعطـاء والعـروج في فضـاء الصفـات والأخـلاق الإلهيـة، وفي المقابـل تقـف علائـق التكاثـر والتفاخـر والـترف وحُـب التسـلط والتمييـز الطبقـي والاسـتحواذ والاسـتئثار تتجـاذب الانسـان نحـو الاتجـاه المعاكـس، فمـن اسـتطاع أن يقهـر علائـق الأنـا والهـوى ويتمسـك بحبـل التوحيـد والعـدل العلـوي ويطيـع عليّـا لله {مَـن أراد الله بـدأ بكـم، ومَـن وحّـدهُ قبـل عنكـم}[2]، فقـد وضـع نفسـه في خـط الإنتـاج الـذي يصنـع النفـوس العلويـة الصادقـة الطيبـة التـي تفـوز بالهويـة العلويـة، وأمـا مَـن غلـب عليـه الأنا وتسـلطت عليـه علائـق الهـوى، فسـوف يسـقط مـن خـط الإنتـاج العلـوي ويسـير في خـط الإنتـاج الـذي لا يحصـل منـه إلاّ عـلى هويـة معاويـة والزبـير وطلحـة وشـبث بـن

١- مقدمة ابن خلدون، الفصل١٨ ص١١٣..
٢- الزيارة الجامعة الكبيرة.

ربعي وعمر بن سعد وأمثالهم.

هكذا يجب أن نفهم الانتماء العلوي، هو انتماء صياغة وجود وبناء هوية، حُب عليّ يعني الذوبان في الحقيقة العلوية والخروج من مراجل صهرها علوي الفكري والإرادة والسيرة والأهداف، حُب علي هو أن نحبه كما يريد هو أن نحبه لا كما نريد نحن أن نحبه، أو نحبه عندما نحتاج إلى حبه في دنيانا ومصالحنا، فإذا عارض حُبه مصالحنا وآراءنا تركناه وذهبنا إلى غيره، وربما ذهبنا إلى عدوه لنعينه عليه.

وحيث أن الحق كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (٢١٦): {أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَ أَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ...}، فهو ليس تابعاً لوصف الواصفين وتحليل المحللين، وإنما يجب أن يأخذ ممّن يهدي إلى الحق، لا ممّن يهدّي إلا أن يُهدى.

وهنا ندرك عمق الولاية العلوية التي بها اكتمل الدين وعظمت النعمة وائتلفت الفرقة وندرك قول الأكرم صلى الله عليه وآله: {عليٌّ مع الحق والحق مع عليّ، يدور معه حيث دار}[1].

فولاية عليّ هي منبع الحق الذي ينبغي أن ينتهل منه مَن أراد أن يصنع هويته العلوية الإنسانية الإلهية، التي تظهر في يوم الحق، ويفوز بها في يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ، {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الأعراف:٨]، وهنا نفهم معنى كون (عليّ ميزان الأعمال)[2] و(عليّ قسيم الجنة والنار)[3].

١- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج١ ص٩٨.
٢- مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري، ج١٠ ص٢٢٢، في زيارة أمير المؤمنين عن الإمامين الباقر والسجاد عليهما السلام.
٣- البداية والنهاية، ابن كثير ج٧ ص٣٥٥.

فـلا يمكـن لأحدنـا مهـما كانـت مظاهـر حبـه أن يحصـل عـلى هويـة سـلمان وأبي ذر وعـمار والأشـتر وميثـم التـمار، إنـما حصـل هـؤلاء عـلى هويـة إخـوان عـليّ لأنهـم عرفـوا عليّـا إنّـه محـور الحـق فاتبعـوه للحـق {تلـو القـرآن فأحكمـوه، وتدبّـروا الفـرض فأقامـوه، ووثقـوا بالقائـد فاتبعـوه)، فهـذا أبـو ذر يقـول لـه أمـير المؤمنـين {يـا أبـا ذر لا يؤنسـنّك إلا الحـق ولا يوحشـنّك إلا الباطـل)، فيقضـي -أبو ذر- حياتـه متمسـكاً بكلمـة الحـق، مستوحشـاً مـن السـكوت عـلى الباطـل، حتـى رحـل منفيـاً غريبـاً وحيـداً لا أنيـس لـه إلا الحـق، وهـذا عـمار في صفـين يقـول (لـو هزمونـا وبلغـوا بنـا سـعفات هجـر لعلمنـا إنّـا عـلى الحـق)، وهـذا الأشـتر يـترك حـلاوة أعظـم نـصر عسـكري عـلى معاويـة الطغيـان والمكـر والغـدر ويسـتبدله بالهزيمـة الظاهريـة امتثـالاً لأمـر الحـق، هـذا عـلى المسـتوى الفـردي.

أمـا عـلى مسـتوى الأمـة والمجتمـع، فـإن الأمـة التـي تبايـع الإمـام الحـق لأجـل دنياهـا وموافقـة موازينهـا الطبقيـة والقبليـة وتريـده أن يصلحهـا بفسـاد نفسـه وترك مبادئـه وثوابتـه، فهـذه الأمـة سـوف يكـون مصيرهـا التيـه والضـلال، ووقوعهـا صيـداً سـهلاً للأعـداء وقصعـة تتداعـى عليهـا الأمـم، قـال ﷺ في الخطبـة (١٦٦): {لَـوْ لَمْ تَتَخَاذَلُـوا عَـنْ نَـصْرِ الْحَـقِّ، وَلَمْ تَهِنُـوا عَـنْ تَوْهِـينِ الْبَاطِـلِ، لَمْ يَطْمَـعْ فِيكُـمْ مَـنْ لَيْـسَ مِثْلَكُـمْ، وَلَمْ يَقْـوَ مَـنْ قَـوِيَ عَلَيْكُـمْ، لكِنَّكُـمْ تِهْتُـمْ مَتَـاهَ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ. وَلَعَمْـرِي، لَيُضَعَّفَـنَّ لَكُـمُ التِّيـهُ مِـنْ بَعْـدِي أَضْعَافـاً، بِـمَا خَلَّفْتُـمُ الْحَـقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُـمْ، وَقَطَعْتُـمُ الْأَدْنـى، وَوَصَلْتُـمُ الْأَبْعَـدَ}.

الإنسـان والمجتمـع العلـوي الـذي يسـتحق حكومـة عـليّ هـم الهـواة الحقيقيـون لعـليّ الحـق مـن أجـل الحـق، وهكـذا يُصنـع الإنسـان العلـوي والمجتمـع الولائـي، ولأجـل صناعـة هـذا الانتـماء كان كتـاب نهـج البلاغـة، إنـه كتـاب صناعـة الفكـر والإرادة لبنـاء إنسـان لا يفكـر إلا بالحـق ولا يريـد إلا الحـق، فيتبـع عليّا إمامـاً يبتغي منـه صلاحـه لا مصالحـه، ولذلـك فإنـه لا يتعامـل بالتجزئـة والانتقـاء والمعايـير

المزدوجة، وإنما يتخذ عليّا إماما يسير خلفه في كل شيء، ووليا يلي كل أموره ويحيط بكل أجزاء حياته، وهذا ما صرح به أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد بقوله: {يا كميل لا تأخذ إلاّ عنا تكن منّا، يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة}[1].

هذا هو الطريق إلى صناعة الهوية العلوية، وبناء المجتمع الولائي الذي به تجتمع النعمة وتأتلف الفرقة، وهذه هي شجرة الولاية الشجرة العلوية وهذه هي ثمارها، وكل زارع يقطف ثمار زرعه، فإذا لم نقطف سوى الفتن والتخلف والتمزق وتسلط الأشرار على الأخيار، فلنعلم أننا لم نزرع شجرة الولاية العلوية! وهذا هو قدرنا!!

وإذا كان قدرنا هو الانتقال من طاغية مستبد إلى محتل مستعبد إلى ظالم مفسد، فلنعلم أننا قد صنعنا قدرنا بأيدينا، فإن الله سبحانه لا يغيرنا حتى نغير أنفسنا.

ألم يكفي ما جرى علينا أن يكون عبرة لنا؟! كم أدبتنا نتائج أعمالنا فلم نرعوي؟ وكم ضربتنا وأوجعتنا فلم نلتفت ولم نعي؟! ألم يقل لنا أميرنا وإمامنا في وصيته لابنه الحسن عليهما السلام: {استدل على ما لم يكن بما قد كان، فإن الأمور أشباه، ولا تكونن ممن لا تنفعه العِظة إلا إذا بالغتْ في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب والجاهل لا يتعظ إلا بالضرب، والعقل يحفظ التجارب، وبادر الفرصة قبل أن تكون غصّة}، وها هو قد رسم لنا سنن التاريخ ومعادلات التغيير واضحة عندما قال في الخطبة (٢٥): {أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ}.

١- بحار الأنوار ج٧٤ ص٤١٢.

وقـال لنـا في الخطبـة (٢٧) أن سـبب تسـلط الأعـداء علينـا هـو أنكـم: {فَتَوَاكَلْتُـمْ وَ تَخَاذَلْتُـمْ حَتَّـى شُـنَّتْ عَلَيْكُـمُ الْغَـارَاتُ وَ مُلِكَـتْ عَلَيْكُـمُ الْأَوْطَـانُ...}، {وَ اللهِ يُمِيـتُ الْقَلْـبَ وَ يَجْلِـبُ الْهَـمَّ مِـنَ اجْتِـمَاعِ هَـؤُلَاءِ الْقَـوْمِ عَـلَى بَاطِلِهِـمْ وَ تَفَرُّقِكُـمْ عَـنْ حَقِّكُـمْ فَقُبْحـاً لَكُـمْ وَ تَرَحـاً حِـينَ صِرْتُـمْ غَرَضـاً يُرْمَـى يُغَـارُ عَلَيْكُـمْ وَ لَا تُغِيرُونَ وَ تُغْـزَوْنَ وَ لَا تَغْـزُونَ وَ يُعْـصَى اللهُ وَ تَرْضَـوْنَ}، وأخبرنـا بـأن التيـه سـوف يضاعـف علينـا أضعافـا بـما خلفنـا الحـق وراء ظهورنـا، وقطعنـا الأدنـى ووصلنـا الأبعـد.

آن الأوان أن نعـود لندخـل في حصـن الولايـة العلويـة ونـزور عليّـا ونعلـن حبنـا لـه ونشـهد لـه بالإمـرة والولايـة، ونبايعـه بصـدق أبي ذر وبصـيرة عـمار وإخـلاص سـلمان وشـجاعة مالـك ومعرفـة كميـل وصـبر ميثـم، بيعـة نصافـح فيهـا يـد عـليٍّ أو نقبـل ضريحـه الطاهـر، ونعلـن لـه الـولاء المطلـق، ونعاهـده لنكـون حملـة لـسرّه وجنـوداً لعدلـه وأنصـارا لحكمـه وأوليـاء لمـن والاه وأعـداء لمـن عـاداه.

بيعـة تتـوق فيهـا أنفسـنا أن تمسـك بيـد عـليٍّ لا لنحفـظ بهـا دنيانـا بـل ليمسـك بنـا ويرفعنـا إلى قمتـه التـي لا يرقـى إليهـا الطـير وينحـدر عنهـا السـيل، وليجلسـنا عـلى منابـر مـن نـور مبيضـة وجوهنـا حولـه في الجنـة، فنكـون مـن جيرانـه ومـن شـيعته الفائزيـن، هـؤلاء الشـيعة هـم الذيـن ينتظرهـم الإمـام الحجّـة عليه السلام كـي يظهر بهـم ويمـلأ الأرض قسـطاً وعـدلا، ويؤسـس دولـة الصالحـين. اللهـم هـب لنـا رأفتـه ودعـاءه واجعلنـا مـن المنتظريـن المخلصـين الواعـين الذيـن يعجلـون ولا يؤخـرون ظهـوره.

{اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي مَـا أَنْـتَ أَعْلَـمُ بِـهِ مِنِّـي فَـإِنْ عُـدْتُ فَعُـدْ عَـلَيَّ بِالْمَغْفِـرَةِ اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي مَـا وَأَيْـتُ مِـنْ نَفْـسِي وَ لَمْ تَجِـدْ لَـهُ وَفَـاءً عِنْـدِي اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي مَـا تَقَرَّبْـتُ بِـهِ إِلَيْـكَ بِلِسَـانِي ثُـمَّ خَالَفَـهُ قَلْبِـي اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي رَمَـزَاتِ الْأَلْحَـاظِ وَ سَـقَطَاتِ

الْأَلْفَـاظِ وَ شَـهَوَاتِ الْجَنَـانِ وَ هَفَـوَاتِ اللِّسَـانِ}. [١]

اللهـم صـلّ عـلى محمـد وعـليّ وأبنائهـما الطاهريـن ومكّنهـم مـن عقولنـا وقلوبنـا وجوارحنـا واجعلنـا أتباعـاً صادقـين لهـم في الـسرّ والعلـن.

١ - نهج البلاغة،خطب الإمام علي عليه السلام،ج ١،ص ١٢٧

AGENCY
وكالة اي ام الإعلانية | 078 2690 1443